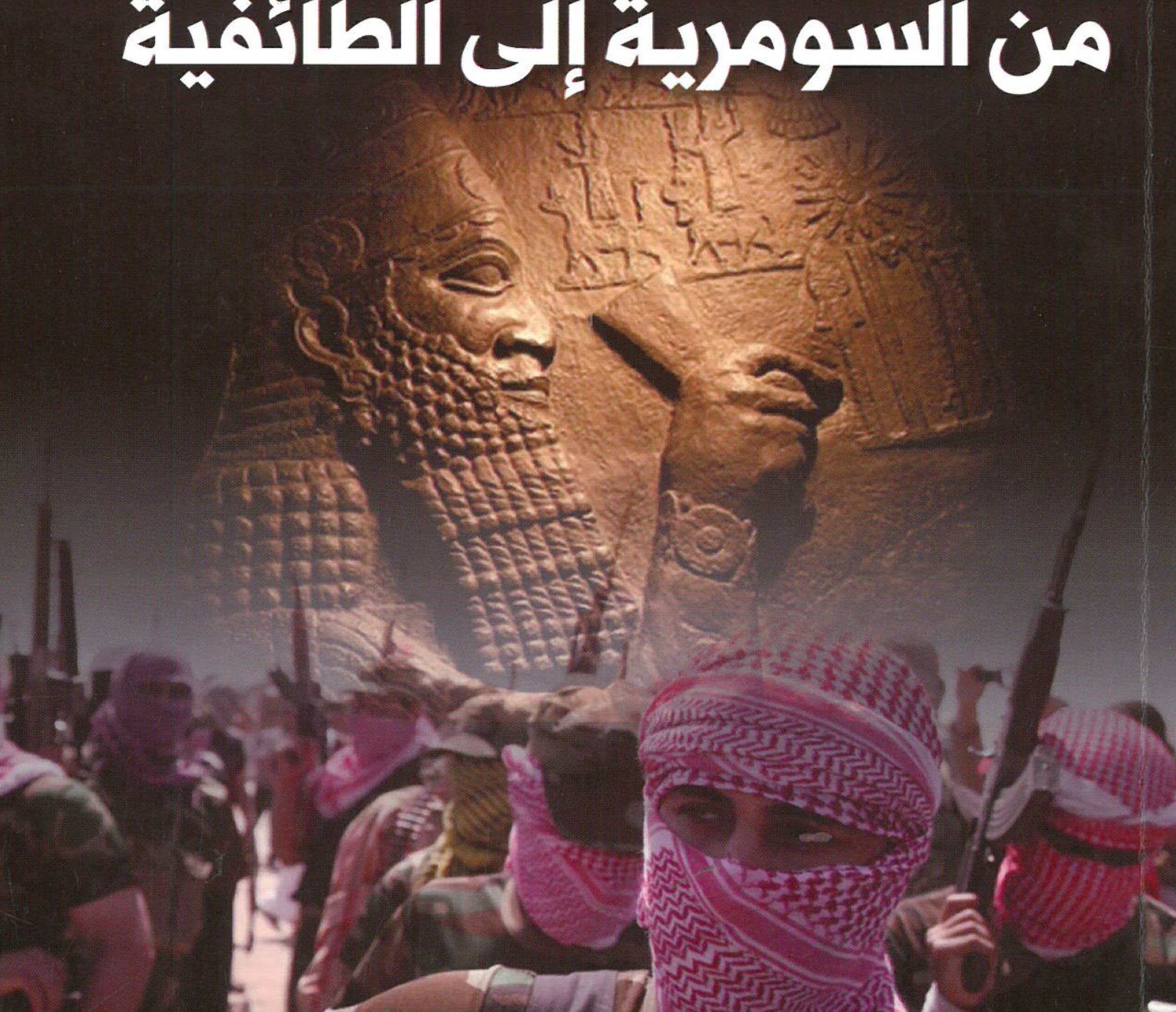

دار العرب للنشر والتوزيع
AL-ARAB PUBLISHING


الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

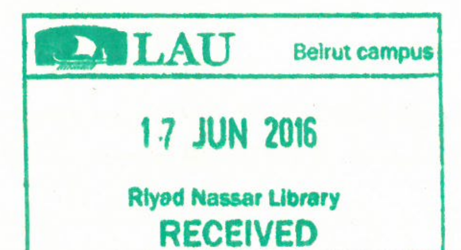
أ.د. قاسم حسين صالح
مؤسس ورئيس الجمعية النفسية العراقية

الشخصية العراقية
من السومرية إلى الطائفية



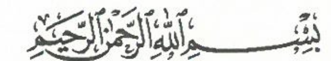
الشخصية العراقية
من السومرية إلى الطائفية

أ. د. قاسم حسين صالح
مؤسس ورئيس الجمعية النفسية العراقية




الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL


دار العرب للنشر والتوزيع
AL-ARAB PUBLISHING LLC.



طبعة دار العرب الأولى: 1437 هـ - 2016 م

ردمك 978-614-01-1829-4



دار العرب للنشر والتوزيع

AL-ARAB PUBLISHING LLC.
30450 Orchard Lake Rd.
Farmington Hills, MI 48334
T: 248 - 862 - 5666
E: alarabbook@gmail.com

توزيع

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http: //www.asp.com.lb

تصميم الغلاف: **علي القهوجي**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

المحتويات

القسم الأول
الشخصية العراقية والسياسة

القسم الثاني

بعيداً عن السياسة.. قريباً من الناس

القسم الثالث

وجهات نظر في الشخصية العراقية

القسم الأول

الشخصية العراقية والسياسة

دور الأحداث التاريخية
في تشكيل الشخصية العراقية

تحليل سيكوبولتك

مدخل في طبيعة الشخصية

يتفق علماء النفس المعنيون بدراسة الشخصية على صعوبة تحديد مفهوم "الشخصية". وبرغم أنهم يتفقون على أن كلمة (Personality) جاءت من الكلمة اللاتينية (Persona) التي تعني (القناع Mask) الذي يضعه الممثل على وجهه في المسرحيات الإغريقية والرومانية ليؤدي وظيفة "التمييز" بين ممثل وآخر، وتضمين (الشخصية) من ثم وظيفة "التمييز" بين فرد وآخر أو آخرين، فان الإشكالية هنا هي "التمييز" في ماذا؟. فالأمر على صعيد الواقع ليس سهلاً كما هو على المسرح الذي نستطيع أن نميز ممثلاً عن عدد محدود من الممثلين من خلال قناعه.

لكن هذه الإشكالية ما كان منتبهاً لها، أو كان يجري إغفالها، ذلك لأن دراسة الشخصية سيطرت عليها لعقود طويلة النظريات الكبرى Grand Theories التي حاولت تفسير الشخصية بصيغ شمولية تخلى عنها التوجه الجديد في دراسة الشخصية، الذي انتقل نحو التركيز على تفحص جوانب محددة من الشخصية.

ولقد حاول كل باحث أو منظّر في هذا الميدان تزويدنا بوجهة نظره في تعريف الشخصية وبمنظوره الخاص للإنسان أو الشخصية أو السلوك. ولهذا يصح القول بأن هنالك تعاريف للشخصية بقدر عدد المهتمين بها من المنظّرين في الشخصية. ولا يوجد في الوقت الحاضر تعريف متفق عليه وذلك لأن أي تعريف

لما يعكس أنواعاً معينة من المشكلات وطرائق معينة تستخدم في دراسة هذه المشكلات، بالرغم من حقيقة أن علم نفس الشخصية يستقطب أشخاصاً من العلماء المميزين والمبدعين من ذوي التفكير الأصيل، فكل منظّر في الشخصية هو عالم نفس مميز والعكس قد لا يكون صحيحاً دائماً (صالح، 1998، ص 12).

على أن التعاريف الحديثة للشخصية اقتربت من أن يكون التمييز Distinguish أو التفرّد في الشخصية بين اثنين الى أربعة مفاهيم هي: السلوك Behavior والفكر Thought والانفعال Emotion والمشاعر Feeling.

إن الشخصية هي بناء فرضي معقّد يستعمل لتفسير مسألتين أساسيتين هما:

الأولى: استقرار سلوك الفرد واتساقه عبر الزمن وعبر المواقف Consistency.

والثانية: تمايز أو اختلاف سلوك الأفراد الذين يتعرضون لنفس الموقف Distinctiveness'.

ونقصد بالبناء الفرضي للشخصية أنه تجريد يشير الى الحالة الداخلية أو البينية للفرد"علاقاته بالآخرين"، التي تتضمن التاريخ التعلمي الخاص به، والمكونات البيولوجية له، والطرائق التي انتظمت بها الأحداث المعقدة، والتي تؤثر في استجابة الشخص للتنبيهات الاجتماعية والبيئية.

وسواء أكان الفهم لطبيعة الشخصية تجريدياً أم غير تجريدي، يصف ما يجري داخل الفرد أم كيف يتفاعل مع الآخرين، أو يصف ما هو ملاحظ بصورة مباشرة أو ما يستدل عليه، فأن كل فهم لطبيعتها يضيء لنا جانباً معيناً من الإنسان، الذي يمثل في "شخصيته" حالة معقدة يصعب احتواؤها ودراستها وتحليلها بشكل كامل، مهما كان الباحث مبدعاً وذا معرفة شاملة وعميقة. ولهذا تعددت المنطلقات النظرية.. اكثرها شيوعا هي:

- المنظور الحياتي Biological Perspective
- التحليل النفسي Psychoanalytic Approach
- المنظور الاستعدادي The Dispositional Approach
- المنظور السلوكي The Behavioral Approach

- المنظور المعرفي The Cognitive Approach
- المنظور الإنساني The Humanistic Approach
- المنظور الوجودي The Existential Approach

وما يعنينا هنا هو منظور علم النفس التطوري Evolutionary Psychology، ويعني تحديداً:

(Theoretical perspective that examines behavioral process in terms of their adaptive value for a species over the course of many generations).

وعلى وفق هذا المنظور فان المورّثات "الجينات" السلوكية تخضع لقانون الانتخاب الطبيعي فتعمل، عبر التاريخ التطوري للانسان، على تقوية مورّثات سلوكية معينة واضعاف او دثر مورّثات اخرى.

تأسيساً على ذلك فاننا لسنا فقط نتاج تكويننا البيولوجي الخالص، انما ايضاً نتاج ما صنعته الأحداث من تأثير في مورّثات أسلافنا العراقيين. ولك أن تقول: ان "جيناتنا" الحالية مشفّرة أو مسجّل عليها الأحداث التي عاشها أجدادنا، وأننا نقرأ عناوينها ونرى صوراً منها في سلوكنا وتصرفاتنا.

سنستخدم من الآن لغة الايجاز والتساؤلات، وعلى النحو الآتي:

العراقيون.. قبل التاريخ وبعده

أ – قبل التاريخ (لقطتان)

- اسلافنا العراقيون دنيويون أكثر والاسلاف المصريّون أخرويون اكثر.. ولديهم قناعة بانهم سيبعثون ويعيشون الى الابد حياة سعيدة يمارسون فيها العمل الزراعي النبيل!.
- هذا يعني سيكولوجيا ان الآخروي يميل الى الزهد بالدنيا والتسامح مع الآخر، فيما الدنيوي يميل الى الخلاف مع الآخر لاسيما اذا تعلق الامر بالسلطة والثروة.

(هل لها علاقة بواقع الحال الآن؟!).

- جدنا السومري كان الوحيد في زمانه الذي يعدّ نفسه ابنا لألهه الشخصي وليس عبداً له، بعكس باقي الاسلاف زمنئذ حيث كان الفرد فيها عبدا لألهه!.
(هل لها علاقة بـــ "أنفة" العراقي "تضخم أنا" السياسي العراقي؟!).

ب – بعد التاريخ (لقطتان)

- قبل الاسلام، وصف العراقيون بعنفوانهم وأنهم ما استسلموا لضيم وما رضخوا لظالم ولا انبطحوا لسلطة.
- الخلفاء الراشون أول الحكّام في التاريخ الاسلامي الذين فهموا سيكولوجية العراقيين وأخذوا اعتراضاتهم مأخذ الجد.
- لدى الجاحظ تفسيرعلمي لاعتراضاتهم بقوله: (والعلّة في عصيان أهل العراق على الامراء، انهم أهل نظر وذو فطنة ثاقبة، ومع الفطنة والنظر يكون التنقيب والبحث، ومع البحث يكون الطعن والقدّح والترجيح بين الرجال والتمييز بين الرؤساء واظهار عيوب الامراء.. وما زال العراق موصوفا أهله بقلة الطاعة والشقاق على أولي الرئاسة).

استنتاج وتساؤل:

- هنالك علاقة كراهية بين العراقيين والحاكم.
- تساؤل: هل هذا يعني ان العراقيين هم أصعب خلق الله!.. أم ان الحكّام كانوا طغاة؟

العراق.. والسلطة

يوصف العراق بأنه:

- البلد الذي تؤخذ فيه السلطة بالقوة المصحوبة بالبطش بمن كانت بيده.
- والبلد الذي على أرضه سفكت أغزر دماء المحاربين من العراقيين والعرب، والأجانب: مغول، اتراك، فرس، انجليز، امريكان،.. وخليط دواعش!
- وفيه نشأت حضارات متنوعة ومتعاقبة، انهارت أو أسقطت بفعل صراع داخلي أو غزو أجنبي.

- وهو البلد الذي تنوعت فيه الأعراق والأديان والمذاهب، بمساحة مسكونة صغيرة نسبياً.
- وبالعراق نشأت أكثر المدارس الفكرية تأثيراً في الأخلاق والدين والسياسة: (البصرة، الكوفة، بغداد، أهل الصفا، المعتزلة، المذاهب الخمسة).
- ومع ذلك فالعراق اول دولة عربية تحصل على الاستقلال السياسي ويدخل (عصبة الأمم) ويشكل عنصراً فاعلاً في السياسة الدولية!

تساؤلان:

1. هل عن هذه الاحداث تحديداً.. نجم سيكولوجيا الخلاف مع الآخر والميل الى الجدل؟!.
2. وهل كان التنوع الثقافي في العراق.. احد أسباب العنف؟!

الشخصية العراقية والعنف

- تاريخ العراق هو تاريخ العنف والدم والمعارك.. ليس من بدء المشهد الكربلائي، بل لتاريخ قديم جداً يذكر معلومة لها دلالة هي أن: المهاجرين الى العراق القديم كانوا من المحاربين الأشداء!
- المجتمع العراقي يكاد يكون الوحيد بين مجتمعات العالم الذي خبر العنف لزمن يمتد آلاف السنين، وما يزال.
- حكمت العراق على مدى 1400 سنة اربعة انظمة (الاموي، العباسي، العثماني، والبعث) تجمعها صفة مشتركة هي ان معظم حكامها كانوا.. دكتاتوريّن قساة.
- تاريخ سيكولوجيا السلطة العراقية والإسلامية (بعد أن صارت بغداد مركز الدولة) جعلت العنف الوسيلة الوحيدة لحل النزاعات ولإجبار الخصوم على الطاعة والخضوع.
- لا تلجأ الى التفاوض والحوار إلا بعد أن تقطف السيوف رؤوس أفضل ما في القوم.

واقعة تاريخية

في 291هـ جاء جنود السلطان بالقرمطي (الحسين بن زكرويه) ومعه ثلاثمائة من اتباعه، وضعوا بفمه خشبة مخروطية وشدت الى قفاه كهيئة اللجام.

- أمر الخليفة (المكتفي) ببناء دكة في المصلّى العتيق.
- تجمهر الناس، وجيء بالأسرى يتقدمهم القرمطي.
- صعدوا به الى الدكة وقدّم له أربعة وثلاثون من الأسرى.. قطّعت أيديهم وأرجلهم وضربت أعناقهم واحداً بعد واحد.
- بدأ المشهد بضرب القرمطي مائتي سوط، وقطعت يداه ورجلاه وكوي ثم أحرق ورفع رأسه على خشبة، وصلب وعلّق بدنه بطرف الجسر الأعلى الواقع في بغداد طبعاً.

أنموذجان من الطغاة

أقسى طاغيتين حكما العراق هما الحجاج (20 سنة) وصدّام (ربع قرن).. وكلاهما عاش قلقاً ومنزعجاً من العراقيين.

- الحجاج اعترف بأن العراقيين اتعبوه واصلعوا رأسه (يا اهل العراق، جئتكم وانا ذو لّمة وافرة ارفل بها فما زال بي شقاقكم وعصيانكم حتى حصّ شعري).. وذبح الكثير منهم.. ما يعني انه كان داعشياً قبل داعش.
- صدّام أرعبه العراقيون من قبل أن تندلع في البصرة شرارة انتفاضة آذار (91) التي امتدت الى الناصرية فالمحافظات الأخرى، وكادت ان تطيح بنظامه لولا حماية امريكا له، وانتقم من العراقيين بدفنهم احياء في مقابر جماعية.

العراقي أكثر بني البشر، عبر تاريخه، تعرضاً للقسوة والذلّ والاهانة

❖ شواهد قديمة

- بزمن الخلافة العباسية فقط، ضرب الحصار على بغداد اكثر من عشر مرات، أضطر الناس فيها الى أكل القطط.

- بزمن الخلافة العثمانية (حوالى 500 عام).. فرضت أغرب الضرائب، وكانت حتى العشائر في الريف تتصارع من أجل السيطرة.
- لألف عام تعرضت بغداد للتدمير والنهب وأهين اهلها واذلّوا من قبل الغزاة.
- الحقيقة، التي تعيد نفسها اليوم، أنه حيثما حكمت بغداد أو احتلتها سلطة أجنبية، ساد العنف أرجاء العراق.

❖ شواهد حديثة

1. في 14 تموز 1958 قتل الملك فيصل الثاني وقطعت أيادي الوصي وآخرين وطاف بها الناس بشوارع بغداد.
2. في 1959، سحل بالحبال، وعلّق على المشانق، أشخاص في الموصل وكركوك.
3. في 1963 قتل عبد الكريم قاسم، وشوي بالنار سكرتير الحزب الشيوعي العراقي وعدد من أعضاء الحزب وهم أحياء، وجرى التمثيل بآخرين وطنيين.
4. في 1991، وضعت إطارات السيارات برقاب عناصر من البعثتين وأحرقوا وهم أحياء.
5. في 1988 أبيد مائة وثمانين ألف كردي بعمليات الأنفال، فضلاً عن مجزرة حلبجة.
6. في 2003 اكتشف عشرات المقابر الجماعية تضم رفات آلاف، بينهم نساء وأطفال دفنوا أحياء.
7. بين 2006 و2008 وصل عدد ضحايا الاحتراب الطائفي مائة في يوم واحد.

العقد النفسية في الشخصية العراقية

عملت هذه الأحداث على تكوين شخصية الفرد العراقي بخصائص سيكولوجية وعقد نفسية معينة نوجز أهم ما له علاقة بالآتي:

1- عقدة الخلاف مع الآخر

لم يتفق العراقيون حتى في تاريخهم الحديث، بدءاً من (استيراد) ملك لهم من الحجاز، وانتهاءاً بواقعهم الحالي.

2- عقدة تضخّم الأنا

- شخصية الأنا المتضخم.. "توليفة" من ثلاث شخصيات: (النرجسية والتسلطية والاحتوائية).

❖ تأخذ من الشخصية النرجسية:

- حاجتها القسرية إلى الإعجاب.
- تريد من الآخرين أن يعجبوا بها بالصورة التي هي تريدها، وأن لا يتوقفوا عن المديح والإطراء.
- التظاهر بامتلاكه قدرات فريدة.
- السعي الى ان يكون بطلاً بعيون جماعته.

❖ وتأخذ من الشخصية التسلطية:

- انفعالاتها الغاضبة واندفاعيتها.
- تصنيفها الناس بثنائيات (الأصدقاء مقابل الأعداء.. من كان معي فهو صديقي وما عداه فهو عدّوي).
- تصرفها بالتعالي والعجرفة نحو من هم أقل منه منزلة.

❖ وتأخذ من الشخصية الاحتوائية:

- السعي إلى السيطرة على الآخرين عملياً.
- احتواء وجودهم المعنوي وأفكارهم.
- استخدام أساليب درامية والتوائية للاحتواء.
- طرح نفسه كما لو كان انسكلوبيديا عارف بكل شيء.

استنتاجات

- تظهر هذه الخصائص لدى السياسيين اكثر، ويتباين وجودها وشدتها من شخصية سياسية عراقية الى اخرى.
- تشكّل هذه الخصائص أحد أهم أسباب ازمة العقل السياسي المعاصر.

3- عقدة التعصب لـ "الهوية"

يتداول السياسيون مفردة "الهوية" كما لو انهم يحملون عنها مفهوماً مشتركاً واضحاً، والواقع يشير انهم يختلفون في معانيها.

مفهوم الهوية في.. أربع حقائق:

1. هوية الشخص هي التي تحدد أهدافه وسلوكه.
2. كل فرد يحمل اكثر من هوية: (قومية، عشائرية، مذهبية، دينية..).
3. بحالة الاستقرار، يغلب على الجميع الشعور بالهوية الوطنية (الانتماء للوطن) وتضعف الهويات الفرعية.
4. حين يتعرض الفرد للخطر، يتراجع الشعور بالهوية الوطنية ويتماهى "يتوحد" مع هويته الفرعية اذا تعرضت للتجريح او المظلومية.

تعليق واستنتاج

تعليق

- لكل فرد الحق في الاعتزاز بهويته القومية، الدينية، المذهبية.. شرط أن لا يستعلي بها على الهويات الأخرى.
- الذي حصل بعد التغيير ان الشخصية السياسية العراقية فعّلت الهويات الفرعية بعملية سيكولوجية افضت الى تعصب قائم على تقسيم الناس الى مجموعتين (نحن) و(هم).
- نجم عنها ان الجماعة التي في السلطة لم تتحسس معاناة الجماعة الأخرى ومظلوميتها و لم تستمع لشكواها.. أفضى الى تصعيد التعصب.

- صراع الهويات القاتلة.. كان اقبحها (أخذ الثأر) بمفهوم قبلي تبين انه ما يزال له الدور الفاعل في بطش الآخر بالآخر في اوقات الأزمات وصراع الهويات.

استنتاج:

قانون اجتماعي (اكتشاف عراقي!).

تفعيل الهويات الفرعية في المجتمع المتعدد القوميات والأديان والمذاهب..

يؤدي الى التعصّب ويذكي دافع الانتقام في حرب ضحاياها الأبرياء.

4- عقدة الحول الادراكي

تعني تضخيم ايجابيات الجماعة التي تنتمي لها وغض الطرف عن سلبياتها، وتضخيم سلبيات الجماعة الاخرى وغض الطرف عن ايجابياتها، مصحوبة بآليتين نفسيتين:

- العناد العصابي: الافتقار الى مرونة التفاوض الايجابي، والاسقاط.. ترحيل اسباب الازمات والتقصير الى جماعة اخرى مع ان جماعته والأخرى شركاء فيها.

دراسة استطلاعية

تم توجيه سؤال الى عينة تكونت من (37) مستجيباً بينهم (23) من حملة الدكتوراه في اختصاصات مختلفة عن الصفات الايجابية والسلبية التي احدثتها الاحداث التاريخية في الشخصية العراقية.. فحددوا اهمها بالآتي:

الصفات الايجابية

❖ القدرة على التوافق مع احداث الحياة الصعبة والتأقلم مع الصدمات.

❖ قوة الانا.

❖ المرونة النفسية.

❖ القدرة على التحمل والصبر.

❖ الانفتاح على العالم الآخر.

❖ القدرة على الربط بين الاحداث وتحليل اسبابها.

❖ الخبرة واكتساب المهارات والتجريب والبحث عن بدائل لمعالجة الواقع المزري.

❖ الجرأة وحب التحدي.

❖ انتاج المفكرين في فنون الادب والتشكيل والمسرح والغناء، والابداع الكروي. (لم تنتج الاحداث تكنولوجيين!).

الصفات السلبية

❖ اضطراب الشخصية، والعدوانية والانفعالية بسبب الحروب.

❖ بناء شخصيتين في داخل كل فرد.

❖ الانانية وتفضيل المصلحة الخاصة.

❖ الانتهازية السياسية.

❖ فقدان الثقة بالآخرين.

❖ العنف الدموي والبطش بالآخر.

❖ تضخم الهويات الفرعية على حساب الهوية الوطنية. ضعف الطموح وإنعدام الهدفية في الحياة.

❖ الشعور بالاحباط والتشاؤم واليأس.

❖ الخوف من ظلم الحكّام.

استنتاجات ختامية

يمكن تحديد ابرز ما خلقته الاحداث التاريخية في الشخصية العراقية بالآتي:

+ خاصية الضد وضده النوعي، وتعني تحديداً: التصرف بأسلوبين متطرفين ومتناقضين.

واقعة تاريخية:

توجه الامام الحسين الى الكوفة، وحين لاقاه الشاعر الفرزدق.. سأله الامام عن احوال أهل العراق فأجابه: يا ابن رسول الله.. ان قلوبهم معك وسيوفهم عليك.

الموقف الذي تكون فيه الشخصية العراقية له الدور الرئيس في تحديد الفعل (السلوك) بسبب تضاد مواقف ومتطلبات الاحداث التاريخية التي عاشتها.

- تقلّب مزاج ناجم عن حياة كانت فيها مثل الارجوحة: ازمة، فرج، ازمة، فرج...
- تغير القيم: الحروب بطبيعتها تحدث تخلخلاً في القيم وتفسدها خاصة اذا كانت طويلة ومتلاحقة وكارثية.. و(القيم هي التي تحدد الأهداف وتوجه السلوك).
- يوجد الآن في المجتمع العراقي ثلاث شخصيات في ثلاثة اجيال:
  - جيل الكبار، تغلب فيه قيم اصيلة: المواطنة، التكافل، التسامح.
  - جيل الشباب، تغلب لديه قيم: الصراع من اجل البقاء، الانانية، وتحليل ما يعدّ حراماً او غير مقبول.
  - جيل الاحداث والمراهقين (الانترنت)، تغلب عليه قيمة: التمرد (الاخلاقي بخاصة).

اشكاليات

- جيل الكبار.. يحتضر، وجيل الشباب بيده سلطة وستؤول اليه بالكامل.. وجيل الانترنت سينفتح اكثر على العالم.
- صراع الاجيال بالمجتمعات المستقرة يكون منضبطاً، فيما يكون منفلتاً في غير المستقرة (العراق أنموذجاً).
- العملية السياسية العراقية منتجة للأزمات.. والأزمة لن تسمح بظهور (القدوة) ولن تفرز رجل دولة يوحّد الناس.
- شخصية السياسي العراقي من نوع (اما.. أو)، من خصائصها: انفعالية، مهووسة بإشهارهويتها للناس، تقلبات في المزاج والقرار.
- الوضع العام بالعراق طارد للذين يمتلكون منظومات قيمية صحية، والمفكرون العقلانيون المستقلون سياسياً.. مهمشون.
- نشطت بالسنوات الأخيرة جهود مثقفين من جيلي الكبار والشباب لأحياء الشخصية الوطنية العراقية.. وعليها يراهن العراقيون.

قبل الختام مواقف نفتقدها

زار القائد االبريطاني (لجمن) قبيل اندلاع ثورة العشرين، المرجع الديني (الشيرازي) في النجف وعرض عليه أن يأتيه بمفاتيح روضة الإمامين في سامراء (وهي بيد السّنة) ويعطيها للشيعة، فرفض (الشيرازي) وعاد (لجمن) خائباً، وبعث بطلب الشيخ (ضاري من وجهاء السّنة) وقال له: كيف تطيعون فتوى الشيرازي وهو مرجع للشيعة؟ فأجاب الشيخ ضاري والشيرازي مرجعنا أيضاً!.

وهذا هو الموقف الذي نفتقده اليوم، وبدونه تبقى نار العنف مشتعلة في العراق.

فرصة تاريخية:

في تحرير تكريت من (مقاتلي تنظيم داعش) الذي بدأ في (11 آذار 2015)، يقدم التاريخ فرصة للعراقيين باحتواء الطائفية وانهائها.. فلأول مرّة بعد التغيير، يمتزج معا دم السنّي بدم الشيعي.. في تكريت! من اجل العراق.

تبرئة ذمة

مهمة علماء النفس والاجتماع هي قراءة الواقع بموضوعية وتقديم النصيحة للحكّام ومتخذي القرار.. فان اخذوا بها فذاك ما نتمناه وان تجاهلوها يكفينا تبرئة الذمّة.

أهم المصادر

روز، ستيفن وآخرون (1990). علم الأحياء والأيديولوجيا والطبية البشرية. عـالم المعرفـة (العدد 148)، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

شلتز، داون (1983). نظريات الشخصية. ترجمة حمد دلي الكر بولي وعبد الرحمن القيسـي، جامعة بغداد، كلية التربية.

صالح، قاسم حسين (1998). نظريات معاصرة في علم النفس. اليمن، صنعاء: مكتبة الجيـل الجديد.

صالح، قاسم حسين (2014). الشخصية العراقية – المظهر والجوهر. دار ضفاف، العـراق – الآمارات.

Buss, D.M. (1999). Evolutionary Psychology. Praeger publisher-Greenwood Publishing.

Freud, (1933). The anatomy of personality. New York: Norton.

Gleitman, H. (1995). Psychology. New York: Norton.

Hergenhann, B. R. (1994). An introduction to theories of personality.(4th Ed.) Englewood Cliffs, N. J: Prentice - Hall.

Holden.C. (1987). The genetics of personality. Science.237 - 598 - 601.

Lahey,B,B.(2004). Psychology. McGraw Hill

Maslow (1971). The Farther reachs of human nature. New York: Viking.

Rogers (1980). A way of being. Boston: Houghton Mifflin.

Snyder (1987). Public appearances/private realites. New York: Freeman.

Weiten, W. (1998). Psychology. Themes and Variations. (4 Th ed.) An International Thahomson Publishing Company.

شيوخ العشائر..
من الانجليز الى الطائفيين

كانت (المس بيل) اول من درس شخصية رؤساء العشائر العراقية.. علميـاً وعملياً. كانت تتعشى معهم في مضائفهم واحصت عنهم كل صغيرة وكبيرة بمـا فيها عدد الزوجات والخيول والمواشي.. التي يمتلكها كل واحد، فضلاً عن قيمهم وعاداتهم. وكان هذا العقل البريطاني الاستخباراتي الذي امتاز بالـذكاء والـدهاء يرفع تقاريره الى الحكومة البريطانية فتوافق عليها مع الامتنان.

والانكليز هم الذين أدخلوا شيوخ العشائر ميدان السياسة. ففي التقرير الذي رفعته (المس بيل) إلى لندن عام 1923، اوضحت أن أصلح طبقة لحكم العراق هم شيوخ العشائر، فأشركوهم في المجالس النيابية المتعاقبة بعدد كبير زاد على ثلـث أعضائها، وصاروا أصحاب ثراء وجاه واعتبار اجتماعي وسلطة يسـتعان بهـا في إدارة البلاد وضرب المعارضة السياسية.

ومع أن العشائر العراقية قامت بثورات وتمردات ضـد سـلطات الحكـم العثماني، إلا أن أبرز دور لها هو اشتراكها بثورة العشرين، إلى جانب رجال الدين الذين رفعوا شعار (إخراج الكافر الأجنبـي من البلاد) بوجه القوات البريطانيـة التي دخلت العراق عام 1917. ويحسب لها أنها أسهمت من خلالها بتعميق الحـس الوطني ومناهضة السيطرة الأجنبية، وإضعاف الروح الطائفية التي جعلت بغـداد ساحة احتراب طائفي في فترة الحكم العثماني.

والواقع إن عشائر وسط وجنوب العراق تختلف عن عشائر المنطقة الغربيـة، في أن الأولى تتحكم بها قيم المرجعية الدينية فيما تتحكم القيم البدوية في الثانيـة.

غير أن كلا الفريقين تجمعهما "العصبية القبلية" بوصفها الوسيلة التي تلزم الجميع بحماية كيان العشيرة لقاء تأمين حاجة أفرادها الى الشعور بالأمان، التي تجسدت عام 2003. فحين سقطت الدولة وتعطّل القانون، برزت لدى الفرد العراقي سيكولوجيا الحاجة إلى "الاحتماء" فكانت العشيرة هي ملاذه الأول.

إن التاريخ يحدثنا أن شيوخ العشائر يقفون مع الأقوى. ففي التقرير الذي أعدته دائرة الاستخبارات البريطانية في العراق عن مشايخ ولاية بغداد سنة 1917، يذكر مترجمه عبد الجليل الطاهر أن بعض شيوخ العشائر كانوا متعاونين مع الإنكليز، وأنهم كانوا يحصلون منهم على الرشوات، وأن الإنكليز استعملوا أساليب الإغراء وتلويث الضمائر واستطاعوا شراء ذمم بعض شيوخ العشائر.

والمفارقة ان الدكتاتور صدام حسين والطائفيين (الديمقراطيين) اعتمدوا نفس الاسلوب الانكليزي. فلقد شجع النظام السابق على استيطان عشيرة الجنابيين في الشريط الواقع جنوب بغداد لتكون حائلاً بين بغداد والمدن الشيعية. ويذكر علي عبد الأمير علاّوي بكتابه (احتلال العراق) أن رؤساء الأفخاذ العشائرية الجنابية منحوا أراض زراعية خصبة في اللطيفية واليوسفية والمحمودية.. التي صارت تعرف فيما بعد بـ"مثلث الموت".

وعمد صدام إلى تشكيل (شيوخ أم المعارك).. كثيرون منهم رؤساء عشائر شيعية اشترى ذممهم بدفع هدايا مالية ومسدسات وامتيازات، لقاء قيامهم بالسيطرة على أفراد عشائرهم وأن يكونوا عيونا للسلطة. واستجاب عدد منهم طمعاً بـ (التكريم) أو دفعاً لشرّ طاغية لا يرحم. والشيء نفسه قام به الطائفيون، إذ التقى رئيس الوزراء السابق (نوري المالكي) بعدد من الشيوخ بقصد كسب أصوات أتباعهم في الانتخابات وتأييدهم لشخصه. ويذكر لي احد شيوخ الناصرية انه قبيل انتخابات 2010 زاره ممثلان عن حزبين شيعيين في السلطة طلبا منه أن يمنحاه أصوات أفراد عشيرته، ولأنه لا يريد أن "يزّعل" احدهما فإنه أخبرهما بأنه سيجعل أصوات جماعته مناصفة بينهما!

ولأول مرّة في تاريخ الحكومات العراقية يكون سوء إدارة الحكومة لشؤون الناس والبلاد سبباً في بعث الروح الوطنية وخفض العداء الطائفي بين شيوخ

عشائر في الطائفتين السنّية والشيعية. فبعد اندلاع التظاهرات في الأنبار بالأسبوع الأخير من عام 2012، وظهور شيوخ عشائر سنّية تشكو ظلم الحكومة وتؤيد مطالب جماهير انتظمت في تظاهرات عفوية سخر منها رئيسها بوصفها (فقاعات)، عُقد في البصرة مجلس ضم شيوخ عشائر بأغلبية شيعية، أعلنوا فيه تضامنهم مع المطالب الشرعية للمتظاهرين في المدن ذات الأغلبية السنية. وفي اليوم نفسه أقام شيوخ عشائر مجلس عزاء بمدينة النجف لشيخ عشائر الجبور (محمد طاهر العبد ربه) الذي اغتيل في الموصل وعدّوه رمزاً من الرموز الوطنية.

بالمقابل، نظمت وزارة الداخلية باليوم نفسه مؤتمراً موسعاً لرؤساء عشائر من الطائفتين. ومع انه دعا إلى تشكيل لجنة من رؤساء العشائر لتوحيد مطالب المتظاهرين، إلا أن الهدف الرئيس له هو خطب ودّ شيوخ عشائر ليكونوا مع الحكومة.. التي قامت بتوزيع (استمارات خاصة بحيازة وحمل السلاح لأكثر من 150 من شيوخ العشائر بينهم زعماء قبليون من الأنبار، ودعتهم إلى التدخل لوقف التظاهرات). وهذا حال كل الحكومات العراقية.. إنها تستميل إليها شيوخ العشائر حين تشعر بخطر يتهددها، وتجزل العطاء لمن يتعاون معها، وإن عدداً من الشيوخ يستجيبون حتى لو كانوا يعلمون أن الحكومة على باطل.

ان قراءتنا السيكولوجية التاريخية تكشف عن صفة ثابتة في شخصية شيخ العشيرة، هي أن الحمية على وطنه لا تأخذه قدر ما تأخذه الغيرة على الشرف، بمعنى أنه يغلّب قيمه العصبية ومصالح عشيرته على مصلحة الوطن، وانها ميالة إلى التباهي بما تملك من ثروة وخيول وأبقار وأغنام.. ونساء!. وقد توفرت الفرصة لعدد من الشيوخ أن يجمعوا بين رئاسة العشيرة والعمل كرجال أعمال. ويذكر علي علاوي بكتابه (احتلال العراق) أن بعض رؤساء العشائر اندفعوا للتعاون مع سلطة الائتلاف الموقتة لأسباب مالية صرف.

الأخطر، ان ازدواجية مواقف شيوخ العشائر تبقى يحكمها عاملا التودد للسلطة بالحصول على منافع وسلطة وجاه، وان العصبية القبلية تتحكم بهم وتكون هي الأقوى في أوقات الأزمات، وانهم يبقون اصلاء (ينحطون عالراس) متى ما كانوا بعيدين عن السلطة.

والحقيقة التي لم ينتبه لها كثيرون ان اخطر مرحلة يمر بها رؤساء العشائر على مدى مئة عام هي التي يعيشونها الآن في زمن الطائفيين.. ولا يدركون أنهم في الآخر هم الخاسرون.

الشخصية العراقية بين زمنين

يستهدف هذا النص معرفة ما افسده النظامان الدكتاتوري والديمقراطي في الشخصية العراقية، والتنبيه الى ان الامور في السياسة والمجتمع لن تستقيم ما لم تكن اولى مهماتنا اصلاح ما افسده النظامان في الشخصية العراقية.. فضلاً عن ان في هذا النص شهادات لأحداث تهم المؤرخين المعنيين بتاريخ العراق الحديث.

***

ان متابعتنا لتحولات الشخصية العراقية تقدم اضافة معرفية لنظريات الشخصية الأكاديمية التي تؤكد ثبات خصائص الشخصية عبر الزمن، فيما نصوغ اضافتنا بما يشبه النظرية هي:

(ان الشخصية تتغير عبر الزمن وعبر المواقف، وان النظام السياسي له الدور الرئيس في هذا التغيير).

سنقارن هنا سلوك الشخصية العراقية عبر الزمن الممتد بين نظامين: الدكتاتوري (35سنة) والديمقراطي (12سنة).. آخذين بالاعتبار أن ما نشخّصه فيها لا يستوفي صيغة التعميم ولا يشمل كل المواقف، انما الغالبية من العراقيين والشائع المؤثر من المواقف.. فضلاً عن انه ليس من الصحيح علمياً وعملياً القول بوجود شخصية عراقية واحدة تمثل المجتمع العراقي لتنوع مكوناته التي ينفرد بها في المنطقة.

الشخصية العراقية زمن النظام الدكتاتوري:

احدث النظام الدكتاتوري اربعة مواقف سلوكية في اربعة انواع بارزة من الشخصية العراقية، هي:

1. الشخصية السادية
2. الشخصية الماسوشية
3. الشخصية المقهورة
4. الشخصية المتمردة (الثورية)

بعيدا عن اصل السادية والمازوشية وعلاقتهما بالسلوك الجنسي، فان المقصود بهما هنا وجود شخصين (كيانين، جماعتين..) احدهما يمارس القوة والآخر مستسلم لها. ولقد تجسدت السادية بأقبح وأفضع اشكالها في شخصية الرئيس العراقي السابق صدام حسين، بل انه كان سيكوباثيا باستخدامه العنف القاسي مع الخصوم.

ومن خصائص السادية أن صاحبها يعمد إلى ذمّ الآخرين وازدرائهم والتقاط عيوبهم وتحقيرهم والبحث عن أخطائهم وتضخيمها من أجل معاقبتهم بشدّة، وتسيطر عليه دوافع تدفعه قسراً إلى تدمير سعادة الآخرين وتبديد آمالهم.

والحق، ان صدام حسين ما كان أول حاكم سادي في العراق (ونرجو ان يكون آخرهم)، فالسلطة فيه مارست عبر أكثر من ألف سنة مختلف الأساليب التي تجعل الناس ينظرون إلى "الخضوع" بوصفه حقاً لها وواجباً عليهم، ويتقبلون آلامهم ولا يشكونها حتى لأنفسهم، ليتحقق من خلالها (معادل نفسي) طرفاه "السادية" و"المازوشية" يمنح السلطة الشعور بالاطمئنان على ديمومتها.

ولقد بدأ تدجين العراقيين على السلوك المازوشي في سبعينات القرن الماضي، آخذا شكل الترغيب والترهيب للانتماء إلى حزب البعث، ثم الإجبار على الالتحاق بالجيش الشعبي وعسكرة الناس الذي يعدّ من أعلى الممارسات في (معادل السادي - المازوشي بين السلطة ورعاياها، والمبالغة في أساليب إذلال الناس وتحقيرهم، أقساها.. أخذ ثمن الطلقات من أهل المعدوم الذي تم بها قتله، وعدم السماح بإقامة مجالس العزاء للذين تعدمهم السلطة، والإعدام في الساحات العامة للهاربين من الجيش.. فضلاً عن المخلق حالة من الخوف والرعب الجمعي والرقابة الأمنية المؤسسية والحزبية، وأوصل الفرد العراقي إلى أقصى حالات اليأس المتمثلة بتوليد يقين لديه بأنتقرير مصيره بيد السلطة وحدها التي لم تستطع أن تطيح بها ثلاثة حروب كبيرة وحصار شامل لثلاثة عشر عاماً. حتى "البطاقة التموينية" كان لها دور

سيكولوجي في إشاعة المزاج المازوشي بتوليد وتقوية الشعور لدى المواطن بأن الدولة هيالتي تطعمه وهي خيمته التي يستظل بها، وأن عليه أن يخضع لها حتى لو كانت ظالمة. بل ان "الحملة الإيمانية" أيضاً كان لها هدف مازوشي هو توجيه المواطن نحو التذرع بالصبر على ما أصابه من محن وفواجع، والشكوى لله وكبت شعور التذمّر من السلطة التي هي سبب محنه وفواجعه.

والمفارقة انه نجم عن المبالغة في ممارسة السادية من قبل السلطة، مبالغة في ممارسة المازوشية بين الناس، وكبت ملأ الحوصلة، وحقد يغلي من الداخل ينتظر لحظة الانفجار ليشفي غليله في انتقام بشع.. وقد حصل!.. من قبل الشخصية المتمردة (الثورية) التي اوجدها ذلك النظام بين أفراد الأسر المنكوبة بضحاياها بشكل خاص. فلقد شهدت بأم عيني كيف وضعوا اطارات السيارت حول رقاب بعثيين وأحرقوهم وهم احياء. واذا كان هذا على صعيد جماهير دفعها الشعور باخذ الثأر بهذه الطريقة البشعة، فأن النخبة السياسية والمثقفة من هذه الشخصية اصدرت قانوناً اسمه (الاجتثاث).. الذي يعني القلع من الجذور.. والمشحون بانتقام جسدي ونفسي واقتصادي واجتماعي بشع.

ولقد انتج النظام الدكتاتوري أشد انواع الشخصية سلبية هي (الشخصية المقهورة). وفي كتابه الممتع لعالم النفس اللبناني مصطفى حجازي يصف الانسان المقهور بانه المسحوق امام القوة التي يفرضها الحاكم المستبد فلا يجد من مكانة له في علاقة التسلط العنفي هذه سوى الرضوخ والتبعية والوقوع في الدونية كقدر مفروض.. ومن هنا شيوع تصرفات التزلف والاستزلام والمبالغة في تعظيم السيد اتقاء لشرّه او طمعا في رضاه. ويضيف حجازي ان ما ينجم عن هذه العلاقة هو تغذية نرجسية السيد لمزيد من تضخيم اناه وجعل الانسان المقهور تابعا له واداة في خدمته.. اذ لا اعتراف الا بـ (أنا) السيد، لا حياة الا له، لا حق الا حقه.. وينتهي الامر بالانسان المقهور الى الاستكانة والاستسلام والتبخيس او الحط من قيمته كانسان يعاني كل انواع الحرمان.. لكنه ما ان يجد السيد قد ضعفت سطوته او فقد هيبته او اطيح به، فان ما كان مكبوتا بداخله ينفجر كالبركان.. فيدفعه انفعاله الى الانتقام من كل ما يحسبه انه للسلطان.

وكان ان نجم عن ذلك انتهاك الملكيتين العامة والشخصية. فبعد هزيمة جيش النظام بغزو الكويت (1991)، وسقوط السلطة في اغلب المحافظات العراقية، وجهّت ضربة جديدة للمنظومة القيمية في المجتمع استهدفت الملكية العامة المتمثلة بمؤسسات الدولة، تبعها حصار نجم عنه انتهاك قيمة احترام الملكية الشخصية، اذ شاع في تسعينيات القرن الماضي حالات السرقة بشكل عام، وسرقة السيارات المصحوبة بالقتل. وكنت اجريت وقتها دراستين، التقيت في الأولى بعدد من مرتكبي جرائم السرقة بسجن ابو غريب، وتحاورت معهم في جلسة (ديوان) عن الاسباب التي تدعوهم للسرقة، فاجابوا انها العوز والفقر وعدم وجود مصدرعيش لهم ولعوائلهم. وحين سألتهم: ماذا لو اطلق سراحكم الآن؟ أجاب خمسة منهم انهم سيسرقون اول سيارة يرونها في الشارع!. اما الدراسة الثانية فقد اجريت على عصابة من ستة اشخاص قامت اواسط التسعينيات بسرقة سيارات (سوبر ياباني تحديدا) وقتل اصحابها. وكان زعيمها في الثامنة والعشرين، قتل ستة اشخاص واخذ سياراتهم. وحين سالته: لو انهم البسوك البدلة الحمراء واقتادوك فجرا الى الاعدام فعلى ماذا ستندم؟، اجابني: اندم لأنني لم اقتل اكثر!.

ان الضربة الموجعة التي استهدفت قيمة احترام الملكيتين العامة والشخصية بسنوات الحصار.. تبعتها ضربة اوجع على نفس الهدف في 2003/4/9.. وما بعده شكلّتا احد اهم اسباب الفساد المالي الذي نقل العراق الى مواقع الصداره بين الدول الفاسدة.

وباستثناء الشخصية العراقية السليمة التي ظلت متماسكة في منظومتها القيمية، فان معظم الشخصيات التي استلمت السلطة (سلّمت لها) هي من الشخصيات التي تعاني الشعور بالقهر والظلم والحيف والجور.. وجدت الفرصة لتنطلق منها الشرور.. ضد المستبد واجهزته القمعية واتباعه اولاً.. ثم ضد الأخوة الذين حولّهم صراعهم على السلطة والثروة الى اعداء. وكان ان حدثت تحولات كبيرة في الشخصية العراقية بالزمن الديمقراطي تثبت صحة نظريتنا ان سلوك الشخصية ليس ثابتا ومستقراً عبر الزمن والمواقف وان نوع النظام السياسي له الدور الرئيس في هذا التغيير.

الشخصية العراقية بعد التغيير (2003)

احطر ما احدثته السلطة (السياسة) في الشخصية العراقية بعد التغيير هو خلخلة المنظومة القيمية بداخلها. ولأن عبارة (المنظومة القيمية) قد تمر عابرة فان الأمر يتطلب التوقف عندها.. لتبيان انها اهم قضية نواجهها الآن، وأهم سبب في ازماتنا السياسية.. والأخلاقية ايضا!.

شغلت (القيمValues) اهتمام الفلاسفه وعلماء الاجتماع والاقتصاد والسياسة والدين وعلم النفس، لدورها الرئيس في صناعة الانسان وتحديد سلوكه. ومع انهم تنوعوا في تحديد مفهومها الا انهم اتفقوا على ان القيم تعمل على التحكّم بالسلوك وتوجيهه نحو اهداف معينة: مادية، علمية، اجتماعية، اخلاقية، دينية، معرفية، وجمالية. ولك ان تشبه القيم بـ (داينمو) السيارة.. فكما انك ترى السيارة تتحرك (وحركتها سلوك) ولا ترى الذي حرّكها (الداينمو) كذلك فانت لا ترى (المنظومة القيمية) التي تحرّك سلوك الانسان.

والأهمية الثانية للقيم، انها نظام متكامل من الاحكام والقواعد الاخلاقية والمعايير يخلقه المجتمع في نسق مميز ويعمل على اعطائه اساساً عقليا يستقر في اذهان افراده، ويزودهم بمعنى الحياة والهدف الذي يجمعهم من أجل البقاء، ويقوم بترتيبها في مستويات بحسب اهميتها بما يشبه الهرم، لتكون القيم الأكثر قدسية والزامية في قاعدة الهرم كالقيم الدينية والالتزامات الأسرية.. وتنتهي بالقيم الجمالية المتعلقة بما يفضله الفرد من طعام وشراب والوان.

بهذا المعنى فان القيم أشبه بـ"اللاصق" الذي يربط الاشياء أو "الاسمنت" الذي يربط "طابوق" العمارة. فاذا كانت مادته اللاصقة ضعيفة انهارت العمارة ان تعرّضت لهزة ارضية. ويصح القول على المجتمع الذي تكون قيمه ضعيفة، فان ما كان يتمسك به من اخلاق وروابط دينية واجتماعية تنهار أو تتفكك حين يتعرض لاحداث سياسية تدخله في صراعات بين مكوناته القومية والدينية والمذهبية.

وما نريد أن ننبه اليه، ان اعادة اعمار المنظومات القيمية للناس (الاخلاق، الضمير، النزاهة..) اصعب من اعادة اعمار وطن لا سيما اذا انتهكت بالمجتمع ثلاث قيم اساسية: الحياة والمال العام والملكية الشخصية. ومع انها استبيحت بعد

التغيير بشكل غير مسبوق فاننا (الحكومة والبرلمان والمثقفون والفضائيات) لم نهتم بها قدر اهتمامنا بالقضايا السياسية.. لاسيما بعد ان صارت (سياستنا) منتجة للأزمات، وصرنامعها بحالة ادمان.. ومن يدمن على شيء.. يصير شغله الشاغل.

سنوجز ما أحدثته السياسة (السلطة) من تخلخل، تهروء، صعود قيم نزول أخرى.. في الشخصية العراقية بالآتي:

1- تراجع قيمة الحياة:

اخطر ضربة وجهتها الحرب العراقية الايرانية للمنظومة القيمية تلك التي استهدفت "قيمة الحياة". فلقد كانت هذه القيمة المقدسة تحتل المكانة العليا في البناء القيمي للمجتمع العراقي. ولكن ما ان بدأت حالات تشييع شهداء الحرب تزداد في شوارع مدن العراق مصحوبة بالمشاهد البشعة التي تعرض يوميا في التلفزيون عبر برنامج (صور من المعركة) حتى بدأت قيمة الحياة تتراجع لدى جيل الشباب الذي شهد في طفولته هذه الحرب. ولأبناء هذا الجيل تحديداً يعزى توجيه ضربة اوجع لقيمة الحياة بارتكابهم جرائم بشعه عامي (2006- 2007) تجاوزت استسهال القتل الى التمثيل بضحاياه، اعقبتها في (2014) جريمة سبايكر ومقابرها الجماعية التي اكتشفت في القصور الرئاسية.. وجميع ضحاياها شباب. وكانت السياسة (السلطة) وما تزال هي المسؤولة عن اثارة الفتن الطائفية، فضلاً عما نسب لبعض فصائلها تهم التورط في الارهاب، واخرى التصفيات الجسدية بالخطف وكاتم الصوت.. والسجون السرّية.

وليس دقيقاً تشبيه الانسان الذي تتراجع لديه قيمة الحياة بالحيوان.. فاذا تعارك كلبان وانبطح احدهما على ظهره رافعاً ارجله فان الكلب الآخر الأقوى يتوقف معتبراً ذلك اشارة استسلام.. فيما لم يحدث مثل هذا لدى العراقيين الذين صاروا يستسهلون القتل ويسترخصون الحياة.

2- عدم الالتزام بالقيم الدينية:

معروف عن الشخصية العراقية انها تلتزم بالعبادات (صلاة، صوم..) غير انها لا تلتزم بالقيم الدينية كالصدق وقول الحق مثلاً. والذي حصل بعد التغيير انها

تخلّت اكثر عن هذا الالتزام.. وهذه قضية خطيرة لأن المجتمع، خاصة الاسلامي، الذي لا تسوده القيم الدينية فانه يبيح لأفراده ارتكاب الافعال التي تؤذيه وتفككه.

ان السبب الرئيس لعدم الالتزام هذا هو تبادل الاتهامات بالفساد بين رجال دين صاروا مسؤولين، وتورّط رجال دين آخرين باعمال تحسب على الارهاب، وتناقض افعال مسؤولين (دينيين) في السلطة مع اقوالهم، وعدم امتثالهم لتوجيهات ونصائح المرجعيات الدينية.. اوصل الفرد العراقي الى حوار داخلي مع النفس: (اذا كان اهل الدين ومن يفترض بهم ان يكونوا قدوة.. غير ملتزمين بالقيم الدينية فما الذي يدعوني انا الانسان البسيط الى الالتزام بها وقد ضاقت بنا سبل الحياة؟). ما يعني نفسياً، ان الشخصية العراقية وجدت التبرير العملي لأن (تخدّر، تميت) الوازع الديني وتبيح لنفسها عدم الالتزام بالقيم الدينية، فكان ان نجم عنه شيوع الكذب، النفاق، التزلف، واللاحياء.

3- تهرؤ الضمير الأخلاقي

تعرض ضمير الشخصية العراقية لضربات موجعة من ثلاثة: النظام السابق، والاحتلال، والحكومات "الديمقراطية" التي تهرأت في أزمنتها معظم الخيوط المتبقية من نسيج الضمير الاخلاقي.. بالرشا والفساد ونهب المال العام.

والمفارقة ان احزاب الاسلام السياسي التي تعتمد الاسلام عقيدة ومنهجاً وسلوكاً، فاقت جرائم الفساد في زمن توليها السلطة اضعاف ما كانت عليه زمن الانظمة الدكتاتورية.. حتى صار الناس يتداولون بسخرية مرّة: كان لدينا علي بابا واحد واربعين حرامي فيما الآن صاروا أربعين علي بابا وألاف الحرامية.

ومع ان العراق فيه ما لايعدّ ويحصى من المساجد والجوامع، وأن عدد الزائرين لكربلاء عام (2015) بلغ (17) مليونا، ومئات البرامج والخطب والمواعظ والتعاليم الدينية، فان الناس صاروا في حال وكأنهم قرعوا السلام على الضمير والأخلاق.

سئل رئيس دولة اوصل بلاده للدرجة التاسعة بين اغنى دول العالم بعد ان كانت في المرتبة 111.. عن السبب فأجاب بكلمتين: لا أسرق.. ما يعني أن الرعية

تنمذج سلوكها على سلوك راعيها، ولنا في ذلك شاهد هو الراحل عبد الكريم قاسم الذي كان انموذجاً للنزاهة ونظافة اليد والضمير.. فكان ان انتعش الضمير الاخلاقي لدى الموظفين والعامة في زمنه.

وما حصل من فساد، مشابه في آليته السيكولوجية لما حدث من عمليات النهب بشهر السقوط (نيسان 2003)، مع اختلافين: ان الذين نهبوا كانوا لصوصاً وفقراء فيما الفسدة الآن مسؤولون كبار، وان المنهوب لا يساوي شيئا امام المسروق الذي بلغ مليارات الدولارات (يعني ترليونات بالعراقي وكل ترليون امامه 12 صفر!!)، وانه كان فاحشاً لدرجة ان رئيس الحكومة في حينها السيد نوري المالكي صرّح مرّة: (لدينا ملفات فساد لو اننا كشفناها لأنقلب عاليها سافلها!).. ما جعل المواطن يتساءل: اذا كان الجميع يقرّون بوجود فساد ما شهده العراق في تاريخه.. فانه لا يمكن لحكومة فاسدة ان يكون رئيسها نزيهاً. ومع فداحة ما سببته حكومات ما بعد التغيير من اشاعة قيم رذيلة، فان اوجعها انها صيرت الفساد شطارة بعد ان كان خزياً، فكان (الأرضّة) التي نخرت قيما اصيلة في الشخصية العراقية.

غير ان نظريتنا: (الشخصية تتغير عبر الزمن وعبر المواقف، وان النظام السياسي له الدور الرئيس في هذا التغيير) تمنحنا التفاؤل بمجيء سلطة تعتمد المواطنة والعدالة الاجتماعية والكفاءة والتخصص، يرأسها حاكم قدوة.. يمكنها اصلاح ما افسدته سلطتا ما قبل التغيير وبعده في الشخصية العراقية.. بدت بوادرها في الاشهر الثلاثة الاولى لتولي الدكتور حيدر العبادي رئاسة مجلس الوزراء ثم تراجع التفاؤل لثلاثة اسباب: عدم قدرة السيد العبادي على تنفيذ وعده بالقضاء على الفساد، احتلال داعش لمدينة الموصل واستيلائها على ثلث مساحة العراق، والاستقطاب الطائفي على صعيد البرلمان والحكومة.. ما يعني ان عوامل افساد السلطة (الديمقراطية) في الشخصية العراقية ستبقى فاعلة.

وثمة تحذير خطير نوجزه بالآتي:

ان المجتمع العراقي سيصبح في السنوات العشر المقبلة اكثر تشوها اخلاقياً ونفسياً، لان جيل الشباب الحالي ولد في حرب ونشأ في حرب ويعيش الان ابشع

انواع الحروب.. جعلته عدوانياً يستسهل قتل الآخر، مضاف اليه.. ان اطفال وشباب ثلاثة ملايين مهجّر (نازح) عراقي.. تشكل لديهم منظور ان العالم عدائي.. وان من حوله يستهدفونه.. الأمر الذي يضطره ان يسلك كل اساليب الانحراف.. من السرقة الى القتل.. فضلاً عن اصابته باضطرابات نفسية حادة.

وعليه فان الامر يتطلب انشاء مركز تخصصي بعنوان (مركز دراسات الشخصية العراقية).. يرتبط بمجلس النواب ويضم اكاديميين متخصصين في علم النفس والاجتماع والتربية من المستقلين سياسياً.. غير ان هذا لن يحصل، لأن متخذي القرار.. طائفيون يحيطون انفسهم بمستشارين لهم نفس النمط من التفكير.. ما يعني ان (النظام الديمقراطي) سيستمر في نهجه.. ليسجل التاريخ ان هذا النظام تحديداً كان هو الأسوأ في افساد الشخصية العراقية.

الضد وضده النوعي..
في الشخصية العراقية

مات سيبويه وبنفسه شيء من (حتى)، ومات علي الوردي وبنفسه أكثر من شيء عن (الشخصية العراقية)، وقضيت ربع قرن أدرّس (علم نفس الشخصية) في جامعات عراقية وعربية، وسأموت وبنفسي أشياء عن هذه الشخصية العجيبة في بلد العجائب والغرائب.. العراق الذي وصفه الجواهري: (أبا الفرسان لا عجب فانّا.. نؤدي فدية البلد العجيب).

فمن عجائبها أن الطب النفسي يقرّ بوجود حد لطاقة الناس على التحمل اذا ما تجاوزها أحدهم فأنه ينهار نفسيا أويصبح مجنونا أو ينتحر.. فيما تحمّل العراقي ثلاثة عقود ونصف من حروب كارثية متصلة (باستثناء سنة واحدة التقط بها أنفاسه،89) وحصار أكل فيه الخبز الأسود ثلاثة عشر عاما تفضي بالأنسان السوي الى ان يجزع من الحياة أو تزهق روحه.. غير أن العراقيين كانوا، مع كل هذه المصائب، يحمدون الله ويشكرونه، بل أنهم وصلوا الى الحال الذي يذهبون في الصباح الى مجلس فاتحة يعزّون صديقاً تطايرت أشلاء أخيه بانفجار، ويذهبون بمساء اليوم ذاته الى حفلة عرس صديق آخر يغنون ويرقصون.

ومع أن الموت صار يمشي مع العراقي كظلّه، فانه ما عاد أحد مكترثاً به، فهذا يذهب لعمله معللاً النفس بسيكولوجية (كل واحد يموت بساعته)، وذاك الى المقهى يشرب النرجيله (ويلعن أبو الدنيا)، وذاك الى الجامع حاملا مسبحته ومردداً (الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه).. والكل متعلق بالحياة بطريقته في تعاملهم مع الأفراح والفواجع التي صارت تأتيهم على رأس الساعة!

وتناقض الأضداد كان أعمق في علاقة العراقيين بالسلطة.. فنحن هتفنا للحاكم بفداء أرواحنا له، وحين نغادر ساحات الاعلان نلعنه وندعو الله في صلواتنا أن يخلصّنا منه. وصفة غريبة نضيفها لعجائب الشخصية العراقية.. أننا حين نتحاور مع بعضنا لا نعطي الفرصة للآخر للتعبير عن رأيه، وحين يعلّي صوته نعلّي أكثر، ونقاطع.. الا الحاكم، فاننا نصمت أمامه وكأننا أصبنا بالخرس. ونحن حين نكون مع بعضنا نتباهى بأنفسنا حتى ليبدو أحدنا وكأنه مركز الكون، فيما "يفش" ورمنا وننزوي بآخر الكون في حضرة السلطان ونجعله الكون كله وليس مركزه فقط.

ولقد تحريت أسباب تناقض الأضداد الذي تكاد الشخصية العراقية تنفرد بحدتّه وتأصله فوجدت أن العراق قبل الآف السنين كان سهلاً استهوى الغزاة، وأن الصراع فيما بينهم أفضى الى نتيجة حتمية هي أن البقاء يكون لأقوى المحاربين وأشدّهم بأسا، وأن من طبيعة الأقوى أن يشيع بين الناس ثقافة الخوف والرعب، فيمجدّونه في حضوره ويلعونه في سرّهم. وكان الغالب في تاريخ العراق أن الحكّام كانوا يقطفون رؤوس الخصوم ويعلقونها في مداخل الجسور والساحات.. وحين يدور الزمن ويأتي حكّام جدد فأنهم يفعلون الشيء ذاته.. وهكذا الى يومنا هذا. وحين يواجه الناس حكّاما لهم سلطة (أنا أحيي وأنا أميت) على مدى قرون، تشيع بينهم ثقافة ألأضداد لتصبح سلوكاً عاماً.. فصرنا نتعامل حتى مع أرق العواطف الأنسانية وأجملها بنقيضها الضد. فلا شيء أجمل وأرق من (الحب).. فبه نفرح ونتعلق بالحياة ونحب الناس والطبيعة، لكنك تجد العكس في أغانينا.. أحزان، مآتم، خيانه، دموع.. وألحان مدوزنه على ايقاع (اللطميات) الحسينية!

وحين تختلي بفكرك لتتأمل تخرج بنتيجة أن السبب الرئيس لتناقض الأضداد في الشخصية العراقية هو انه ناجم عن ثقافة خوف تراكم عبر مئات السنين. والمفارقة أن التحرر من الخوف يفضي، وفق المنطق، الى فض اشكالية تناقض الأضداد. لكن ما حصل أنه ظلّ ثابتا في الشخصية العراقية مع تغيير في الأتجاه مصحوب بفوضى. فمع أن العراقي صار الآن يلعن الحاكم علنا دون خوف الا أنه صار يفرّغ فيه ما كان مكبوتاً. والأوجع أن العراقيين صاروا أضداداً فيما بينهم،

يلعنون بعضهم بعضا في السرّ والعلن.. وتلك مصيبة ستظل قائمة ما دامت سلطة الحكم أضداداً.. في داخل كل ضد.. (ميكافيللي) يجمع بين خداع الثعلب ومكر الذئب وضراوة الاسد.. وملتزم بوصيته: لا يجدي ان يكون الحاكم شريفاً دائماً!.

العراقيون وسلطة الرمز الديني

نعني بـ"بالسلطة "هنا قوة في داخل الفرد تؤثر في سلوكه وتوجهه نحو أهداف معينة، ونعني بـ"الرمز" شخصاً حقيقياً أو افتراضياً، حياً أو ميتاً، له قدرات استثنائية على انجاز مهمات وحلّ مشكلات ليس بمستطاع الفرد العادي تحقيقها، ويصبح الفرد والرمز حالة واحدة من خلال آلية نفسية هي التوحّد Identification.

تاريخيا، دخلت عن طريق هذه الآلية النفسية "فكرة" الرمز الى لاوعي الفرد يوم كان أجدادنا القدماء يؤمنون بقوى غيبية وكائنات خرافية لها فعل مؤثر في الكون والإنسان من قبيل: الزلازل، الطوفان، الرعد والبرق. حتى اختلال عقل الإنسان أو إصابته بالجنون كان يخضع للتفسير ذاته. فأسلافنا كانوا يعالجون المجانين بفتح ثقوب في جماجمهم لتخرج الارواح الشريرة من ادمغتهم بالتخويف والتهديد. وما يزال بعض العراقيين يربطون المجنون (اي المصاب بالشيزوفرينيا) بشباك ضريح امام ليخرج الجني من رأسه، وشهدت بنفسي رجلا يضربه (السيد) بالسوط ويزعق بالجني ليخرج متوعداً اياه بقتله في مشهد ميلودرامي.

ما حصل للعراقيين ان آلية التوحّد هذه انتقلت من التوسل بالرمز الديني لحل مشكلة صحية او اجتماعية الى التوسل به ان يخلّصهم من طاغية.. ابرزها ان جموع العراقيين كانوا في زمن النظام الدكتاتوري يقصدون اضرحة الأئمة يدعونهم لأن يخلصوهم من صدّام.

وبالمناسبة، كنّا اجرينا دراسة زمن الحرب العراقية الايرانية لرسائل كانت مرمية في ضريحي الامامين الكاظم في الكاظمية وابي حنيفة في الاعظمية، وجدنا ان مطالبها كانت من اختصاص وزارات الدفاع والداخلية والصحة: عودة أسير

من سجون ايران، اطلاق سراح معتقل في بغداد، شفاء مريض، طلب انجاب لزوجات مضى على زواجهن سنوات.. وتليين قلوب الأهل للزواج من المحبوب!

المفارقة، ما حدث للعراقيين في زمن النظام الديمقراطي، فلدى متابعتنا لمقابلات أجرتها قنوات فضائية مع زائرين وزائرات لضريح الامام موسى الكاظم في (2007/8/9) وجدنا أن لديهم حاجات يأملون تحقيقها من هذه الزيارة حددوها في إجاباتهم على ألسنتهم بالأتي:

- (نريد الأمان.. أولادنا تكتلوا "قتلوا" واحنه عايشين بخوف والى متى نظل اليطلع من بيته ما يدري بروحه يرجع لو يموت.
- ونريد الكهرباء.. الله أكبر طكت أرواحنا.
- ونريد السياسيين يتصالحون ويديرون بالهم على الشعب مو يظلون يتعاركون على الكراسي والشعب حال الضيم حاله.. يزي عاد تره شبعنا تعب).

ومن ذلك التاريخ (2007) والى الآن (2016) وهم يعرضون مظالمهم على الرموز الدينية دون ان يتحقق منها شيئاً، بل ازدادت سوءاً. وطبيعي ان لا شأن للامام في ذلك، بل ان أي امام (شيعي او سنّي) لو خرج الآن ودعا المتخاصمين من السياسيين إلى المصالحة لما أطاعوه، ولو أنه حظر اجتماعاً واحداً للحكومة لراعه أن يجد المسؤولين عن رعيته على هذا المستوى من الفساد والفتنة والظلال المبين.

ان أحد اهم أسباب عدم نجاح الديمقراطية في العراق هو أن المؤمن برمز ديني الى حد التوحّد به، يصاب بخلل في السلوك والتفكير لا علاقة له بالرمز الديني، خلاصته ان طبيعة تفكير المتماهي برمز ديني تكون قدرية، بمعنى أنه يؤمن بأن ما يصيب الإنسان من خير أو شر مصدره قوى خارجية ليس له سلطة عليها أو تأثير فيها، وأن سلوكه يكون تعصبياً وعدائياً وغير منطقي في تعامله مع الآخرين لاسيما الذين يختلفون معه في الرأي، لأنه يرى أنه وجماعته على حق والذين يعارضونه على باطل.

والحقيقة السيكولوجية الخفية هي ان اللاشعور الجمعي في العقل الشعبي المعبّأ برموز دينية يميل الى أن يكون استاتيكيا يكره التغيير ولا يكون على توافق مع

الديمقراطية، وأنه اذا أعلن عن قبوله بها (بالديمقراطية) فان الرهان عليهم، أعني المتوحّدين برموز دينية، يكون كالرهان على القطط التي تدرّبت على حمل الشموع والتصرف بسلوك مهذّب، غير أنها ما أن رأت الفئران رمت الشموع وركضت نحوها لتأكلها. وهذا ما هو حاصل وسيحصل في العراق الى أن يضعف تأثير الرمز الديني في لاوعي الشخصية العراقية.. ولن يحدث هذا إلا بذهاب السياسيين الخبثاء الذين يعزفون على هذا الوتر، ومجيء حكومة يجد الناس الخلاص عندها في العيش بحياة آمنة هانئة، وحينئذ سوف لن تكون بهم حاجة الى عرض مظالمهم على امام او انتظار رمز مخلّص.. قد يأتي وقد لا يأتي.

الشخصية السياسية العراقية

تحليل سيكوبولتك

ظاهرة غريبة.. ان الحياة السياسية في العراق لم تفرز بعد التغيير قائداً سياسياً بمستوى رجل دولة.. فما أسباب ذلك؟

المحللون السياسيون يعزونها الى ان التغيير في العراق جاء بتدخل اجنبي، ولو ان القوى السياسية العراقية كانت هي التي اطاحت بالنظام الدكتاتوري، لأفرزت قائداً سياسياً يوحّدها فتلتف حوله، لكنها كانت اشبه بفرق عسكرية متجحفلة في خنادق.. لكل خندق عنوان وقائد.. يجمعها هدف واحد هو التخلص من النظام، وتفرّقها مصالح حزبية وطائفية وقومية.. ولأن ما يجمعها ينتهي بانتهاء النظام.. فان المصالح تتولى اذكاء الخلاف فيما بينها على حساب المصلحة العليا الخاصة بالوطن. ويذكر بريمر في مذكراته، ان الشيعة كانوا يأتونه للمطالبة بمصالح طائفتهم، وكذا فعل السنّة والكورد.. ويضيف بأن لا أحد جاءه يطالب بمصالح العراق.. وربما كان هذا هو السبب الذي دفع بريمر الى ان يدق (التثليث) في شاصي العملية السياسية العراقية. فضلاً عن ان الأحزاب السياسية طاردة للمفكرين من الطراز الموسوعي الرفيع، لأن الأحزاب تحكمها ايديولوجيات وعقائد خاصة بها فيما العراق لا يمكن ان تستوعبه ايديولوجيا او عقيدة محددة.

ومع صحة هذا التحليل فانه لا يقدم لنا تفسيراً متكاملاً عن الشخصية السياسية العراقية، لأنه يغفل مصدرين رئيسين هما: طبيعة المجتمع العراقي، وطبيعة الأحداث التي شهدها العراق.. وتفاعل هذين المصدرين في تكوين الشخصية السياسية العراقية.

لنبدأ باستهلال عن المجتمع العراقي يمهّد لفهم هذه الشخصية. يختلف المجتمع العراقي عن المجتمعات الأخرى بأنه شعب منتج لأصناف متضادة من البشر بمواصفات عالية الجودة. فنحن منتجون لمبدعين ومفكرين وشعراء ورجال دين وشيوخ عشائر من طراز رفيع، وبالمقابل نحن منتجون لقتلة ورعاع وغوغاء بمواصفات "عالية الجودة"، ولكم أن تستشهدوا بقتلة العائلة المالكة عام 1958 والطواف بكفوف أيديهم في حشود هائجة بهستيريا الفاقدين لوعيهم الإنساني، وقتلة عبد الكريم قاسم والشيوعيين والوطنيين وإذابتهم أحياء بالتيزاب عام 1963، وقتلة البعثيين ووضع إطارات السيارات برقابهم وحرقهم وهم أحياء عام 1991 ونحن منتجون للطغاة.. نرفعهم الى السماء حين يكونون في السلطة ونمسح بهم الأرض حين يسقطون، وبالمقابل، نحن منتجون لأبطال تشوى أجسادهم بالنار وما يتنازلون عن مبادئهم.

ونحن منتجون لمن يفلقون رؤوسهم بالحراب من أجل التاريخ والموت فداء لمن ماتوا، ومنتجون لمعتقدين عن يقين بأن تاريخهم مزوّر وأسود ومعرقل للتقدم يجب غلق غلافه الأخير.

ونحن منتجون لمن يعرفون بالغيرة العراقية والأنفة، ومنتجون أيضاً لناهبين من طراز رذيل، ولا أرذل من سلوك ينهب الناس فيه وطنهم وذاكرة تاريخه، حتى صيروا الفرهود شطارة يتسابقون إليه حيثما حلّت بالوطن محنة.

وعلى هذا الإيقاع الثنائي لك أن تضيف ما تشاء من المتضادات التي يكاد ينفرد بها الشعب العراقي عن باقي الشعوب من حيث مواصفاتها "عالية الجودة".

ولنعد ما قلنا عن العراق لدلالاته في تكوين الشخصية العراقية.

ينفرد العراق عن بلدان المنطقة بأمور وأحداث لها تاريخ يمتد الاف السنين يتمثل أهمها بالآتي:

1. انه البلد الذي تؤخذ فيه السلطة بالقوة المصحوبة بالبطش بمن كانت بيده.
2. وأنه البلد الذي سفكت على أرضه أغزر دماء المحاربين من العراقيين والعرب والأجانب، لاسيما: المغول والأتراك والفرس والانجليز... وأخيرا، الامريكان.

3. وأنه البلد الذي نشأت فيه حضارات متنوعة ومتعاقبة، انهارت أو أسقطت بفعل صراع داخلي أو غزو أجنبي.
4. وأنه البلد الذي تنوعت فيه الأعراق والأديان والمذاهب، في مساحة مسكونة صغيرة نسبياً.
5. وأنه البلد الذي كان مركز الشرق الاسلامي حتى الهند والسند، وحيث عاصمته كانت مدينة الخلافة الاسلامية.

ولنلتقط من احداث ما بعد التغيير أهم حدثين لهما علاقة بتشكيل الشخصية السياسية العراقية.

الأول: ان التغيير في (2003) تجاوز هدفه من الاطاحة بالنظام الى الاطاحة بالدولة العراقية.. فنجم عنها ما يمكن ان نعدّه قانوناً اجتماعياً نصوغه بالآتي:

(اذا انهارت الدولة وتعطّل القانون وصارت الحياة فوضى.. شاع الخوف بين الناس وتفرقوا الى مجاميع او افراد تتحكّم في سلوكهم الحاجة الى البقاء، فيلجأون الى قوة تحميهم يحصل بينهما ما يشبه العقد يقوم على مبدأ الحماية المتبادلة).

من هنا بدأت "ثقافة الاحتماء" وحدث تحول اجتماعي سيكولوجي سياسي خطير، هو ان الشعور بالانتماء صار الى المصدر او القوة التي تحمي الفرد، وتعطّل الشعور بالانتماء الى العراق وتحول الى ولاءات لا تحصى.

الحدث الثاني هو: تبادل الادوار بين السنة والشيعة. فلقد كانت السلطة في العراق بيد السّنة العرب اكثر من الف سنة، فيما كان الشيعة في دور "المعارضة" للزمن ذاته. ولقد فهم تبادل الأدوار هذا بين الطائفتين كما لو كان تبادل ادوار بين "الضحية" و"الجلاّد".. بمعنى ان الشيعة "الضحية" استلمت السلطة (الجلاّد) وعليها ان تاخذ بثارها، وان السنة (الجلاّد) صارت (الضحية) وعليها ان تدافع عن نفسها. ومن هذا الشحن السيكولوجي اعتمدت الشخصية السياسية العراقية العزف على الوتر الطائفي لترويج نفسها بين طائفتها تمهيداً لفوزها بالانتخابات.. ومنها تحديداً نشأ ما نصطلح على تسميته: (البرانويا السياسية) التي كانت احد اهم اسباب الكارثة العراقية بعد التغيير.

ان الشخصية السياسية العراقية اعتمدت بعد التغيير العزف على الوتر الطائفي لترويج نفسها بين طائفتها تمهيداً لفوزها بالانتخابات.. ومنها تحديداً نشأ ما نصطلح على تسميته: (البرانويا السياسية) التي كانت احد اهم اسباب الكارثة العراقية بعد التغيير.. واليكم هذه الشخصية من الداخل.

الحقيقة التي تأكدت لنا نحن المعنيين بالاضطرابات النفسية ان في القادة السياسيين العراقيين من "الأفندية" و"المعممين" فرقاء مصابون بـ (البرانويا)..

هذا يعني ان الشخصية السياسية العراقية هي (صناعة) تفاعل احداث ومجتمع جعلها تنفرد بخصائص سيكولوجية وعقد نفسية، نوجز اهمها بالآتي:

• الخلاف مع الآخر

كان لديّ شك يتاخم اليقين أن الشخصية العراقية أكثر ميلاً الى الخلاف مع الآخر منه الى الاتفاق. وتحول هذا الشك الى يقين بعد أحداث السنوات التي تلت عام 2003، فرحت أبحث عن اسبابه فوجدت أن هذه الصفة ليست من صنع حاضر قريب او بعيد، انما تعود الى تاريخ يمتد آلاف السنين، وانها ليست ناجمة عن سبب بعينه (القول ان العراقيين جبلوا على هذه الصورة مثلاً) انما عن شبكة معقدة من الأسباب تفاعلت فيما بينها فأنتجت الشخصية العراقية بهذه الصورة.

تاريخياً.. كنا اشرنا الى نظرية في الشخصية تسمى النظرية التطورية Evolutionary ترى أن المورّثات "الجينات" السلوكية تخضع لقانون الانتخاب الطبيعي فتعمل – عبر التاريخ التطوري للانسان - على تقوية مورّثات "جينات" سلوكية معينة واضعاف مورّثات أخرى (مقارب لقانون دارون: البقاء للأصلح). وهذا يعني أن الأحداث التي عاشها الانسان عبر تاريخه التطوري تدخلت في عمل المورّثات "الجينات" بثلاث صيغ: تقوية مورّثات معينة، واضعاف أخرى، ودثر أخرى.

تأسياً على ذلك فاننا – أبناء هذا الجيل من العراقيين – لسنا فقط نتاج تكويننا البيولوجي الخالص، انما ايضا نتاج ما صنعته الأحداث من تأثير في مورّثات "جينات" أسلافنا العراقيين. ولك أن تقول: ان "جيناتنا" الحالية مشفّرة أو مسجّل

عليها الأحداث التي عاشها أجدادنا، وأننا نقرأ عناوين هذه الأحداث ونرى صوراً منها عبر سلوكنا وتصرفاتنا.

ولكي لا يساء الفهم او يستنتج من قولي هذا أنني أميل الى تغليب العوامل البيولوجية في تكوين الشخصية، فانني أعدّ الموروث الثقافي من أهم عوامل تكوين الشخصية. وأعني بالثقافة: القيم "بأنواعها الستة: سياسية، اقتصادية، دينية، اجتماعية، معرفية، وجمالية" والاتجاهات والمعتقدات والمعايير والفنون والآداب والعلوم.. وكل ما ينتجه المجتمع وينتقل عبر اجياله. وأزعم أن الثقافة – بالمفهوم أعلاه – تعمل على تكوين "مركز سيطرة" داخل الفرد يقوم بتوجيه سلوكه نحو أهداف محددة، وأن الاختلاف بين الأفراد، في سلوكهم وتعاملهم مع الناس والأحداث، يعود في واحد من أهم أسبابه الى مركز السيطرة الثقافي هذا.

لقد عملت هذه الأحداث على تكوين شخصية الفرد العراقي بخصائص سيكولوجية وعقد نفسية معينة نوجز أهم ما له علاقة بالموضوع، بالآتي:

1- عقدة البارانويا (الاستهداف)

تعني البارانويا: اسلوباً مضطرباً من التفكير يسيطر عليه نوع غير منطقي "أو غير عقلاني" من الشك وعدم الثقة بالناس، ونزعة دائمة نحو تفسير أفعال الآخرين على أنها تآمر أو تهديد مقصود أو مهين.

وقد نجمت هذه العقدة عن تواتر الاستيلاء على السلطة في العراق بالثورات والانقلابات الدموية والانتقامية، فأصيب بها كل من أخذ السلطة، وسيطرت على أغلبهم حالة هوسية من التآمر عليهم والشك بالآخر حتى لو كان بريئاً.

وبالمقابل، تولّد لدى الناس اقتران شرطي بين السلطة والظلم، ناجم عن تكرار السلطات المتعاقبة لممارسة الظلم على الناس. ومع ان النظام العراقي بعد التغيير يوصف بانه نظام ديمقراطي، فان أقبح ما ارتكبته السلطات الرئاسية الثلاث فيه انها انتهكت مبدأ العدالة الاجتماعية في الديمقراطية، فاستأثرت بالثروة وتركت اكثر من خمسة ملايين عراقي يعيشون تحت خط الفقر، فيما هم ينعمون بالرفاهية وتبذير الثروة. مثال على ذلك، ان عدد الحمايات لأعضاء مجلس النواب هو

14800 منتسب يتقاضون 156 مليار دولاراً من اصل 316 مليار دولاراً للموازنة المالية لعام 2014، بموجب المذكرة التي قدمها النائب مهدي الحافظ الى رئيس مجلس النواب طالبا فيها تخفيض عدد الحمايات الى النصف.

2- عقدة أخذ الثأر

ان جسامة ما وقع من احداث وبطش الآخر بالآخر، سواء بسبب الصراع على السلطة او بسبب معتقد او مذهب او فكرة، عملت على توريث عقدة (أخذ الثأر أو الحيف) من الآخر، وتحكّمت بسلوك الشخصية السياسية العراقية واتباعها في أزمات الحاضر، بانفعالية تعطّل التفكير العقلاني بأسباب هذه الأزمات أو بمن يخلقها.

3- عقدة التعصب لـ "الهوية"

سكنت العراق أقوام متعددة: عرب، كورد، تركمان، كلدان، آشوريون، يزيديون، شبك.. ونشأت فيه أديان ومذاهب متنوعة: اسلام، مسيح، يهود، صابئة، مجوس..، شافعي، جعفري، حنفي، مالكي، حنبلي.

وتفيد الاحداث أن هذه الأقوام والأديان والمذاهب تعايش أهلها بسلام حيثما كانت السلطة بعيدة عن التدخل في شؤون خصوصياتهم، وأن الصراعات تنشأ فيما بينها، حدّ ابادة الآخر، حين تكون السلطة او قوة غازية محرضًا بشكل علني او خفي.

ولأن الانسان به حاجة نفسية الى (هوية) فإنه يضطر الى الدفاع عن هويته حين تتعرض الى الخطر. ولأن كل (هويات) الجماعات العراقية لحقها أذى وتعرضت الى هذا القدر او ذاك من الخطر، فأنه نجم عن ذلك تغليب الانتماء الى الهوية الخصوصية (بدافع الحماية والأمن) على الانتماء الى الهوية الوطنية، مصحوبة بحالات من التطرف أو التعصب العرقي أوالديني أوالمذهبي.

4- الزهو بالذات والتباهي بالماضي

يشعر الفرد العراقي بأنه سليل حضارات، وأنه ابن بلد "الاوائل": أول من اخترع الكتابة، أول من اخترع العجلة، أول من بنى المدن، أول من سن القوانين،

أول من ابتكر آلة موسيقية، أول من زرع الأرض وابتكر نظام الري، أول البلدان في عدد الانبياء... الأمر الذي نجم عنه نزوع سلوكي الى عدّ الخلاف مع الآخر من صفات الذي يريد أن يكون "الأول" أو من صفات التي تليق بأبن "الأوائل".

ويتداول العراقيون مقولة (ارفع راسك انت عراقي). ومع أنها حالة ايجابية حين تشكل موقفاً ضد الاذلال والنيل من الكرامة وعزّة النفس، الا انها تتضمن معنى "التباهي" بالماضي، وتشير ضمناً الى بؤس الحاضر، وحالة من عدم التوازن النفسي لدى الفرد تفضي بالنتيجة الى ميله نحو الخلاف مع الآخر.

5- العنف الثقافي

يوصف العراق بأنه بلد التنوع الثقافي والعقائد العجيبة، وفيه نشأت مدارس فلسفية وفكرية وفقهية وايديولوجيات من اقصى اليمين الى اقصى اليسار، اعتمدت في أطوار من مسيرتها أسلوب الاختلاف مع الآخر في الرأي، نجم عنه ازدهار ثقافي ونزوع نفسي نحو الابداع المعرفي الذي من خصائصه الاتيان بما هو جديد ومخالف لما هو موجود.

غير أن السلطة تدخلت، في اطوار اخرى من مسيرة هذا التنوع الثقافي، فحولت الاختلاف مع الآخر على مستوى الرأي الى خلاف معه على مستوى الفعل، اعتمد أساليب العداء والاضطهاد بأنواعه وانتهى بالعنف الذي يستهدف القضاء على "ثقافة" الآخر سواء بالسجن او بدس السم او الاعدام او الحرق علنا بتهم الكفر والالحاد والزندقة.

ما يعنينا هنا أن ذلك الواقع افرز حالة سيكولوجية بأن شطر المفكرين والمثقفين الى قسمين متضادين يتحكم في كل منهما أسلوب النظر الى الامور بثنائية "اما اسود واما ابيض" وهو اسلوب معرفي متصلّب يفضي الى الخلاف مع الآخر في السلوك والعناد العصابي في مواقف الصح والخطأ على السواء.

ومن مفارقات التنوع الثقافي الذي انفرد به العراق، انه انتج نوعين متضادين من التفكير: علمي، انتشر بشكل محدود بين النخب الثقافية، وخرافي انتشر بين العامة من الناس وبين من يعدّون انفسهم مثقفين. فحين دخل القطار الى العراق

بدايات القرن الماضي، اعلن أحد رجال الدين المؤثرين تحريم استخدام القطار قائلا: "أتتركون حمير الله وتركبون الشمندفر".

ان (الخلاف مع الآخر) علّة نفسية مصابة بها الشخصية العراقية، وقد لا استثني أحداً منها لاسيما الذين صارت أمور البلاد والعباد بأيديهم، وأنها فعلت بنا ما فعلته ثارات الجاهلية باجدادنا.

وتبقى هنالك صفات سلبية أخرى تقابلها صفات ايجابية تمتاز بها الشخصية العراقية. وأرى أن موضوع (الشخصية العراقية) ينبغي أن يشكل مشروعا ثقافياً وطنياً. وعليه أقترح أن تتبنى هذا المشروع وزارات الثقافة وحقوق الانسان في كل من بغداد وأربيل، ومؤسسة المدى ومنظمات المجتمع المدني ووسائل الاعلام والمواقع الالكترونية العراقية المهتمة بالثقافة. فالمكاشفة العلنية بما في شخصياتنا من عقد وعلل نفسية، وفق برنامج علمي سيكوسوسيولوجي، وسيلة أكثر نفعاً في اصلاح الحال من مؤتمرات تدعو للمصالحة الوطنية لم تثمر حتى عن تصالح الانسان مع ذاته.

الدوغماتية..
وصناعة الطائفيات القاتلة

معروف ان الدوجماتية (Dogmatism) تعني: الجمود العقائدي، الجزمية الفكرية، القطعية، العقيدية.. غير ان اكثرها تداولا هو اصطلاح الجمود الفكري. وقد انشغل الفلاسفة بتحديد مضمون (الدوجماتية)، فمنهم من وصفها بانها طريقة منغلقة للتفكير تصاحب اية ايديولوجية بصرف النظر عن محتواها ما اذا كانت دينية او علمانية، ومنهم من حددها بتنظيم معرفي مغلق نسبياً خاص بمعتقدات ولامعتقدات الشخص بخصوص الحقائق والوقائع والسلطة المطلقة، ومنهم من عدّها مفهوما افتراضياً يجمع بين عناصر من السلوك والآراء والأحكام الاعتقادية التي تقوم على التعلّق بموروثات لا يتوافر على صحتها اي دليل منطقي، وصنّفها آخرون بانها صفة الأفراد الذين يسعون الى فرض آرائهم بالسلطة، او بالنفوذ، وانتهى آخرون الى انها الاعتقاد الجازم واليقين المطلق المستند الى مباديء تقليدية راسخة دون البحث عن وجه الحق في التسليم بها.

والجديد الذي نضيفه هو ان الدوجماتية كانت السبب الرئيس للخلافات السياسية التي غالبا ما تنتهي بحروب، وأنه (مرض) خالقي الأزمات من القادة السياسيين. وانها تكون على درجات.. اخفها التمسك باقوال مطلقة من غير دليل، صعوداً الى مقاومة الافكار الجديدة، وعدم قدرة الفرد على تغيير سلوك او تصرف يتطلّبه الموقف، وصولا الى الاعتقاد الجازم اليقيني المطلق من دون دليل، وانتهاءا بفرض السلطة على آخر أو آخرين. وانها لا تتحدد ببعدها الفكري فقط، بل لها ابعاد تتعلق بامتدادها الزمني.. والفسلجي ايضاً.. اذ وجدت الدراسات ان الدوجماتي متعلق بالماضي، وأن جهازه العصبي يكون مختلفاً عن الفرد المنفتح عقلياً!.

وبفعل ما حصل من كوارث بشرية فان الجمود الفكري اغرى علماء السيكولوجيا والاجتماع. فالسوسيولوجين يعزون (الدوجماتية) الى الجماعة التي ينشأ فيها الفرد بوصفها هي التي تساهم في صياغة القيم والثقافة والتصورات الاجتماعية والمقارنة بين الجماعات. ويرون انه من خلال عملية التمثّل هذه تتكون لدى الفرد صورة ايجابية عن جماعته (طائفته، عشيرته..).. تؤدي الى تحيزات معرفية وسلوكية نحو الجماعات الاخرى.. وتوصل الدوجماتي الى ان تجعله لا يسمع الا نفسه ولا يرى غيره ولا يتقبل الرأي الآخر، لا بسبب عدم كفايته الشخصية وانما لشعور الدوجماتي بأنه منبوذ من الآخرين!.

والحقيقة النفسية الخافية عن الناس هي انهم يحابون جماعتهم الطائفية وينظرون الى اعضائها بمنظار غاية في المحاباة.. اذ يرون انفسهم انهم يمتلكون صفات لطيفة وسلوكا مهذّبا وانهم محبوبون للغاية. والعامل المزاجي في هذه الحقيقة النفسية هي ان الناس ينزعون الى تصنيف عالمهم الاجتماعي الى صنفين "نحن" و"هم"، وانه من هذا التقسيم الدوجماتي نشأ التعصب الذي قاد الى طائفية عزف السياسيون الاسلاميون العراقيون على اوتارها.. واوصلهم الى السلطة!، واشعلوا (عليهم اللعنة) الاحتراب الطائفي (2006-2008).. التي كانت في حقيقتها.. حرب معتقدات دوجماتية سخيفة بالية راح ضحيتها مئات الآلاف.

والملاحظ، ان الغالبية المطلقة من العراقيين مصابون بالدوجماتية. فمن مظاهر هذه العلّة انها تشكّل في العقل مكوناً معرفياً ندعوه بالصور النمطية stereotypes التي تعني تعميمات أو احكاماً غير موضوعية بخصوص جماعة أو طائفة معينة لا تستثني أحداً من افرادها حتى لو كان افضل من معظمهم. وانك لو التقطت عراقياً بالصدفة لوجدت عقله محشواً بصور نمطية لا تحصى وبشكل عجيب غريب.. ففضلاً عن دوجماتية القومية والطائفة والجندر، فان فيه دوجماتيات تقوم على اساس المدينة. فـ"المصلاوي" لدينا عنه صورة نمطية، وكذا البصراوي والنجفي والكوفي والعاني وناصرية والدليمي.. ولك ان تلحظ ذلك حين يستلطف عراقي عراقياً آخر.. وما ان يعرف انه من (اهل المدينة الفلانية).. حتى يتحول الاستلطاف الى نقيضه!.. بل ان الأمر وصل الى تلوين خارطة بغداد، في زمنها الديمقراطي!، بما يظهر احياءها وكأنها مدنا منعزلة!

وما نخشاه.. ان يكون القادم اخطر.. فالدوجماتية الآن (مخدّرة) بفضل داعش التي اضطرتهم الى ان يتوحدوا.. ولكنها ستصحو ما ان ينتهوا من داعش ويضعهم الواقع امام مهمة عطّلتها الدوجماتية اربع عشرة سنة هي (المصالحة الوطنية).. التي من اهم شروط تحقيقها ان تتمتع الأطراف السياسية بالانفتاح الفكري والقدرة على التسامح، فيما الغالبية المطلقة من قادتها ينتمون الى اسلام سياسي دوجماتي طائفي اوصلهم الى الشك المرضي بالآخر (البارنويا). وسيبقون مع الديمقراطية طالما كانت الطائفية شغّالة في حضن الدوجماتية.. فضلاً عن عائق آخر يهدد المصالحة الوطنية في العراق هو طموح ايران في ان تكون بغداد عاصمة الامبراطورية الفارسية!.

وما يزيد في خشيتنا من مصير أسوأ، ان ما حصل من عمليات (أخذ الثأر) الذي صاحب استرجاع تكريت، وما سبقها من اعمال انتقام في سبايكر.. قد يتكرر في الانبار والموصل.. فتفتح بابا آخر لجهنم، ما لم يستثمر العراقيون (غفوة) الدوجماتية.. بتعزيز توحدّهم ونقله من حالة موقفية الى حالة مبدأية، والبدء بفك شرنقة الدوجماتية عبر خطاباتهم في فضائياتهم التي زادت على الخمسين.. بما يفتح نوافذ اوصدتها في عقولهم لسنين، وزادها سياسيو الزمن الديمقراطي باغلاق ما بقي منها بالكونكريت. وكان هذا سرّ نجاحهم بأن اوصلوا معظم العراقيين من ذوي الاصابع البنفسجية الى ان يكونوا في دوجماتيتهم مثل حصان العربة.. لا يرون الا الذي امامهم.. حتى اذا كان في حساباتهم.. احتمال ان يكون طريقهم الى.. المقبرة!.

كراهية العراقيين لحكّامهم الديمقراطيين!

حالة طبيعية ان تكره الناس حاكماً دكتاتورياً.. لكن ان يكرهوا حاكماً ديمقراطياً.. كرهاً لأبعد مدى! فتلك سابقة في تاريخ السياسة العراقية، وان يكره الناس سياسيين هم جاءوا بهم.. فتلك حالة نادرة في التاريخ!.

التحليل السيكولوجي يفيد بأن العراقيين ينفردون في طبيعة علاقتهم بالحاكم. فمنذ بداية تشكيل الدولة الاسلامية كان الخلفاء الراشدون يراعون العراقيين في التعامل ويأخذون اعتراضاتهم مأخذ الجد. وحتى قبل الاسلام، كان العراقيون يوصفون بأنهم ما استسلموا لضيم وما رضخوا لظالم ولا انبطحوا لسلطة ولهذا كانت اعتراضاتهم على الولاة متكرره. ولدى الجاحظ تفسير لاعتراضاتهم هذه بقوله: (والعلّة في عصيان أهل العراق على الامراء، انهم أهل نظر وذو فطنة ثاقبة، ومع الفطنة والنظر يكون التنقيب والبحث. ومع البحث يكون الطعن والقدّح والترجيح بين الرجال والتمييز بين الرؤساء واظهار عيوب الامراء.. وما زال العراق موصوفاً أهله بقلة الطاعة والشقاق على أولي الرئاسة). ذلك لأنه البلد الذي تؤخذ فيه السلطة بالقوة المصحوبة بالبطش بمن كانت بيده، والبلد الذي نشأت فيه اكثر المدارس الفكرية تأثيراً في الأخلاق والدين والسياسة (البصرة، الكوفة، بغداد، أهل الصفا، المعتزله، والمذاهب الخمسة..) التي نجم عنها سيكولوجيا الخلاف مع الآخر والميل الى الجدل.

وكراهية العراقيين لحكّامهم (الديمقراطيين) نجمت عن كارثتين: اخلاقية وسياسية. فالسياسي الذي قصد الناس قبيل الانتخابات يدعوهم لانتخابه (وبينهم لابسو عمامة)، كان في وعده لهم بتحقيق ما ينتشلهم من واقع بائس.. عملية

احلاقية تعني في عرفهم الاجتماعي "كلمة شرف"، لكنه جعلهم خلف ظهره بعد أن "فوزّوه" ونكث وعده، وفي سلوكه هذا مخادعة.

والسياسيون الخضر، نسبة لمنطقتهم، انقسموا الى فرقاء، وتخندقوا كلّ يدّعي أنه الأحق بحكم العراق (مع انه جيء بهم ليحكموا!).. تاركين ناس العراق موزعين في قرى أشبه بمستوطنات للأمراض والتخلف، ومدن لها منها الأسم فيما واقعها عاد لما قبل قرن، وأطفال يفتشون في القمامة عن لقمة خبز في بلد الخيرات، وخمسة ملايين في بقاع العالم يعانون الغربة عن وطن أحبوه.. ومليونان ونصف نازح.

الحقيقة المرّة ان الحكّام (الديمقراطيين) كانوا قبل التغيير يصفون انفسهم مناضلين.. والمناضل يعني انه في خدمة الشعب، واذا بمعظمهم يفلس اعتبارياً ويزداد الشعب شقاءاً بوجودهم.. وهذا عكس المنطق، اذ يفترض أن ينال المناضل حب وتقدير الناس حين يكون في السلطة.. وما حصل ان (المناضلين) خسروا انفسهم، والشعب خسر عشر سنوات ستتبعها عشر ما دامت الانتماءات للطائفة والعشيرة، التي اذكوها، شغّالة.

والتحليل السيكولوجي لهذا النوع من "المناضلين" أن طبيعة شخصياتهم من الصنف الخطرعلى الديمقراطية، لأن النظام الديمقراطي يؤمن بمبدأ التداول السلمي للسلطة، فيما داخله السيكولوجي يدفعه نحو تمسك بها يؤدي الى طغيانه. وهنالك فرق بين مناضل يعدّ اسقاط سلطة استبدادية غاية، وبين من يعدّ اسقاطها وسيلة لغاية أسمى هي خدمة شعب وازدهار وطن. ولقد اثبت الواقع انهم كانوا منضوين في معارضة عملت من أجل نفسها وطموحات قادتها.

وقد يهون الأمر لو أن المناضل لم يلتزم بمعيار "خدمة الناس"، لكنهم جعلوا العراقيين يعيشون في محن صنعوها هم ويستمرون في اعادة انتاجها ولا نية لديهم لمعالجتها، لأنهم لا يملكون عقولا تخطط وتضع استراتيجيات كما تفعل حكومات بلدان الجوار مثلاً. فعشرات آلاف الخريجين من حملة البكلوريوس ظلوا بلا عمل يوم وصل برميل النفط (147) دولارا وصارت ميزانية العراق تعادل ميزانيات ست دول عربية، مضاف لهم عاطلون بلغت نسبة المهندسين بينهم أكثر من خمسين بالمئة.. فضلاً عن مدن خربه، وقرى موبوءة، وعاصمة كان الشعراء

يتغنون بها لجمالها تحولت الى أخطر واوسخ مدينة بالعالم.. وسياسيون صريحون وآخرون بأقنعة مقاولين تحولوا الى (حرامية) في شبكة من حيتان.. بأبشع وأجشع مافيا في تاريخ الفساد بالعراق، وحكومات لم تعمل حسابات ختامية منذ عام 2003!. وسكوت عن محاسبة فاسدين.. آخره، صمت رئيس الوزراء (السيد العبادي) الذي وعد بمحاسبتهم واعلن عن اكتشافه الآف الفضائيين، فما وضع في القفص فاسداً ولا قبض على فضائي وانزله الارض.. والسبب معروف هو ان حيتان الفاسدين ورواد الفضائيين.. موزوعون عليهم.

ان كراهية العراقيين لحكامهم الديمقراطيين صارت مشروعة لأنهم ما اهتموا بأحوالهم التي زادوها سوءا. فكلّ فريق منهم منشغل بعسكرة حزبه وعشيرته ومتملقيه، غير مكترثين بحال لن يطيقوا العيش فيه شهراً فيما العراقيون تحملوا فواجع ثلاث عشرة سنة اضافوها لفواجع عشرين سنة من حروب طاغية نرجسي احمق.. ختمها الديمقراطيون بان فتحوا عليهم باب جهنم داعش.. وانشغلوا يتبادلون التهم.. والوطن يحترق.

وهي كراهية مستحقة، فحتى الرموز الدينية جاملت على حساب وجع العراقيين، آخرها ما صرّح به السيد عمار الحكيم في 24 أبريل الجاري، متسائلاً بألم وحرقة! ".. أليس من تفسير واضح لانفاق مئات المليارات من الدولارات في السنوات الأخيرة؟".. مع انه كان في قلب العملية السياسية.. ويعرف انها حرام وصمت!

ليس صحيحاً ما قاله كاتب امريكي قبل اربع سنوات ان العراقيين اغبياء في قبولهم بحكامهم الحاليين.. وله نعيد القول بأن العراقيين كانوا، من قبل الاسلام، يوصفون بأنهم ما استسلموا لضيم وما رضخوا لظالم ولا انبطحوا لسلطة. وله نؤكد لو ان امريكا رفعت حمايتها لهم لرأيت كيف سيفرّون من غضب العراقيين اليكم والى حلفائكم.. فضلاً عن سبب آخر يجعلهم يصبرون: خوفهم ان يطاح بنظام ديمقراطي.. وهذه اوجع حالات التناقض التي يعيشها العراقيون: ان يكرهوا شيئاً هم بحاجة اليه!.

السياسة في العراق.. خبل عقلي!

(الخبل) يعني فساد العقل.. ويقاس بأفعال الفرد فإن كانت منطقية وعقلانية قيل عنه (عاقلاً) وإن كانت عكس ذلك قيل عنه (مخبولاً).

لنطبق هذا المنطق على أفعال العراقيين، ولنبدأها بـ (14 تموز 1958).. ففي صباحه قطعوا أيادي عبدالاله وآخرين وطافوا بها يهزجون بهوس في شوارع بغداد. وبين (1959 و1962) جرت مذابح في كركوك والموصل وهتفت جموع: (ماكو مؤامرة تصير والحبال موجودة).. أي وضع الحبل بعنق المخالف وسحله في الشوارع!. وفي (8 شباط 1963) قتلواعبد الكريم قاسم واخفوا جثته، وشهد قصر النهاية نهايات بشعة لوطنيين ومفكرين. وكان عدد القتلى بين يومي (8 و10 شباط 1963) خمسة آلاف بتقديرات الشيوعيين، فيما يذكر حنا بطاطو بكتابه (العراق) أن العدد المعلن رسمياً بإعدام (149) من الشيوعيين ليس صحيحاً. ويضيف ما يسميها "طرفة" رواها العقيد محمد عمران العضو السوري بالقيادة القومية للبعث أثناء المؤتمر القطري السوري عام (1964)، انه قال: "بعد المؤامرة الشيوعية طلب من احد ضباط الجيش العراقي إعدام اثني عشر، ولكنه اعلن أمام عدد كبير من الحاضرين انه لن يتحرك إلا لإعدام خمسمئة شيوعي، ولن يزعج نفسه من اجل اثني عشر فقط"! (ص 304 الكتاب الثالث).

وفي أيلول 1980 شن النظام السابق حرباً على إيران، جرى فيها عسكرة الناس وتسليح أساتذة الجامعة بالكلاشنكوف!. وما ان توقفت في 88/8/8 حتى شن النظام حرباً على الكويت، وهو خبل سياسي ان تخرج دولة من حرب كارثية لثمان سنوات وتدخل مباشرة بحرب كارثية اخرى.. انتهت بهزيمة قاسية قتل فيها آلاف.. وسقوط مدن بأيدي متظاهرين قاموا بوضع إطارات السيارات برقاب بعثيين وحرقوهم أحياء!

وفي (1988) أبيد مئة وثمانين ألف كردي في عمليات الأنفال، فضلا عن مجزرة حلبجة. وفي (2003) اكتشفت مقابر جماعية ضمّت آلافا دفنوا أحياء!. واستعملت السلطة في النظام السابق وسائل تعذيب بشعة بوضع الشخص وهو حي بالأحماض التي تذيب اللحم والعظم، والكي والحرق وتقطيع الأعضاء.

ومع أن العراق أحد أغنى البلدان، وميزانيته اكثر من ميزانيات ست دول عربية مجتمعة، فان من هم تحت خط الفقر في زمنه الديمقراطي! زاد على ستة ملايين بحسب تقارير رسمية حكومية نشرت في 24 آب 2013 وارتفعت إلى 30% في 2016، والآف (النبّاشة) يفتشون في (الزبالة) عن شيء يؤكل، يقابلهم برلمانيون وأعضاء حكومة جاءوا لا يملكون ثمن تذكرة الطائرة وصاروا يكنزون المليارات.. وكنزها خبل عقلي. وخاف من خبلهم خمسة ملايين عراقي هجروا وطنهم إلى بلدان الشتات، وآلاف يقتلون بالشهر الواحد.. بينهم من قتل لأن اسمه حيدر أو عمر أو سيروان!. فأي بلد مخبول هذا! والأكثر خبلاً.. انه لا يتوقف عن خبله الذي يعيشه من خمسين عاماً!.. آخرها دعوة رجل الدين (مرتضى القزويني) إلى قتل الشيوعيين في العراق!

لهذا (الخبل العقلي) ثلاثة أسباب، الأول يتعلق بالسلطة، واثنان يعودان إلى ان العراقيين ورثوا من ماضيهم (سيكولوجيا الخلاف مع الآخر)، وتشبعوا من حاضرهم بـ (ثقافة العنف).

ففيما يخص السلطة فإن العراق حكمته أربعة أنظمة (الأموي والعباسي والعثماني والبعث) تجمعها صفة مشتركة هي ان معظم حكامها دكتاتوريين قساة. ويخطئ من يظن ان التفنن في بشاعة التعذيب كان من مبتكرات النظام الدكتاتوري بل هو في الأصل (إرث سيكولوجي) منذ ان صارت بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية لألف عام.. إليكم واحداً من مشاهدها:

في (291هـ) جيء بالقرمطي وبفمه خشبة مخروطية شدّت إلى قفاه كهيئة اللجام. وأمر الخليفة (المكتفي) ببناء دكة في المصلّى، وجيء بالأسرى يتقدمهم القرمطي فصعدوا به إلى الدكة، وعرض أمامه اتباعه وقد قطعت أيديهم وأرجلهم وجرى ضرب أعناقهم واحداً واحداً. وتقدم الجلاد فضرب القرمطي مئتي سوط،

وقطع يديه ورجليه ثم أحرق وعلّق بدنه في طرف الجسر الأعلى الواقع في بغداد!

وفيما يخص (سيكولوجيا الخلاف مع الآخر) فان العراقيين ورثوها من أسلافهم.. فجدّنا السومري هو الوحيد في زمانه الذي يعدّ نفسه ابنا لألهه الشخصي وليس عبداً له، بعكس باقي الأسلاف زمنئذ حيث كان الفرد فيها عبداً لإلهه.. يتوسل لديه ان يحميه فيما كانت علاقة السومري بآلهة علاقة الابن بالأب.. عليه هو ان يحميه قبل ان يسأله!.. ومنها ورثت شخصية العراقي الأنفة وتضخم الذات اللتين تعدّان من اهم أسباب الخلاف. ولك ان تستشهد كيف إن العراقيين لم يتفقوا في العام (1921) على اختيار رئيس دولة من بينهم فاستوردت لهم بريطانيا ملكاً من الخارج!. وكيف ان حكومات (الشراكة) في الزمن الديمقراطي هي الأفسد والأفشل في تاريخ العراق، وبين قادتها من هو مصاب بالشك المرضي في شريكه، والبارانويا خبل عقلي!.

والاخطر.. ان 65%من الشعب العراقي هم من جيل شباب ولد ونشأ في حربين ويعيش الآن اكثر من حرب.. وأنه متشبع بثقافة عنف.. أقبح ما فيها أنها أطاحت بقدسية (قيمة الحياة) واستسهلت موت الآخر، ما يعني بتشخيصنا النفسي ان من يفعل ذلك هو شخص سيكوباثي.. يعني مخبول عقلياً.. ولكم ان تقدروا عدد المخبولين من هذا الجيل، الذي سيكون مصير العراق بيده، وكيف سيكون البلد بعد ان تغادره بقية الكبار الذين يقدّسون قيمة الحياة!

نعم إن العراق منتج لمبدعين ومفكرين وشعراء ورجال دين وشيوخ عشائر من طراز رفيع، ولكن زمنهم أشرف على نهايته، إذ تفرّق هذا الجمع الراقي بين من هجره وصار له حضور مميز في بلاد العقلاء، وبين من أسكته كاتم صوت، وبين من يضع الآن كفنه على راحتي يديه في بلد مخبول سيمضي في خبله، لسببين، الأول: ان السياسيين الذين يحكمون العراق الآن هم خلاصة هذا الخبل الذي يدفعهم هوسه الى ان يعظّوا بأسنانهم على السلطة (وما ينطوها). والثاني: وجود جماهير مخبولة تعيد انتخاب من يسرقها ويفجعها ولن تنتخب عاقلاً.. حتى لو كان بروفيسوراً في الاقتصاد السياسي!.

شيء واحد سيكون الرهان عليه.. ان بين جيل الشباب قوة بدأت تنفتح على العالم العقلاني المتحضر بثقافة تحب الحياة والجمال وتتحدى بسلاسة ثقافة العنف والقبح، تسندها وترفدها عقول عراقية في دول الشتات تتولى اصدار صحف ومواقع الكترونية.. تكشف لهم كم هو قبيح خبل السياسة في العراق!.

العيّارون.. أشرف منهم!

تقترن السلطة في تاريخنا العربي بالاستحواذ على الثروة، وتفرز بالضرورة قلّة من اغنياء وكثرة من فقراء، جسدها بغداد زمن هارون الرشيد بتباين حاد بين هاتين الطبقتين، في حياة بذخ وترف سفيه ومجون لقلة تمتلك السلطة والثروة والقانون، وكثرة من معدمين وجياع وعاطلين طحنهم الفقر بسبب انشغال الزعماء والحكام بالملذات.. بتعبير ابي حيان التوحيدي.

من هؤلاء الجياع والمهمشين، ظهرت جماعة اطلق عليهم (العيّارون).. والعيّار تعني لغوياً.. الكثير التجوال والطواف الذي يتردد بلا عمل، ويتصف بالذكاء عادة.. غير انهم كانوا يشكّلون مع الشطّار واللصوص جماعة منبوذة اجتماعياً.. ولهذا كانوا في صراع مع مجتمع نبذهم، تطور تدريجياً من التمرّد عليه الى القيام بالثورة ضد السلطة وكبار الاثرياء.. والحصول على حقوقهم الشرعية بأساليب غير شرعية.

ومع ان المصادر التاريخية وصفتهم بانهم (غوغاء من السفلة والأوباش والحثالة العامية) فانهم وصفوا ايضاً بأنهم كانوا أصحاب قضية سدت بوجوههم السبل المشروعة فلم يجدوا الا اللصوصية والعيارة وقطع الطريق سبيلاً للتعبير عن انفسهم وقضيتهم.. وكانوا في واحد من أساليبهم مثل روبن هود.. يسرقون المال من الاغنياء ليوزعوه على الفقراء والمحتاجين.. ولهذا وصفوا بانهم (سلطة العدل خارج القانون).

ومع ان العياريّن يذكروننا بالصعاليك زمن الجاهلية من حيث التشابه السيكولوجي والاجتماعي الا انهم كانوا أكثر شأناً وأشد فعلاً لاسيما زمن الفتنة بين الأخوين الأمين والمأمون حيث شكلّوا ظاهرة سياسية ووطنية ايضاً!. فحين

حاصرت جيوش المامون بغداد (196هجرية)، ورمتها بالمجانيق.. وقتلوا وهدموا وأحرقوا.. حصل ان معظم قواد الأمين هربوا ولم يصمد في هذه المعركة الا عامة بغداد (والأوباش والرعاع.. أي العيارون) بحسب الطبري.. وهم (العيارون) الذين جعلوا قائد جيوش المأمون (طاهر بن الحسين) يعجز عن دخول بغداد في واحدة من أشرس المعارك بين العرب والعجم، بل استماتوا في الدفاع عن بغداد وظلوا صامدين حتى بعد ان استسلم قائد جيش الامين وصاحب شرطته.. ما يعني انهم كانوا أكثر حباً لبغداد من سادتها.. وان فقرائها كانوا أكثر تعلّقاً بها من أغنيائها.. ربما لأن الفقراء اذا أحبوا أحبوا عن صدق، والأغنياء اذا أحبوا.. أحبوا عن مصلحة!.

والمفارقة ان جند الأمين وجند المأمون شرع كل منهما في تدمير وحرق الجانب الذي اعتصم به خصمه، وكانت النتيجة تدمير بغداد وحرقها.. وهي الوقعة التي رثى فيها الشعراء بغداد لأول مرة رثاءاً مرّاً يفيض حسرة على مصيرها.. وأن العياريين انفسهم رثوها كما ينقل الدكتور محمد رجب النجار عن الطبري، فيما لم يرثها من حكامها وأغنيائها أحد!

ثمة حقيقة تخص الطبيعة البشرية هي ان الوصول الى السلطة يؤدي الى الاستحواذ على الثروة حتى لو كانت ديمقراطية، وتفرز قلة تعيش برفاهية وكثرة تعيسة بائسة. والمفارقة المخجلة ان العيّارين ايام زمان كانوا قوة تخشاها السلطة والاثرياء الفاسدين فيما (عيّاريي) زمن الديمقراطية لا يملكون سوى التظاهرات والترديد.. (نواب الشعب كلهم حراميه)!.

والمفارقة الأوجع، اننا حين نقارن حال الأمس الغابر من اللصوص بحال اليوم الحاضر من لصوص سياسيين ووزراء ومسؤولين كبار، نجد ان العياريّن كانوا يتحلون بقيم لا يتحلى بها عدد من الذين تولوا المسؤولية ويدّعون التقوى. فلقد كان لهؤلاء العيّارين زعيم اسمه (عثمان الخياط) يضع لهم الاسس والمباديء والاخلاق التي ينبغي ان يتصف بها اللصوص، منها مقولته: (ما سرقت جاراً وان كان عدواً، ولا كريماً، ولا كافأت غادراً بغدره). وأوصى أصحابه قائلاً: (اضمنوا لي ثلاثاً أضمن لكم السلامة.. لا تسرقوا الجيران واتقوا الحرم ولا تكونوا أكثر من

شريك مناصف وان كنتم اولى بما في ايديهم لكذبهم وغشهم وتـركهم اخـراج الزكاة وجحودهم الودائع).

لاحظ ما قاله.. انه لم يعد يخون أو يكذب منذ ان صار من اللصوص الفتيان.. ذلك انهم كانوا يسرقون كبار الاثرياء والبخلاء ومن لم يخرج زكاة أو يغش او يكذب في معاملات الناس.. وانما في رأيهم استرداد لمال الله الذي ينبغي ان يستعيدوه منهم عنوة واغتصاباً.. وتحقيق العدل خارج القانون.

قارنوا بالله عليكم بين قيم هؤلاء اللصوص وبين قيم لصوص وصفتهم المرجعية الموقرة بأنهم (حيتان). فالعيارون كانوا يسرقون الاثرياء، فيما ساسة هذا الزمان يسرقون قوت الناس الذي ائتمنوا عليه. واولئك كانوا يخرجون الزكاة من المال الذي يسرقونه رغم قلته، وهؤلاء لا يزكوه ولا يخمّسوه بمن فيهم معممون وأصحاب لحى. واولئك كانوا يوزعون المال المسروق على المحتاجين من أبناء شعبهم، وهؤلاء يسرقون مال شعبهم ويودعونه في الخارج. واولئك كانوا يستحون ويخجلون ان سرق أحدهم فقيراً، فيما هولاء مسحوا آخر نقطة حياء من على جبينهم.. وحولوا الفساد الى شطارة!. وأولئك ما كان أحد منهم يتستر على سارق، فيما رئيس حكومتهم السابق تستر عليهم، خوفاً (أن ينقلب عاليها سافلها!).. وصمت رئيسها الحالي عن تنفيذ وعده بكشف الحيتان!. هل هناك من يشك ان عياريّ ايام زمان.. أشرف من ساسة هذا الزمان؟!.

ميكيافيلّي.. عراقي!

لا أظن أحداً فهم ثلاثية سيكولوجيا السلطة والحاكم والدين قدر ما فهمها ميكافيللي. فمع انه يعدّ مؤسس التنظير السياسي في عصر النهضة، الا انه كان ابرع واحق باكتشاف هذه العلاقة من شيخ النفسانيين.. فرويد.

والمدهش أن ما قاله عن (الأمير: الملك، رئيس الجمهورية، رئيس الوزراء..) قبل خمسمائة عام ما يزال ينطبق على معظم حكّام العالم، بل أن اغلب من بيده السلطة بالدول النامية يتعاملون مع (الأمير) معاملة هتلر وموسوليني وستالين وفرانكو.. أعني أنهم يضعونه في مكاتبهم ويعدّونه مستشارهم في ادارة شؤون الدولة.

والمفارقة، أن ميكيافيلّي وصف بالشيطان، ووصفه موسوليني - الذي أعدّ عنه أطروحة دكتوراه - بأنه منافق كبير، وانتقده الحكّام الأحياء منهم والأموات مع أن معظمهم طبّقوا ويطّبقون ما اوصى به في تعاملهم مع الرعية. وان كنت في شك بما أقول، اقرأ (الأمير) فستجد أنه يوصي الحاكم أن يكون غدّاراً اذا وجد أن محافظته على العهد لا تعود عليه بالفائدة، وأن يكون دعيّا كبيراً ومرائياً عظيماً، فالاستيلاء على السلطة والاحتفاظ بها خدمة لمصالح فئة او جماعة سياسية على حساب جموع الناس ورغما عنهم.. يقتضي استعمال ما يلزم من قهر واستبداد لفرض نظام سياسي يروج له على أنه الخير العام.

ويضيف (ميكيافيلّي) ان على الحاكم أن يجمع بين خداع الثعلب ومكر الذئب وضراوة الأسد، وأن لا يخجل في اختيار أي أسلوب مهما تدنّى لتحقيق أهدافه وطموحاته السياسية، وأن لا يتقيد بالمحاذير الأخلاقية التقليدية لتحقيق مبتغاه، فالهدف الرئيس لم يعد، وفقاً له، تحقيق رفاهية شعبه وسعادته بقدر البقاء

في الحكم الى ما شاء الله. وأن يتقن الكذب والمراوغة ليحقق مآربه بأية وسيلة ملتوية، ويعطي شعبه في الوقت نفسه الانطباع بأنه رحيم، نزيه، انساني، مستقيم، ومتدين. وينبّه الحاكم الى أن الناس ناكرون للجميل، متقلبون، مراؤون، شديدو الطمع، وهم الى جانبك طالما أنك تفيدهم.. وسيمجدونك حين تكون مرهوب الجانب شديد العقاب.

في العراق، زمن النظام الدكتاتوري.. كان هنالك ميكيافيلّي واحد.. غدر بجماعته، وانتقم من خصومه.. وكان مرهوب الجانب شديد العقاب.. أوصل العراقيين الى ان يمجدوه بمن فيهم أكاديميون وصفوه بأنه (هبة السماء) للعراق، وشعراء كبار رفعوه الى السماء وأضفوا عليه صفات الانبياء.. بينهم من انتموا الآن الى ميكيافيليّ الزمن الديمقراطي! ويحتلون مواقع في اتحادات الادباء العراقيين!.

وكان ميكيافيلّي الزمن الدكتاتوري.. واحداً.. منفرداً.. متفرداً.. ولدى الناس وضوح بخصوص طغيانه واساليب تصفية خصومه، فيما الان هنالك ميكيافيلّي معمم، وآخر ملتح، وآخر أفندي، وآخر يلبس العقال واليشماغ والعباءة الجاسبي.. فاختلط الامر على الذين يريدون ان يعيشوا آمنين وباتوا حيارى لا يعرفون مع أي ميكيافيلّي يروحون وأي ميكيافيلّي يتجنبون، وهم يريدون ان يعيشوا بلا منغصات.. بعد فواجع اثكلهم فيها ميكيافيلّي الزمن الدكتاتوري ثلاثاً وعشرين سنة، زادها ميكيافيلّو الزمن الديمقراطي عشراً تطايرت فيها أجساد أحبتهم باحداث أفجع وهربت أحلامهم منهم مثل حمائم ملونة.. قتل الصياد أجملها وفرّت الأخريات مذعورات فرار ملايين العراقيين الى الغربة خائفين من ميكيافيلّي الزمن الديمقراطي.

قد يقول أحدهم اننا نبالغ في الوصف ونجور في التهمة، وله نستعيد قول ميكافيللي ونصّه: "ان الهدف الرئيس للحاكم ليس تحقيق رفاهية شعبه وسعادته بقدر البقاء في الحكم الى ما شاء الله".. أليست هذه الصفة انطبقت على حاكم عراقي ديمقراطي قالها علنا (ما ننطيها!) برغم انه كان السبب الاول في شقاء شعبه؟.. وانها رغبة قابعة في داخل معظم قادة العملية السياسية العراقية.. مع انها بالضد من الديمقراطية التي تعتمد مبدأ التداول السلمي للسلطة؟.

وميكيافيلّي هو القائل ان الدين ضروري للحكومة لا لخدمة الفضيلة بل لتمكينها من السيطرة على الناس.. ولكم أن تتأملوا كم ميكيافيللي طائفي استخدمها في العراق؟.. وتذكروا ان معظم الذين هم الآن في المواقع المتقدمة من السلطة عادوا الى العراق وليس لهم أي رصيد شعبي فعزفوا على وتر الطائفية وصاروا، باعترافهم هم، في مواقع قرار لا يتخذون منها الا ما يخص انفسهم وجماعتهم.

ان أقبح الميكيافيلّين هو الذي يوظف الدين للاحتفاظ بالسلطة. فالناس يبررون للسياسي الذي يمتهن السياسة ان يكون مراوغاً، غدّاراً، لأن السياسة بمفهومها العام عند العرب، بلا أخلاق... لكن ان تكون هوية السياسي دينية ويكون ميكيافيلليا فتلك مسألة لا تغتفر.. ليس لأنه يخدع الناس بل لأنه يخدع الله ويسيء الى قيم دينية تعدّ في نظر كثيرين مقدسة.. وانها عند الله هي والكفر سواء.. اليس الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله "فبشرّهم بعذاب أليم"، فكيف بالذي يخزن مليارات الدولارات ولا ينفق منها مليوناً واحداً في سبيل ثلاثة ملايين نازح.. مهجّر.. بينهم أطفال يسكنون العراء وآخرون يفتشون في الزبالة عن كسرة خبز.. هو السبب في نزوحهم وشقائهم وجوعهم؟. والأقبح ان ملياراته لا يزكيها مع انه يعرف أنها فريضة عليه.. بل يزيدها صلافة بحج بيت الله في كل عام!.. وتلك صفات فاتت على ميكيافيلّي ان يذكرها في (الأمير).. وبها يسجّل حكّام الزمن الديمقراطي العراقي اضافات جديدة لصفات الحاكم الديمقراطي!.

أيها السادة، ان الشيطان ميكيافيلّي ما يزال حياً في زعاماتنا التي أصابها الاحتراب الطائفي بالبارانويا! وايصال زعامات محتقنة بشرور جاءت بها ديمقراطية ناقصة عقل ومسؤولية، لأن الطائفية السياسية، بطبيعتها، منتجة لحكّام فاشلين.. ولا سبيل للعراقيين غير أن يعطّلوا عقلهم الانفعالي الذي جاءهم ببرلمانيين خذلوهم وأخجلوهم، ويحكمّوا عقلهم المنطقي بانتقاء من يمتلك القدرة على انقاذ العراق من محنته، ويمنعوا مجيء ميكيافيلّي جديد، والا سينطبق عليهم قول تشرشل: "كل شعب في العالم ينال الحكومة التي يستحقها!".. وقد استحقوها عشر سنين.. ونخشى ان ما يجري الآن في العراق هو الركضة الاخيرة نحو انتاج ميكيافيلّي عراقي جديد!.. لعشر سنين او يزيد!

المنطقة الخضراء.. بلاء وابتلاء!

المنطقة الخضراء مكان يقع وسط العاصمة بغداد بمساحة (10 كم مربع) يضم مقر الحكومة والبرلمان العراقيين والسفارتين الأمريكية والبريطانية ووكالات حكومية واجنبية. وظهر هذا الأسم عند قيام الحكومة العراقية الانتقالية التي شكلها بريمر بعد غزو قوات الاحتلال الدولية العراق عام (2003). وكانت هذه المنطقة قبل الغزو مقر الحكومة العراقية السابقة وتضم القصر الجمهوري وقصر السلام وقصوراً أخرى للرئيس العراقي السابق صدام حسين وولديه، وبيوتاً سكنية لعدد من المسؤولين الكبار في النظام السابق، وعدداً من الهيئات المرتبطة بديوان رئاسة الجمهورية. وقبله كانت المنطقة حياً سكنياً عاماً يدعى شعبياً (كرادة مريم) ورسمياً (حي التشريع).

كانت أمريكا هي التي اطلقت هذه التسمية (المنطقة الخضراء - غرين زوون).. وكان لها قصدان، الأول: لتبشّر العراقيين بما يوحي اللون الأخضر من دلالات. فكما الشجرة لا تكون خضراء الا بتوافر الماء والهواء والتربة الجيدة، فان امريكا أرادت أن توحي للعراقيين بأنهم مقبلون على عراق أخضر زاهر آمن، وليكون العراقيون مدينين لها بهذه الفضائل من النعم.

والثاني: جعل العراقي يعقد، في وعيه ولاوعيه، مقارنة بين منطقة كانت حمراء.. سكنها مارد جبار سفك دماء العراقيين في حروب حمقاء، وحوّل حياتهم الى جحيم أحمر وأيامهم الى مآتم عزاء، وبؤس أكلوا فيه خبز النخالة ثلاثة عشر عاماً عجفاء، وبين منطقة أصبحت الآن خضراء.. منحت العراقي الخلاص من الرعب والخوف وكل ما يحمله اللون الأحمر من أخطار، وتعده بتحقيق وطن جميل وراحة نفسية بعد ثلاثين سنة من المشقّات والفواجع.

وما حصل ان (المنطقة الخضراء) بالذات.. سرقت أحلامهم!.. وأنها جلبت لهم الفواجع اليومية، وأوصلتهم الى اقسى حالات الجزع والأسى: الترحم على الأيام التي كانت فيها هذه المنطقة حمراء!.. وحصول ما هو أوجع من الكارثة.. لأن من وعدهم بتحقيق الحلم، وخذلهم.. كانوا مناضلين.. بينهم من عاش هموم الشعب وأوجاعه.

من حالة الخذلان هذه.. نشأت سيكولوجيا العزلة.. عزلة المنطقة الخضراء.. ليست فقط مكانياً بأن أحاطت نفسها بالكونكريت والحراسة المشددة، بل انها عزلت نفسها نفسياً عن الناس.. فصار عندنا عالمان متناقضان: عالم صغير هو المنطقة الخضراء وعالم كبير هو العراق.

ومن سيكولوجيا العزلة هذه نشأت حالة اخطر هي سيكولوجيا القطيعة النفسية.. بدأت من يوم انفرد أهل المنطقة الخضراء بتحويل واقعهم الى حياة خرافية وترك من أوصلهم اليها يعيشون حالة البؤس والخوف والفجع اليومي. وتطورت حالة القطيعة الى حالة الخصومة في اليوم الذي خرج فيه المخذولون (البنفسجيون) بتظاهرات كانت تحمل في البدء معاني العتب والتنبيه، ولما تأكد لهم انهم ما استجابوا وما خجلوا ولا حتى قالوا لهم (حقكم علينا).. عندها غصت ساحة التحرير في شباط 2011 بالجماهير تهتف (نواب الشعب كلهم حرامية).. فردت المنطقة الخضراء بأن أوفدت أحد (مناضليها) ليصعد على سطح العمارة المطلّة على الساحة ويعطي الأوامر بضربهم.. وربضت الدبابات على جسر الجمهورية خوفاً من زحف الجماهير للقضاء على سبب البلاء.

وبلاء المنطقة الخضراء تجاوز هذا الحال بأن أساءت للدين وأفسدت القيم.. في حال أفضى الى اضعاف الضمير الاخلاقي كي يغلق، بآلية نفسية، باب الشعور بالذنب ليفعل صاحبه ما يشاء وسط آخرين يهونون عليه الأمر برؤيته لهم يتفننون ويتشاطرون في فعل الشيء نفسه.. وآخرين يخرّجونها دينيا بأن (الضرورات تبيح المحظورات!). وبضعف الوازع الديني وهروء الضمير الاخلاقي عند السياسي، يكون قد غيّر سكّته الى حيث الرفاهية الشخصية التي تغريه وتنسيه بؤس الناس وحاجتهم اليه، الى الدرجة التي صار فيها العراقيون يصفون أهل المنطقة الخضراء

بأهم (مسحوا آخر قطرة حياء من جباههم) لانشغالهم بمصالحهم وعدم اكتراثهم حتى بعراء الأطفال في ثلج الشتاء!.

كان يعاب على صدام حسين انه بنى قصوراً.. لكن قصوره كلّها بناها في العراق وعادت لأهله.. فيما كبار المنطقة الخضراء.. (افتهموها!) فبنوا فللاً وشققاً في لندن وباريس وبيروت وعمان ودبي وشرم الشيخ.. مع انه في كل يوم تحل بالعراقيين فواجع هم سببها.

ان التوصيف هذا لا يشمل بالطبع كلّ ساكني المنطقة الخضراء، ولا يصح ان يطلق بصيغة التعميم على كلّ السياسيين فيها، فبينهم من هو في محنة مع شركائه، وآخر من هو غيور على وطنه وشعبه، وثالث نفترض انه يتمتع بحصانة عالية يحمي بها ضميره الاخلاقي من ملوثات الفساد واغراءات المال والسلطة، ولكنهم قلّة غير مؤثرة في تغيير حال صارت فيه المنطقة الخضراء مصدر بلاء على العراقيين وابتلاء.. ومفقس منتج لأزمات أوصلت الناس الى التمني لو كانت في العالم آلة حفر عملاقة تقتلع المنطقة الخضراء.. وترميها في خليج برمودا.. قريباً من أميركا!.

الفساد.. وباء عراقي ديمقراطي!

(لمناسبة دعوة الى قيام تظاهرات ضد الفساد أطلقت في 14 آذار 2015)

تستخدم مفردة (الوباء) حين ينتشر بين الناس مرض يفتك بهم ويصعب السيطرة عليه كالذي حصل للعراقيين في اربعينيات القرن الماضي حين فتكت بهم الكوليرا وأرّخوها شعبياً بأن اطلقوا عليها (سنة ابو زوعه). والمفارقة ان الوباء في انتشار الأمراض صار يمكن القضاء عليه بابتكار المضادات التي تقتل جرثومته فيما الوباء في الظواهر الاجتماعية المنافية للدين والقيم والاخلاق لا يمكن السيطرة عليه اذا سكتت عنه الحكومة او كانت متورطة به، واذا عجز الناس عن ايقافه او تقبلوه باعتباره صار واقع حال.. في نظام ديمقراطي!

وما يجعل المواطن (يلطم على رأسه) ان المرجعية الموقرة تقر بوجود الفساد بتصريح ممثليها علنا في خطب الجمعة بان في الحكومة (السابقة) لصوصاً وحيتاناً، وان الحكومة نفسها تعترف بوجوده، والكتل السياسية المختلفة على كل شيء.. تتفق على ان الفساد موجود، والناس بحت أصواتهم من المطالبة بالقضاء عليه.. وما من مستجيب، و(انفضحنا) عالميا بوضع العراق ثاني أفسد دولة عربية ورابعها دولياً. والأمور تجري بما يشبه مسرحية هزلية أو كوميديا سوداء من نوع شرّ البلية ما يضحك.. حدث أحد مشاهدها في شباط (2011) يوم هتف الناس في ساحة التحرير (نواب الشعب كلهم حرامية) وطالبوا الحكومة بمحاسبة الفاسدين فردت عليهم (الحكومة) بضربهم، وحين شعرت بخطرهم سدت جسر الجمهورية المؤدي الى المنطقة الخضراء بالدبابات. والآن يعود ممثلو الجماهير من المثقفين الموجوعة قلوبهم بتنظيم مظاهرة في ساحة التحرير يوم (14 آذار 2015) بتكرار نفس الطلب

مضافاً له طلباً أجرأ.. ان تتظاهر الحكومة داخل المنطقة الخضراء ان تعّذر على رئيسها الوصول الى ساحة التحرير!!.

يا إلهي.. قرأنا في الأدب السوريالي ومسرحيات اللامعقول فما وجدنا غرابة وسخرية وكوميديا فجائعية كالتي تصدمنا مشاهد مسرحية الفساد في عراق النظام الديمقراطي!.. آخرها ان نطلب من الحكومة بان تتظاهر ضد نفسها!. ولا تستغربوا.. فقد يظهر رئيس الحكومة رافعاً بنفسه لافته مكتوبا عليها (الموت للفساد).. وقد ترفعه الناس على الأكتاف، وحين تنفض التظاهرة ويودعونه بوجوه مستبشره وبمدح عراقي (من هذا اليعجبك!).. ويعود ليجلس على كرسي رئاسة الوزارة، فأنه لن يجرؤ على احالة (حوت) واحد الى القضاء.. لأن لحظتها (سيصيح) صوت في رأسه (ان فعلتها يا حيدر العبادي فيا ويل حزبك من الفضيحة). وكان هذا الصوت قد اسمع علنا بلسان سلفه نوري المالكي: (لديّ ملفات فساد لو كشفتها لانقلب عاليها سافلها).. ولم يكشفها لأن الحيتان موجودة في كل الكتل خمطوا المليارات بالأطنان.. ولم يستطع خلفه العبادي صيد حوت واحد برغم انه أعطى وعداً والتزاماً سياسياً بصيد كل الحيتان.. فابتلى بوباء أشاعه سلفه و(رفيق دولة قانونه). وصدقونا.. لن يستطع الا ان يغادر حزبه ويكون الناس حزبه وظهيره.. وتلك نصيحة قدمناها له قبل ثلاثة أشهر بعنوان (افعلها تدخل التاريخ).. وما فعلها.

الحقيقة كنا شخصّناها عام (2009) بعد ان لاحظنا شيوع الفساد وصغناها في حينه بما يشبه النظرية (أو قانون اجتماعي) هو:

(اذا زاد عدد الافراد الذين يمارسون تصرّفاً يعدّ خزياً، وتساهل القانون في محاسبة مرتكبيه، وعجز الناس عن ايقافه أو وجدوا له تبريراً، تحول الى ظاهرة ولم يعد خزياً كما كان).

الفساد، يا سادة، يشبه المرض.. فكما ان المرض ينشأ خفيا ثم تبدأ اعراضه بالظهور، فان لم يعالج في حينه تضخمت هذه الاعراض وأصبحت عصية على العلاج.. كذلك الفساد في العراق الذي ظهرت أعراضه قبل ثلاثة عقود وتضخمت بعد التغيير.. وكان الاحتلال أحد أهم عناصرها لأنه اوصل المسؤول

العراقي الى حوار داخلي تبريري مع نفسه: (ما دام المحتل ينهب العراق وليس له من رادع.. فلماذا لا انهب انا وطني!).. فضلاً عن ان أمريكا حمت وزراء ومسؤولين عراقين كبار نهبوا المليارات ويعيشون الآن فيها مرفهّين!

الحقيقة التي تبدو غائبة عن كثيرين، ان الفساد في زمن النظام الدكتاتوري تكون الحكومة أو رئيس النظام هو المسؤول الآول عنه، فيما الفساد في النظام الديمقراطي يكون المسؤول الاول عنه هو.. الناس، لأنهم هم الذين انتخبوا أعضاء برلمان معظمهم يسيل لعابهم على الدولار، وتحديداً.. من يوم جاءوا ببرلمان (2005) الذي التف على مبدأ الحلال والحرام وطرحه أرضاً (بشرعنة قانونية).. افضى، بعد ان توسع في مؤسسات الدولة، الى توليد انطباع عام لدى الناس هو ان الحكومة غير جادة في محاربة الفساد بنوعيه اللاقانوني و(المشرعن).. المتمثل بتخصص رواتب ضخمة وامتيازات خيالية للرئاسات الثلاث واعضاء البرلمان والحمايات بمعدل (30) عنصراً لكل مسؤول وو.. وآخرها الفضائيون (الموظفون الوهميون) بعشرات الآلاف.

أيها المثقفون المفجوعة قلوبهم على وطنهم وأهلهم.. نبارك لكم تظاهراتكم، بما فيها دعوتكم الحكومة الى ان تتضامن معكم وتتظاهر داخل المنطقة الخضراء!. ولا تصابوا بالاحباط ان خذلكم من تراهنوا عليه او عليهم.. ولكن اعلموا ان الذي يقضي على الفساد في العراق هو احياء الشعور بالانتماء الى العراق وايقاظ الوعي الانتخابي من مخدّر الطائفية.. وتلك ستكون مهمتكم ورهانكم الذي يضمن لكم استرداد ثروة الوطن من الحيتان.. حتى الذين في اميركا.

حسينيون.. ضد الحسين!

الهوية الحقيقية لثورة الحسين هي انها ثورة أخلاقية، فلو كانت سياسية فان هدف القائم بالثورة يكون الوصول الى السلطة فيما الحسين كان يعرف انه مقتول، ولو كانت اسلامية لما تعاطف معها مسيحيون وقادة غير اسلاميين بينهم غاندي. ولهذا فان الثورات السياسية غالباً ما صارت منسية، فيما ثورة الحسين تبقى خالدة.. والسبب هو ان موت الضمائر وتهرؤ الاخلاق والزيف الديني هي التي تشطر الناس الى قسمين: حكّام يستبدون بالسلطة والثروة، وجماهير مغلوب على أمرها.. فتغدو القضية صراعاً أزلياً لا يحدّها زمان ولا مكان، ولا صنف من الحكّام او الشعوب. ومن هنا كان استشهاد الحسين يمثل موقفاً متفرداً لقضية أخلاقية مطلقة، مادامت هنالك سلطة فيها: حاكم ومحكوم، وظالم ومظلوم، وحق وباطل.

كان بامكان الحسين ان ينجو وأهله واصحابه بمجرد ان ينطق كلمة واحدة: (البيعة).. لكنه كان صاحب مبدأ: (خرجت لطلب الاصلاح في أمة جدّي).. والاصلاح مسألة اخلاقية، ولأنه وجد أن الحق ضاع: (ألا ترون أن الحق لا يعمل به)، ولأن الفساد قد تفشى وشاعت الرذيلة.. فكان عليه ان يختار بين: أن يوقظ الضمائر ويحيّ الاخلاق، أو ان يميتها ويبقى حياً.. فاختار الموت.. وتقصّد أن يكون بتلك التراجيديا الفجائعية ليكون المشهد قضية انسانية أزلية بين خصمين: سلطان جائر.. وجموع مغلوب على أمرها.

كان الوقوف بوجه ظلم السلطة وطغيانها وتحقيق العدالة الاجتماعية وضمان حرية وكرامة الانسان التي اكد عليها الاسلام هي القيم الكبرى في ثورة الحسين، فتعالوا نطبّق هذه القيم على السلطة في العراق التي يقودها(حسينيون).

واقع الحال ان العراق الآن فيه عالمان: عالم السلطة المحدد بمنطقة صغيرة في بغداد (10كم مربع)، وعالم كبير هو العراق. والذي حصل ان هذه المنطقة سرقت احلام العراقيين وجلبت لهم الفواجع اليومية، وأوصلتهم الى أقسى حالات الجزع والأسى.. وعزلت نفسها مكانياً ونفسياً عن الناس بأن أحاطت وجودها بالكونكريت والحراسة المشددة، ولو انها كانت قد اتبعت منهج الحسين لكانت قريبة من الناس لأن الحسين ساكن في قلوبهم.

والمخجل، أن اساءة السلطة للأمام الحسين وصلت الى الخارج. فبدل ان نقدم الحسين رمزاً انسانياً لعالم أفسدت أخلاقه السياسة فان السلطة ارتكبت اساءة بالغة بحقه أمام الأجانب. ففي مقالة لكاتب بريطاني اسمه (دافيد كوكبورن) نشرها في صحيفة الاندبندنت بعنوان: "كيف تحولت بغداد الى مدينة للفساد".. جاء فيه:

(أحسست بألم وأنا أرى شعاراً مكتوباً على لافتات سوداء بساحة الفردوس: "الحسين منهجنا لبناء المواطن والوطن"!. عشر سنوات منهج "حسيني"!! والنتيجة هي حكومة حرامية.. عشر سنوات في الحكم وبميزانية تقارب ترليون دولار.. أي ما يقارب حاصل جمع ميزانيات العراق خلال ثمانين عاماً!.. والنتيجة ان زخة مطر تُغرق "عاصمة الثقافة العربية"!. عشر سنوات من الفساد المالي والسياسي وضع البلد على حافة الانهيار.. وكل ما تملكه حكومة الحرامية هو شعار "الحسين منهجنا لبناء المواطن والوطن"!!). فأية اساءة أشدّ وجعاً من اساءة يدعي أصحاب السلطة أنهم (حسينيون) فيما أعمالهم تناقض مبادىء الحسين وقيمه!.. وأقبحها انهم تركوا ملايين، اوصلوهم الى السلطة، تعيش في بيوت الصفيح بينهم من يفتش عن قوت يومه بنبش (الزبالة)، فيما صاروا، بعد ان كانوا معدمين، يعيشون حياة باذخة ويشترون الفلل والشقق الفارهة في بيروت وعمان وشرم الشيخ ولندن وباريس.

كنا كتبنا في زمن السيد نوري المالكي، ان حكومته هي أفسد حكومة في تاريخ العراق، وانه لا يمكن لحكومة فاسدة ان يكون رئيسها نزيهاً، وانه ارتكب جريمة كبرى بسكوته عن محاسبة الفاسدين ولم يشفع له قوله: (لديّ ملفات

للفساد لو كشفتها لأنقلب عاليها سافلها).. بل ادانه، لأن الجميع فهمها انه لو كشف الفاسدين وابناء المسؤولين من الخصوم.. لفضحوه. وسيذكره التاريخ (وشركاؤه) بأن القيم الاخلاقية في زمانه تهرأت وانحطت لدرجة ان الفساد صار يعدّ شطارة بعد ان كان خزياً في قيم العراقيين.. فخلّف بذلك معضلة شاقة لسلفه الدكتور حيدر العبادي. فبرغم ان وثيقة الاتفاق السياسي في حكومة الوحدة الوطنية (2014) تضمنت بنداً ينص على (محاربة الفساد المالي والاداري ومحاسبة المفسدين) فانه لم يستطع ان يحاسب واحداً من الذين وصفتهم المرجعية الموقرة بـ (الحيتان).. بينهم حيتان (حسينيون!).. وانشغل في الاشهر الثلاثة الاولى باستراتيجية (اطفاء الحرائق) التي أشعلها سلفه.. الذي صار النائب الاول لرئيس الجمهورية!، ثم انشغل بـ (داعش).. التي أراحت الفاسدين وجعلت الفساد.. قضية ثانوية.. وربما ستجعلها منسية!

لقد وصل اللاحياء ان مسؤولين فاسدين نهبوا المال الحرام واثروا ثراءاً فاحشاً.. يجلسون في مجالس العزاء الحسيني وايديهم على جباههم.. حزانى.. يبكون! فيما هم فعلوا ويفعلون بالضد من قيم الامام الحسين.. ما يجعلك تتساءل أمام زيفهم هذا وما أحدثوه من خراب للقيم: ماذا لو خرج الامام الحسين الآن في بغداد متوجهاً الى المنطقة الخضراء.. ترى هل سيستقبلونه بالاحضان؟.. أم انهم سيخيرونه بين أمرين: العودة من حيث أتى.. أو القتال؟!

الوطن.. بين سياسي أحول عقل ومواطن أثول

يعني (الحول) بالمفهوم العام عدم وضوح رؤية الاشياء بسبب خلل في عضلات العين. وبهذا المعنى يكون الحول العقلي عدم وضوح الأفكار والرؤى بسبب خلل في عقل المصاب به. وتختلف مستويات هذا الخلل بحسب حدتها، من الشيزوفرينيا بأنواعها.. الى البرانويا بأنواعها.. الى الدوغماتية التي تعد علّة الحول العقلي لدى معظم السياسيين العراقيين.

ومن متابعتنا لأقوالهم وأفعالهم وجدنا ان أكثر اعراض الحول العقلي.. الادراكي لديهم تتمثل بالآتي:

- يرى ايجابيات جماعته ولا يرى سلبياتها، ويرى سلبيات الجماعة الاخرى ولا يرى ايجابياتها.
- يرى جماعته على حق دائم والجماعة الأخرى على باطل دائم.
- يحمّل الجماعة الاخرى أسباب الفشل السياسي وخلق الآزمات، مع أنه شريك فاعل في خلقها.
- لا يعترف بخطئه.. فيقين الاحول عقل، ما يراه فقط وليس ما هو واقع.

وسياسياً، كان سبب هذا (الحول) هو بريمر بتشكيله مجلس الحكم على مبدأ (التثليث). ولأن الوضع النفسي في حينه كانت تحكمه (سيكولوجيا الضحية والجلاّد).. حيث الشيعة والكورد هما الضحية، والسنّة هم الجلاّد.. فان الامور تطورت الى احتراب طائفي سخيف وصل فيه عدد الضحايا في أحد أيام تموز 2007 مئة روحاً بريئة كان الفرد فيها يقتل لمجرد ان اسمه حيدر أو عمر أو سيروان.

للفساد لو كشفتها لأنقلب عاليها سافلها).. بل ادانه، لأن الجميع فهمها انه لو كشف الفاسدين وابناء المسؤولين من الخصوم.. لفضحوه. وسيذكره التاريخ (وشركاؤه) بأن القيم الاخلاقية في زمانه تهرأت وانحطت لدرجة ان الفساد صار يعدّ شطارة بعد ان كان خزياً في قيم العراقيين.. فخلّف بذلك معضلة شاقة لسلفه الدكتور حيدر العبادي. فبرغم ان وثيقة الاتفاق السياسي في حكومة الوحدة الوطنية (2014) تضمنت بنداً ينص على (محاربة الفساد المالي والاداري ومحاسبة المفسدين) فانه لم يستطع ان يحاسب واحداً من الذين وصفتهم المرجعية الموقرة بـ (الحيتان).. بينهم حيتان (حسينيون!).. وانشغل في الاشهر الثلاثة الاولى باستراتيجية (اطفاء الحرائق) التي أشعلها سلفه.. الذي صار النائب الاول لرئيس الجمهورية!، ثم انشغل بـ (داعش).. التي أراحت الفاسدين وجعلت الفساد.. قضية ثانوية.. وربما ستجعلها منسية!

لقد وصل اللاحياء ان مسؤولين فاسدين نهبوا المال الحرام واثروا ثراءاً فاحشاً.. يجلسون في مجالس العزاء الحسيني وايديهم على جباههم.. حزانى.. يبكون! فيما هم فعلوا ويفعلون بالضد من قيم الامام الحسين.. ما يجعلك تتساءل أمام زيفهم هذا وما أحدثوه من خراب للقيم: ماذا لو خرج الامام الحسين الآن في بغداد متوجهاً الى المنطقة الخضراء.. ترى هل سيستقبلونه بالاحضان؟.. أم انهم سيخيرونه بين أمرين: العودة من حيث أتى.. أو القتال؟!

الوطن.. بين سياسي أحول عقل ومواطن أثول

يعني (الحول) بالمفهوم العام عدم وضوح رؤية الاشياء بسبب خلل في عضلات العين. وبهذا المعنى يكون الحول العقلي عدم وضوح الأفكار والرؤى بسبب خلل في عقل المصاب به. وتختلف مستويات هذا الخلل بحسب حدتها، من الشيزوفرينيا بأنواعها.. الى البرانويا بأنواعها.. الى الدوغماتية التي تعد علّة الحول العقلي لدى معظم السياسيين العراقيين.

ومن متابعتنا لأقوالهم وأفعالهم وجدنا ان أكثر اعراض الحول العقلي.. الادراكي لديهم تتمثل بالآتي:

- يرى ايجابيات جماعته ولا يرى سلبياتها، ويرى سلبيات الجماعة الاخرى ولا يرى ايجابياتها.
- يرى جماعته على حق دائم والجماعة الأخرى على باطل دائم.
- يحمّل الجماعة الاخرى أسباب الفشل السياسي وخلق الآزمات، مع أنه شريك فاعل في خلقها.
- لا يعترف بخطئه.. فيقين الاحول عقل، ما يراه فقط وليس ما هو واقع.

وسياسياً، كان سبب هذا (الحول) هو بريمر بتشكيله مجلس الحكم على مبدأ (التثليث). ولأن الوضع النفسي في حينه كانت تحكمه (سيكولوجيا الضحية والجلاّد).. حيث الشيعة والكورد هما الضحية، والسنّة هم الجلاّد.. فان الامور تطورت الى احتراب طائفي سخيف وصل فيه عدد الضحايا في أحد أيام تموز 2007 مئة روحاً بريئة كان الفرد فيها يقتل لمجرد ان اسمه حيدر أو عمر أو سيروان.

ومن متابعاتنا "الفضائية" تبين أن في البرلمان افراداً مصابون بعصابيات مرضية. فمنهم من لديه ميول سادية، وآخر شعور بالمظلومية، وثالث يغلي في داخله برميل حقد.. وغالبيتهم يمارسون "الأسقاط".. أعني ترحيل عيوبهم ورمي الفشل على الآخر، والانشغال بالتنقيب عن رذائل المقابل وتنزيه نفسه مع ان فيه من الرذائل ما لا يقلّ عن صاحبه. ولهذا كان البرلمان مصدر احباط وتصعيد للتوتر بين الناس بدل ان يكون مصدر تطمين لهم. والواقع ان البرلمان العراقي لا يمثل الشعب بل هو نتاج البرانويا التي اشاعتها الشخصية السياسية، لدرجة ان جماهير الشيعة التي وصلت حد الجزع من سوء حالها الحياتي والخدمي (لحكومة شيعية).. صارت تأتي بسياسي طائفي قليل الخبرة لأنه نجح في اخافتهم بأنهم ان لم ينتخبوه فأن "السنّة" سيفنونهم.. وقل الشيء نفسه عن جماهير السنة.

وما يزيد من حماقة البرانويا السياسية انها اذا طبخت على نار الطائفية والعرقية صار شفاء أصحابها قريباً من المستحيل. وبالصريح المرّ فان الشخصيات السياسية العراقية الحالية غير قادرة على ان تقتلع شكوكها وتحسن الظن بالآخر، لان البرانويا برمجت خلايا ادمغتهم بثلاث عقد عبر الزمن: عقدة انتاج الخوف الموروثة من الماضي، وعقدة الرعب المعاش في الحاضر، وعقدة توقع الشر والافناء في المستقبل.. ونجم عنها، سيكولوجيا، ان حسابات الجميع صارت تستخدم آليات الربح والخسارة، في بيئة صراعية ليس فقط بين السياسيين المحسوبين على طائفة او قومية بل وبين كتل واحزاب الطائفة الواحدة والقومية الواحدة حتى لو كانت بحدود المليون فرداً!

والأثول، بالمفهوم الشعبي العراقي، هو الغبي الذي يكرر الخطأ ولا يعرف مصلحته. والمقصود به هنا.. جماهير الشيعة والسنة الذين شاركوا في الانتخابات التشريعية الثلاث، وتحديداً.. كل من انتخب مرشحاً للبرلمان لكونه ابن طائفته مفضلاً له على مرشح يحمل دكتوراه في الاقتصاد السياسي حتى لو كان ابن طائفته ايضاً، ولكنه من غير عشيرة.

واسخف حالة (للثول) الشعبي العراقي تلك التي جسدتها الحلقة السابعة من المسلسل المميز (سيلفي) بعنوان اقلاع اضطراري (مساء 2015/6/24)..

خلاصتها.. ان شابين يلتقيان صدفة في المطار.. فيحب أحدهما الآخر لأن كليهما يحبان اقامة العلاقات مع الفتيات الاجنبيات، والسهر والشرب. ويتباهى (ناصر القصبي) بأن له خبرة ممتازة في الانحراف والاماكن المشبوهة والمراقص.. تجعل صديقه ينبهر به.. فيقول له بانه مستعد للانحراف ومحتاج من يضعه على الطريق.. وهو يكمل الباقي.

يصعدان الطائرة.. يتحدثان.. فيسأل (ناصر) عن اسم صاحبه فيقول له: عبد النبي عبد الزهرة حسين، ويسأله عن اسمه فيجيبه: يزيد بن عمر.. ومن هنا يبدأ كلاهما بالهجوم على معتقدات الآخر.. وتسخيفها.. من زواجي المتعة والمسيار الى لقبي الروافض والنواصب.. وينتهيان الى عراك بالأيدي داخل الطائرة.

عند الهبوط.. يحتجزانهما في المطار ويبدأ المحقق الأجنبي معهما مستفسراً عن السبب.. فيخبره المترجم أنهما تشاجرا بسبب (الحسين ويزيد).. فيأمر المحقق باحضاره (حسين ويزيد) للاستجواب.. فيجيبانه بأنهما ماتا من 1400 سنة.. يندهش المحقق ويصدر ابلغ قرار:

يحالان الى مستشفى الامراض العقلية!

وتلك هي حال الوطن.. ضاع بين سياسي احول عقل ومواطن اثول.. وأخشى ان يأتي يوم يكون العراق، بسببهما، غير موجود على خارطة العالم.

عبدالكريم قاسم والطائفيون

موازنة أخلاقية

تهدف هذه المقالة الى تبيان الجوانب الاخلاقية للزعيم عبدالكريم قاسم ومقارنتها بأخلاق الحكّام الذين تولوا السلطة في الزمن الديمقراطي. ولا يعني ذلك تنزيهاً تاماً لقاسم.. فالرجل ارتكب أخطاء أساسية في مقدمتها شنه الحرب على الكرد عام 1961، ومعاداته لقوى وشخصيات عروبية، واستئثاره بالسلطة، وعداءه للحزب الشيوعي الذين أصر هو اصطناعه لحزب شيوعي بديل برئاسة داود الصائغ، فضلاً عن ان البعض يحمّله مأساة ما حصل لافراد العائلة المالكة، وان حركته كانت انقلاباً وضعت العراق على سكة الانقلابات، فيما يرى آخرون ان ما قام به كان ثورة، ويكفيه انه حررالعراق من حلف بغداد، وانجازه قانوني الاصلاح الزراعي والاحوال الشخصية، واصداره القانون رقم 80 الذي يعدّ الأساس في تأميم النفط العراقي.

الذي يعنينا هنا.. ما امتلكه عبدالكريم قاسم من أخلاق وما كان شائعاً منها في المجتمع العراقي في زمانه، وموازنتها بما يمتلكه حكّام هذا الزمان وما هو شائع منها بين العراقيين الآن، منطلقين من حقائق أساسية تتمثل اهمها في ان الاخلاق بوصفها منظومة قيم تحدد الاهداف وتوجّه السلوك، هي للمجتمع أهم من السياسة، وان رسالة النبي محمد كانت اخلاقية بالدرجة الاساسية (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق..) وقد خصه القرآن الكريم بقوله (وانك لعلى خلق عظيم) الغاية منها ان يقتدي الناس بأنموذج نبيهم.. قائدهم. فضلاً عن ان الفلاسفة والمفكرّين يتفقون على ان الاصل في تقدم المجتمع وتطوره هو نوعية اخلاقه، وكان احمد شوقي على صواب في قوله: (وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت... فإن هُمُو ذهبت أخلاقهم ذهبوا).

من هذه الاعتبارات.. نبدأ بتحديد اهم ما كان يمتلكه عبدالكريم قاسم من اخلاق وموازنتها بأخلاق المسؤولين الآن.

أولا:

كان اختيارالرجل لوزراء حكومته يقوم على وفق معاييرالكفاءة والخبرة والنزاهة، واعتماده مبدأ وضع الرجل المناسب في المكان المناسب في اغلب اختياراته.. مثال ذلك: ابراهيم كبة (اقتصاد)، محمد حديد (مالية) فيصل السامر (إرشاد) هديب الحاج حمود (زراعة) ناجي طالب (شؤون اجتماعية...) نزيهة الدليمي (بلديات).. وهي اول وزيرة في تاريخ العراق. واختياره عقلاً اكاديمياً عبقرياً لرئاسة جامعة بغداد التي تأسست في زمنه هو الصابئي المندائي الدكتور عبد الجبار عبد الله، برغم معارضة كثيرين.

اما في زمن الطائفيين فان معيار اختيار الوزراء كان الولاء للحزب والطائفة وان كان لا يمتلك خبرة. فوزارة العدل مثلاً تسند الى من تملك تلة طائفية وان لم يحمل مؤهلاًعلمياً، ولا تسند لحامل دكتوراه في القانون الدولي حتى لو كان من الطائفة ذاتها.. لكونه مستقلاً.

وكان العراق في زمانه.. دولة، فيما واقع العراق بزمن الطائفيين صار دويلات، بل ان كل وزارة في الحكومة هي دويلة لهذا المكون السياسي أو ذاك وكان عبدالكريم محبّاً للعراق ومنتمياً له فقط، ولهذا كانت المواطنة، بوصفها قيمة أخلاقية، شائعة في زمنه بين العراقيين، فيما انهارت بزمن الطائفيين، وصار الناس يعلون الانتماء الى الطائفة والقومية والعشيرة على الانتماء للوطن.. وتلك أهم وأخطر قيمة أخلاقية خسرها العراقيون وكان سببها الطائفيون.

ثانياً:

يمثل عبدالكريم قاسم انموذج الحاكم القدوة من حيث نزاهته. كانيعيشبراتبهولا يملك رصيداً في البنك. ولهذا لم يجرؤ في زمانه وزير أو وكيله أو مديرعام على اختلاس أو قبول رشوة أو التحايل على مقاولة. وما كان اهله او

اقرباؤه يحظون بامتيازات. فشقيقه الأصغر، لطيف قاسم، كان نائب ضابط في الجيش العراقي، وبقي بتلك الرتبة طيلة مدة حكم أخيه عبدالكريم قاسم.

اما الطائفيون فانهم يسكنون في قصورمرفهة ويتقاضون رواتب خيالية.. فوفقاً للخبير الاقتصادي ابراهيم المشهداني فان تخفيض رواتب المسؤولين الكبار حتى درجة مديرعام بنسبة 50% يوفر للدولة 14 مليار دولار سنوياً.! ولقد بلغت بهم الصلافة انهم يعارضون الدعوة الى تخفيضها بالرغم من مواجهة العراق لأخطر تنظيم في العالم، ووجود ثلاثة ملايين نازح يعيشون اوضاعاً قاسية بكت على حالهم الممثلة الامريكية انجلينا وما اهتز لمآسيهم شارب افضلهم.

وفي زمن الطائفيين، تحول الفساد من عار في زمن عبدالكريم قاسم الى شطارة، واصبح العراق ثالث أفسد دولة في العالم واول أفسد دولة في المنطقة، لدرجة ان المرجعية الموقرة وصفت الفساد في العراق بانه صارلا يقل خطراً على الارهاب وان في الحكومة (حيتاناً ولصوصاً). وبلغ المنهوب من ثروة العراق من قبل وزراء ومسوؤلين كبار ما يعادل ميزانيات اربع دول عربية، وراحوا ينعمون بها في عواصم العالم دون مساءلة. وصار رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء والوزراء يعينون ابناءهم وبناتهم مستشارين لديهم.. لا ليقدموا خبرة هم أصلاً لا يمتلكوها، بل ليحصل من هو في العشرين من عمره على راتب يعادل أضعاف راتب استاذ جامعي.. دكتور وبروفيسور.. بلغ الستين!

وبشيوع الفساد، وسكوت الحكومة عن محاسبة الفاسدين، برغم اعتراف رئيسها السابق (نوري المالكي) بأن لديه ملفات فساد لو كشفها لأنقلب عاليها سافلها – وفي هذا ادانة لأنه لا يمكن لحكومة فاسدة ان يكون رئيسها نزيهاً – فإن معظم الاخلاق الاصيلة في المجتمع العراقي قد انهارت.. وشاعت فيه قيم الانانية والانتهازية والنفاق، بأرذل صفتيه.. الكذب وخيانة الأمانة.

ثالثاً:

ما كان للرجل قصر أو بيت لرئيس الجمهورية. بل كان ينام على سريرعادي بغرفة في وزارة الدفاع. وكان يخالط الناس ويتجول بسيارته في شوارع بغداد.

يذكرعنه ان أحدهم كان يبيع الكبة في عربة صغيرة بشارع الكفاح يكنى (الحجي) وكان عبدالكريم يسلم عليه بيده من نافذة سيارته حين يأتي من الباب الشرقي الى مقر عمله بوزارة الدفاع في باب المعظم. وحدث انه لم يشاهد (الحجي) بمكانه ليومين، فأوقف سيارته في اليوم الثالث وطلب من مرافقه ان يسأل صاحب مقهى شعبية في فضوة عرب فأخبره ان (الحجي) مريض ونائم في بيته.. فطلب منه ان يذهب غداً الى بيته كي يقوم بزيارته وأداء الواجب.. وحصل ان (الحجي) حضر صباح ذلك اليوم ومعه عربته.. حياه عبدالكريم وقال له ملاطفاً:

– حمداً لله عالسلامة حجي.. بعدك شباب.

فأجابه:

سيادة الزعيم، اني من اسمعت جنابكم سأل عني، راح المرض مني وشفيت.

اما الطائفيون فان احدهم اذا خرج للشارع سبقه وتبعه فوج حماية بطريقة مهينة للمواطن. وهم عزلوا انفسهم لوجستياً بمنطقة مساحتها 10كم مربع محاطة بالكونكريت وبنقاط حراسة مشددة. وما حصل ان هذه (المنطقة الخضراء)..! سرقت أحلامهم وجلبت لهم الفواجع اليومية، وأوصلتهم الى أقسى حالات الجزع والأسى. ومن حالة الخذلان هذه نشأت سيكولوجيا العزلة عن الناس، ومنها نشأت حالة أخطر هي سيكولوجيا القطيعة النفسية.. بدأت من يوم انفرد أهلها بتحويل واقعهم الى حياة خرافية وترك من أوصلهم اليها يعيشون حالة البؤس والخوف والفجع اليومي. وتطورت القطيعة الى خصومة في اليوم الذي خرج فيه المخذولون (البنفسجيون) بتظاهرات كانت تحمل في البدء معاني العتب والتنبيه، ولما تأكد لهم انهم ما استجابوا وما خجلوا ولا حتى قالوا لهم (حقكم علينا).. عندها غصت ساحة التحرير في شباط 2011 بالجماهير تهتف (نواب الشعب كلهم حرامية).. فردت المنطقة الخضراء بأن اوفدت أحد (مناضليها) ليصعد على سطح العمارة المطلّة على الساحة ويعطي الاوامر بضربهم.. وربضت الدبابات على جسر الجمهورية خوفاً من زحف الجماهير للقضاء على سبب البلاء

والابتلاء.. الذي تجاوز مساويء السياسة الى الاساءة للدين وافساد القيم.. في حال أفضى الى اضعاف الضمير الاخلاقي ليغلق، بآلية نفسية، باب الشعور بالذنب ليفعل صاحبه ما يشاء وسط آخرين يهونون عليه الأمر برؤيته لهم يتفننون ويتشاطرون في فعل الشيء نفسه.. وآخرين يخرّجونها دينياً بأن (الضرورات تبيح المحظورات!). وبضعف الوازع الديني وهروء الضمير الأخلاقي عند السياسي، يكون قد غيّر سكّته الى حيث الرفاهية الشخصية التي تغريه وتنسيه بؤس الناس وحاجتهم اليه، الى الدرجة التي صار فيها العراقيون يصفون أهل المنطقة الخضراء بأنهم (مسحوا آخر قطرة حياء من جباههم) لانشغالهم بمصالحهم وعدم اكتراثهم حتى بعراء الأطفال في ثلج الشتاء!.. وقيظ تموز.. بالرغم من انهم هم السبب.

رابعاً:

في العام 1959 منح العراقيون عبدالكريم قاسم لقب (أبوالفقراء..) لأنه بنى مدينة الثورة لساكني الصرائف في منطقة الشاكرية، واكثرمن 40 مدينة جديدة وعشرات المشاريع الاروائية.. فاحتل قلوب معظم العراقيين وراح بسطاء الناس ينسجون عنها الأساطير.. بينها أنهم رأوا صورته في القمر. وأغلب الظن ان العراقيين سيلعنون معظم حكامهم الطائفيين بعد مماتهم.

وتبقى حقيقة سيكولوجية: لو ان بين الطائفيين من كان قريباً في أخلاقه من عبدالكريم قاسم.. لاكتفى العراقيون بذكره الطيب ولما بقي يحتل قلوبهم لنصف قرن.. ولكنهم كانوا ضده النوعي السلبي في الأخلاق.. لأبعد مدى.

داعش تفهمنا أفضل مما نفهمها!

أهم مبدأ لمن يريد ان ينتصر في الحرب هو (إعرف عدوك).. ويعني تقييمك بشكل موضوعي لجوانب القوة لديه: فنونه القتالية، معتقداته الفكرية، خبراءه ومستشاريه، روحه المعنوية وقدرته على التحمل والمطاولة. وبسبب تفريطنا بهذا المبدأ.. كانت نكبة الخامس من حزيران 1967 في مصر.. ونكبة العاشر من حزيران 2014 في العراق.

الحالة تشبه تماماً مباراة كرة قدم للفوز بالكأس، فمن يفهم كيف يفكر مدرب الفريق الآخر وكيف يتعامل مع جوانب القوة في الفريق الخصم، فان احتمال الفوز يكون له.. ويحصل ان يكون الفريقان متكافئان في كل شيء باستثناء ان أحدهما استثمر عاملاً علمياً.. خبير سيكولوجي مثلاً.. فيكون له الفوز.. وقد حصل.

وبالصريح، فانه لا الحكومة ولا معظم العامة من الناس يفهمون داعش على حقيقتها. بل ان الحكومة مارست التضليل من يوم وعدت بأنها ستحرر الموصل في الصيف فصار الحال على طريقة مظفر النواب (والصيف اجانه وانكضى ورد صيف اجه.. والزلف هجرك فضضه ورد فضضه ومامش رجا).. حتى صار الناس يخشون على (الرجا) ان يذهب مع الريح.

ساقول حقائق صادمة، اولها: ان المقاتل الداعشي يمتلك معتقدا اقوى من الذي يمتلكه المقاتل العراقي، نوضحه علمياً بأن كلّ المنتحرين يقدمون على الانتحار اخلاصاً لمعتقد يؤمنون به. ولا اختلاف، في الفعل، بين الطيارين اليابانيين الذي انتحروا بضربهم البارجات الأمريكية الحاملة للطائرات وتفجيرها بطائراتهم في ميناء بيرل هاربر.. وبين انتحاري داعشي.. فالفعل هو انتحار، والفرق يكمن

في نوعية المعتقد الذي يدفع صاحبه الى الانتحار. فهو عند الطيارين اليابانيين كان من أجل الوطن.. فيما هو عند الانتحاري الداعشي أحد أمرين: اما الحصول على امارة في الدنيا أو الفوز بالجنة.. فيما المقاتل العراقي لا يمتلك معتقداً موحداً، ويشعر بأن كل مكون في الحكومة يعمل لتأمين بقائه في السلطة ومصادر الثروة.

والثانية الأهم.. اننا نفهم داعش كما لو كانت امتدادا للقاعدة، ونتعامل معها كما لو كانت عصابة أو افراداً منحرفين.. وانهم جرذان.. جبناء.. واننا سنرمي بهم خارجاً كما وعد سلفنا برمي اسرائيل بالبحر. والحقيقة هي ان داعش تمتلك مقومات الدولة المتمثلة بالأرض والسكان والثروة والقوة. فهي لديها ثروة نفطية قدرتها مؤسسة (راند) بمئة مليون دولار من النفط العراقي لعام (2014)، وستمئة مليون دولاراً من الابتزاز، زائداً مثلها نهبتها (داعش) من البنوك العراقية، فضلاً عن هبات عربية وأجنبية. وأنها استطاعت بفنونها في الحرب النفسية، واستقطابها لخبرات تقنية من مئة دولة وصلت نسبتهم الى 66% مقابل 44% ان تستولي على مدن عراقية بسرعة قياسية ما حدثت حتى في تاريخ عاصفة الصحراء 2003 يوم استبسلت مدينة أم قصر وظلت صامدة اياماً امام نخبة المقاتلين في الجيش البريطاني وطيران التحالف الدولي.

ولدى داعش شبكة من السماسرة يقومون لها بترتيب البيع والمقايضة.. بل انها تبيع الغاز والنفط لبعض المراكز الحكومية في سوريا لتشغيل محطات الكهرباء، ولديها من هو مكلف بجباية الاموال من قطع الطرق وتحصيل رسوم على الشاحنات العابرة، وفرض الضرائب والمكوس على الاهالي.. ولها محاكمها وشرطتها ومتطلبات أخرى بما يجعل الحياة في المدن التي تسيطر عليها وكأنها عادية. فضلاً على أنها تتحكم في توزيع الانترنت وتستثمره بشكل مؤثر وفاعل.. ما يعني ان علينا مغادرة فكرة مقارنة داعش بالقاعدة بوصفها مجاميع من أفراد بلحى كثة وشعر طويل، والتعامل معها كما لو كانت دولة تتفوق علينا في عدد من الامور القتالية والعوامل السيكولوجية.. وهذا ما لم يحصل لحد الآن.

أحد أسباب هذه المشكلة ان سيكولوجيا السلطة في العراق علّمت المسؤول ان يحيط نفسه بمستشارين يقولون له ما يحب ان يسمعه، فيما علّمته الآن ان يحيط

نفسه بطائفيين لهم نفس النمط من التفكير. واكاد اجزم ان المسؤولين في مواقع اتخاذ القرار لا يقرأوا ما يكتبه مفكرون واكاديميون في جريدة (المدى) وجرائد معتبرة أخرى بما فيها جريدة (الصباح). ففي مقالنا المنشور فيها بعنوان (سيكولوجيا الشائعة 2 أيار 2015) أشرنا فيه الى ان الاعلام العراقي بحاجة الآن الى دعاية من نوع جديد. وكما تشكل غرفة عمليات عسكرية يجب ان تشكل غرفة دعاية اعلامية يجيد صناعتها عقول متخصصة في الاعلام وعلم النفس والاجتماع من المستقلين سياسياً وغير المحسوبين على السلطة.. تمتد نشاطها الى اجراء بحوث ميدانية سريعة تستقرأ الحالة النفسية للشارع العراقي والجندي العراقي، وتنتقي وجوهاً جديدة تتمتع بالرصانة والمصداقية والحب الصادق للعراق وأهله، وتتعامل مع الحدث بما يبطل قوانين الاشاعة التي نجحت داعش بتوظيفها بطريقة غير مسبوقة. وكان السيد العبادي قد حذر في نيسان 2015 ان العراق يتعرض الى حرب نفسية شرسة. وانطلاقاً من مسؤوليتنا الوطنية وحرصنا على أهلنا والوطن وادراكنا لفشل الحكومة والاعلام العراقي في إدارة الحرب النفسية.. بادرنا بتشكيل فريق علمي متخصص بالحرب النفسية وسيكولوجيا الاشاعة.. وقدمنا العرض.. ولا أظن مكتبه قد قرأه. والمفارقة ان السيد همام حمودي دعا الآن! (26 حزيران 2015) "لانشاء جيش اعلامي الكتروني لفضح أساليب داعش أمام الرأي العام العراقي والعربي والعالمي".. وقد ينشئوه.. ولكن من جماعات لها نفس النمط من التفكير.

وثالثة الحقائق، ان لداعش رصيد في دول الخليج أقوى من رصيد العراق.. فيما سفاراتنا هناك مشغولة باحياء مناسبات دينية بعضها طائفية خالصة.. تقدم من حيث لا تدرك دعماً لمعتقدات داعش وتكسبها انتشاراً شعبياً بين شعوب دول الخليج.

ليس هذا فقط، بل اننا لم نستثمر نقطة ضعف كبيرة في داعش تلك هي ان المسألة الحاسمة في الفكر الداعشي هي (التكفير)، اذ يرى ان تفسير القرآن والسنة النبوية بكلام الفقهاء بدعة ابعدت الناس عن معرفة الحقيقة التي جاء بها القرآن.. ويتبنى هذا الاتجاه جمال الحمداني (ابو نوح قبر العبد) وجماعته المنتشرة في الجزيرة

والقرى بين الحدود العراقية والسورية.. التي تكّفر من لا يقول بمثل قولها، فيما هنالك جماعة أشد غلواً يمثلهم ابوعلاء العفري نائب البغدادي، لا يعذرون بالجهل مطلقاً.. حدثت بينهم ومجموعات اخرى خلافات تجاوزت الطرد والتسفيه الى التصفية الجسدية، بينهم قاضي داعش التونسي ابوجعفر الحطاب الذي كفرته وقتلته، وقبله تمت تصفية قاضيها السابق الكويتي (ابوعمر الكويتي) الذي كفر البغدادي. وقد ادى مسلسل التكفير الى قتل 18 قائداً من أصل 43 من قيادات الصف الأول خلال (حزيران 2014 – نيسان 2015)، ما يعني سيكولوجيا ان الدوغماتية تتحكم بالتفكير الداعشي وانها استقطبتها على جماعات. ولأن الدوغماتي ينظر الى الأمور الجدلية على انها ابيض واسود فقط، ومنغلق ذهنياً على معتقدات جزمية، ولن يتخلى عن آرائه حتى لو بدا له خطؤها، فان هذا يعني ان هنالك خطراً كبيراً يتهدد داعش من الداخل.. وهذا هو المفقود الفكري الذي لم يتم التفكير به اصلاً في مواجهتها.. فيما عرفت داعش كيف تستثمر الفكر الدوغماتي الطائفي وتحرز به انتصارات.. ما يعني ان داعش تفهمنا اكثر مما نفهمها، وانه ما لم يتم التخلي عن طريقة تفكيرنا التقليدية في التعامل معها، ونعمل على استقطاب طاقات المفكرين والاكاديميين المستقلين، فاننا قد نبقى في قضيتنا مع داعش نردد مع مظفر.. "والصيف اجانه وانكضى ورد انكضى.. ومامش رجا".

العالم العربي.. الى أين؟!

تحليل سيكوبولتك

يستند تحليلنا هذا بخصوص اتجاهات الاحداث في منطقة الشرق الأوسط، وفي المركز منها.. العراق، الى ثلاثة تقارير عالمية صادرة من جهات تخصصية تعتمد على مصادر علمية ودوريات متخصصة وتقارير دولية ومحلية، هي:

- مؤشر السلام العالمي لمعهد الاقتصاد والسلام الدولي.
  Global Peace Index 2014
- اطلس المخاطر السياسية لعام 2014 لمؤسسة Maplecroft
- مؤشر الدول الهشة لعام 2014 لصندوق السلام Fragile States Index

تتفق هذه التقارير على ان (الأسوأ قد حصل فعلاً).. وان الشرق الأوسط اصبح المنطقة الأكثر عنفاً سياسياً والأشد خطراً والأقل سلماً واستقراراً على صعيد العالم، وانها سوف تستمر، لزمن غير منظور، في انتزاع مرتبة اقل مناطق العالم سلما بعد موجات العنف المتصاعدة والاقتتال الداخلي. وتخلص الى ان مقارنة اوضاع دول منطقة الشرق الاوسط وبقية الاوضاع في العالم تشير الى ان المنطقة باتت اكثر خطراً واقل سلماً واقل استقراراً عن مناطق كانت تحتل هذه المرتبة المخيفة مثل افريقيا جنوب الصحراء وجنوب آسيا على وجه الخصوص. ووفقاً لـ (مؤشر السلام العالمي) الذي يصدره معهد الاقتصاد والسلام العالمي في استراليا، فانه يحدد الدول (الأقل سلمية) في المنطقة بكل من: سوريا، العراق، السودان، اسرائيل، ايران، ليبيا، اليمن، مصر، ولبنان.. بوصفها المناطق الأكثر خطراً في العالم.. مستنداً في ذلك الى عشرة مؤشرات خاصة بأمن وسلامة المجتمع، منها: معدلات الجريمة، النشاط الارهابي، التظاهرات العنيفة، العلاقات مع

الدول المجاورة، استقرار الوضع السياسي، الانفاق العسكري من النـاتج المحلي الاجمالي.. وأخرى تخص الوفيات الناتجة عن جرائم القتل والنزاعـات المسـلحة، والنزاعات داخل الدولة وبينها ودول اخرى.

ويعزو تقرير (مؤشر السلام العالمي) أسباب تراجع معدلات السلم الى موجة العولمة التي نبهت الاقليات الى ضرورة حصولها على ما حرمت منه من مكاسب لم تتمتع بها في دول الشرق الاوسط، ودور وسائل الاتصال الجماهيري والانترنـت التي عززت مطالب شرائح واسعة من مواطنين كانت تقابل بتجاهل الحكومـات العربية بشكل خاص، وتداعيات ما بعد (ثورات الربيع العربـي) التي خيبت آمال الناس وجاءت بنتائج عكسية.

وتشير (تشارليت انجام) محللة المخاطر السياسية بمؤسسة (مابلكروفـت) الى تصاعد العنف الاجتماعي والصراع السياسي في دول (الثورات) العربية التي مـا تزال تلقي بظلالها على المنطقة، وانها حولت الشرق الاوسط الى اكثر مناطق العالم خطورة في عام 2013 والربع الأول من عام 2014. فبعد ان كانت سوريا تحتـل المرتبة رقم 69 عالمياً على مؤشر المخاطر السياسية في عام 2010، صـارت تحتـل المرتبة الاولى في عام 2014، وأن ترتيبها لا يعكس فقط حجم وحـدّة الصـراع الذي أودى بحياة ما يزيد عن 150 الف ضحية لغاية آذار 2014، بل يعكس ايضاً التفكك الذي حصل لمكونات المجتمع السوري، فيما جاء العراق بعد سـوريا في المنطقة. فوفقاً للتقرير شهد العراق 3278 حادثة ارهابيـة ادت الى مقتـل 6034 شخصا واصابة 15023 آخرين منذ مطلع 2008 وحـتى نيسـات 2014، مـع ملاحظة انه من اجمالي هذه الحوادث الارهابية واعداد الضحايا فان 2155 حادثـة ارهابية وقعت خلال العام الاخير (مايس 2013 الى مايس 2014) اسـفرت عـن مقتل 2836 شخصا واصابة 7850 وهو ما يكشف عن تصاعد نسـبة الحـوادث الارهابية وحجم الخسائر البشرية من قتلى وجرحى بنسبة تقارب 50% خلال عام واحد.

ويشير التقرير الى ان سوريا انتزعت من افغانستان لقب اقـل دول العـالم سلمية لتأتي في المركز 162 على مستوى العالم والمركز 19 (آخر دولـة) علـى

مستوى الآقليم، فيما يأتي العراق بالمركز 159 عالميا والمركز 18 (ثاني اخطر دولة) على مستوى الأقليم.

ولأن التقرير اعد قبل سقوط الموصل بيد داعش في العاشر من حزيران 2014 فانه لم يتطرق الى الجرائم الارهابية البشعة التي ارتكبها التنظيم (سبايكر، سنجار، الرمادي..) ونزوح ما يقرب من مليوني رجل وطفل وامرأة موزعين على اكثر من 1780 موقعاً في العراق، ولا الى ما حصل في سوريا بعـد وصـول داعـش الى كوباني.. عين العرب من قتل ونزوح مئات الآف اضافية من السوريين.

لا تعنينا هنا الارقام التي صار ذكرها نوعاً من التكرار بقدر ما يعنينـا مـا يحصل للمجتمع والدولة والاقتصاد من تغيرات ستتحكم بمسـار الاحـداث في الشرق الاوسط. فالذي يتمعن في نتائج هذه التقارير العالمية الرصينة يخلص الى ان (الدولة) أصبحت عاجزة عن القيام بوظائفها الاساسية، وان محاولات اعادة بنـاء الدولة في معظم دول الثورات العربية أضحت متعثرة، وان هيبتها او مكانتها قـد تعرضت الى تصدع في عدد من الدول العربية (سوريا، العراق، اليمن، ليبيـا، بشكل خاص)، وان العلاقة بين الدولة والمجتمع قد تخلخلت، فيما احدث الصراع السياسي على السلطة والثروة عنفا مجتمعياً واحترابا مذهبياً، ودينياً، وعشائرياً، بين المكونات الاجتماعية.

ونشير من جانبنا، وهذا ما لم تتطرق اليه التقارير الدوليـة الثلاثـة، الى ان المجتمعات العربية تتحكم بها العصبية القبلية وعصبيات أخرى بعضها على شـكل تحالفات قبلية توحدها قيم دينية، واخرى تحالفات تمثل شلة سياسـية.. ادت الى ظهور (دويلات) عرقية او طائفية او تنظيمات دينية متطرفة.. كما هو الحـال في لبنان وسوريا والعراق باحزابه الدينية التي صار لكل واحد منها مليشيا او تنظـيم مسلح.. تفضي كلها بالنتيجة الى قوة الولاءات للهويات الفرعية علـى حسـاب الولاء السياسي للدولة وهوية المواطنة.

من جانب آخر.. استطاعت القبيلة ان تقف بوجه الدولة لاسيما في الانظمة القمعية البوليسية التي يهيمن عليها حزب واحد كما هـو الحـال في السـودان وسوريا.. ما يعني ان معظم دول الاقليم العربية التي دفعها فشلها في تأمين حيـاة

كريمة للمواطن وتحقيق اهداف تنموية اجتماعية.. اعتمدت على دول خارجية تمنحها الشرعية مقابل تحقيقها مصالح اقتصادية واستراتيجية.

لقد كشف تقرير (مؤشر الدولة الهشة) الصادر في تموز 2014، وتقرير (صندوق السلام) الصادر عن منظمة امريكية تعنى بمنع النزاعات، بالتعاون مع مجلة (فورين بوليسي – السياسة الخارجية) عن ان غالبية دول الشرق الأوسط تدخل ضمن فئة الدول الهشة التي تعاني من: اضطرابات سياسية وامنية ومجتمعية، واستمرارية أوضاعها المتدهورة، عدم حصول فيها المواطن على كامل حقوقه فضلاً عن استمرار معاناته وفقره، لاسيما في العراق، واليمن، وسوريا، والسودان.

واللافت ان تقرير (صندوق السلام) وصف العراق بأنه ما يزال في دائرة الخطر والفشل في ظل ما يعيشه من أحداث أمنية خطيرة وغياب حكم القانون والنزوح السكاني وهجرة العقول البشرية.

من جانب آخر، كشفت التقارير الدولية الثلاثة عن تراجع الثقة الاقتصادية في الشرق الأوسط. فباستثناء دول مجلس التعاون الخليجي فان منطقة الشرق الأوسط استمرت في تحقيق مؤشرات منخفضة للثقة الاقتصادية، ما يعني ان مواطني هذه الدول غير راضين عن واقعهم المعيشي، وانهم لا يثقون باوضاع بلدانهم الاقتصادية في الحاضر وفي المستقبل، فضلاً عن ان هذه البلدان اصبحت اقل جذباً للأستثمارات لانعدام الأمن الاقتصادي فيها. علماً بأن هذه التقارير اعدت قبل الانخفاض السريع وغير المتوقع حيث وصل سعر البرميل الى اقل من ستين دولاراً مطلع العام الجديد 2015، وقد يصل الى ما دون الاربعين في غضون ثلاثة اشهر.

ويخلص تقرير (مؤشر الدول الهشة) الى ان غالبية دول الشرق الأوسط تأتي في مقدمة الدول التي تتجه نحو مزيد من عدم الاستقرار، خصوصاً في: سوريا، العراق، اليمن، ولبنان.. التي ما تزال حكوماها غير قادرة على اداء وظائفها السياسية.

ومع رصانة هذه التقارير في تحليلاها السياسية والاقتصادية، فانه يؤخذ عليها انها اغفلت العامل السيكولوجي، لاسيما العقل الجمعي للشعوب العربية، المشحون بالماضوية الذي كنّا وصفناه بأنه (مخدّر وخالق اوهام ومثير فتنة). ولم يلتفت معدّو

هذه التقارير، وغالبيتهم المطلقة أجانب، الى ان (التعصب) القبلي والعرقي والمذهبي الطائفي.. بين مكونات المجتمعات العربية له الدور الأكبر في النزاعات المجتمعية، وفي الصراع بينها وحكومات هذه الشعوب. ولهذا، فنحن لسنا مع توقع تلك التقارير بأن مستقبل الشرق الأوسط ستبتان معالمه بعد سنتين من الآن، فيما توقعنا القائم على منظور علم النفس والاجتماع السياسي يشير الى ان النزاعات والصراعات في الشرق الأوسط ستزداد حدة، وانه ليس بامكان هذه المؤسسات ولا الخارجية والمخابرات الامريكية تحديد مسار الشرق الأوسط.. الى اين.. الى ان تتعب هذه الشعوب من نزف الدماء.. ويقوى تيار وعي يأتي بحكومات تعيد بناء دولة المواطنة والمؤسسات المدنية.. يحتاج الى زمن يزيد عن المدة التي توقعوها بسنين!

حدث هذا في بغداد بعد كذا سنة!

أقامت السفارة الأميركية بالمنطقة الخضراء حفلاً حضره سفيرا بريطانيا وفرنسا ووزير خارجية إسرائيل وممثلون عن الاتحاد الأوروبي وعدد من كبار المسؤولين الأجانب والعرب ومن دول الجوار، وكانت المناسبة توزيع الجوائز على الذين ساهموا في تقسيم العراق.

وكما يجري في تصنيف الأوسكار حيث هنالك جوائز بطولة وأخرى بطولة مساعدة، فقد كانت هنالك جوائز ضخمة وأخرى أقل ضخامة وفقاً لمعايير وضعتها لجنة متخصصة في الاستخبارات الأميركية والبنتاغون، تضم أيضاً خبراء بريطانيين وإسرائيليين. ولوحظ وجود غرفة زجاجية مظللة قالت لنا (العصفورة) أنها تضم وجوها سياسية عراقية معروفة بأزياء مختلفة بينهم أفندية ومعممون ولابسو شماغات وغتر، ووجوها أخرى غير معروفة بينهم شباب من الجنسين.

افتتح الحفل السفير الأميركي بكلمة جاء فيها: إن فكرة تقسيم العراق كانت حاضرة في عقل الإدارة الأميركية منذ نصف قرن. وبناءاً على نصيحة من خبراء سيكولوجيين فإنها بدأت أولاً بإشارات عابرة كي لا تثير حفيظة معظم العرب ممن كانوا يعدّون العراق بوابتهم الشرقية.

ولأن العراقيين كانوا وقتها موحّدين ويشعرون بالاعتزاز والتباهي والافتخار بوطن يعدّونه مهد الحضارات الأولى في التاريخ، وأنهم كانوا قد جعلوه فعلا "مقبرة للغزاة" وعذراً لأنه صار الآن مقبرة لهم.

غير أن عام 1990 شهد أول خطوة عملية لتنفيذ الفكرة، بأن أوعزنا لسفيرتنا في العراق، التي قدمناها فيما بعد قرباناً لأميركا، أن تلتقي بصدام وتعمل بتوجيهات خبرائنا علماء النفس الذين حللوا شخصية صدام، فأوحت له بما فهمه

أن أميركا لا تعارض إن دخل الكويت.

وكنا حبكنا سيناريو يستفز عقليته العشائرية وشخصيته النرجسية وولعه بالتحدي والطموح اللامحدود، ففعلها ودخل، وبدخوله تحولت الفكرة إلى واقع على الأرض وموضوع على مائدة السياسة، بعد أن نجحنا في تغيير مواقف العرب الجيران من بقاء العراق بوابتهم الشرقية، إلى الرغبة في تقسيمه ليتخلصوا من شرّه. وبهذه المناسبة التاريخية يتوجب عليّ أن أشير إلى ملاحظتين:

الأولى، ليس كل الفائزين بجائزة توزيع تقسيم العراق هم من المتعاونين معنا، أو "عملاء أميركا" بلغة الآخرين، فبينهم من ليس متعاطفاً معنا ومن يجاهر بعداوته لنا، ولكننا درسنا شخصية كل واحد منهم ونجحنا في وضعه على السكة، واقتصرت مهمتنا بعدها على دفعه باتجاه تحقيق الهدف.

والثانية، ليس كل الفائزين حاضرين الآن، فبينهم من لا نريد كشفه لدور قيادي ينتظره.

وأضاف السفير موضحاً، إننا مدينون إلى الرئيس الأميركي جورج بوش الابن الذي استطاع، بعد أن عرفنا كيف نشحنه، أن يحشد العالم ويشن هجوما كاسحاً كسر ظهر الدولة العراقية وأطاح بمؤسساتها العسكرية والاقتصادية، وفرض حصاراً اقتصادياً وعلمياً وثقافياً جعل معظم علماء ومفكري وعقلاء العراق يغادرونه إلى بلدان منحتهم جنسياتها ليستقروا فيها ويعيشوا بحرية وكرامة افتقدوها في وطنهم، فيما الذين بقوا هم غالبية تعيش حالة البؤس والعجز. كنا نعلم أنها ستولّد لديهم الكره لواقع لا يطاق، يتحول لا شعورياً إلى كره للعراق، ويضمن لنا أنهم سينتخبون من سيعمل على تحقيق هدفنا ونحن من فعله بريئون.

ولأننا نعرف أن العراقيين انفعاليون وعاطفيون، فقد أوعزنا إلى حاكمنا بول بريمر أن يتعاطف مع الشيعة، فيما أوعزنا إلى سفيرنا زلماي خليل زاده أن يتعاطف مع السنة.. فكان أن منح الشيعة الحاكم بريمر لقب "أبوحيدر" فيما منح السنة سفيرنا زلماي لقب "أبوعمر"، وكان منحهم هذا قائماً على سيكولوجيا الضحية التي عاشها الشيعة زمن الدكتاتورية، ويعيشها السنّة زمن الديمقراطية، وكان علينا أن نمضي أكثر ما دام الباب قد انفتح على التقسيم.

كان الأمر يحتاج إلى تصعيد، ذلك أن خبراءنا السيكولوجيين أفادونا أن الشيعة والسنّة ينّحون جانبا ما بينهم من خصومات وعداوات، ويتوحدون أمام من يعدّونه محتلاً كما حصل يوم زار القائد العسكري البريطاني ''لجمن'' قبيل اندلاع ثورة العشرين، المرجع الديني الشيرازي في النجف وعرض عليه أن يأتيه بمفاتيح روضة الإمامين في سامراء من السّنة ويعطيها للشيعة، فرفض الشيرازي وعاد ''لجمن'' خائباً ليحرّض الشيخ ''ضاري'' قائلاً: ''كيف تطيعون فتوى الشيرازي وهو مرجع للشيعة''؟ فأجاب الشيخ ضاري: ''والشيرازي مرجعنا أيضا''.

كان علينا أن نُدخل طرفاً ثالثاً يتولى هذه المهمة، وكان هذا الطرف حاضراً، إذ أننا كنّا فتحنا حدود العراق حين دخلناه في 2003 وفسحنا المجال للإرهابيين في العالم بأن يتوجهوا إليه، فجاءوا من كل البلدان بما فيها أفغانستان ودول أخرى لا تخطر على بال مثل فرنسا وإيطاليا وألمانيا واستراليا وهولندا.

وحدث احتراب طائفي عنيف لسنتين حوّل التقسيم من فكرة سياسية وحالة اجتماعية نفسية، إلى حقيقة على الأرض، وبحصولها أنهينا (الزرقاوي) الذي أتم المهمة.

ولقد أفادنا خبراؤنا بعلم الاجتماع بنصيحة ذهبية: علينا أن نوظّف المعطيات الديمغرافية والتاريخية للعراق، ونستحضر تجربة تفكيك الاتحاد السوفياتي وتقسيم يوغسلافيا وتوظيفهما في جغرافيته البشرية لخلق أزمة سوسيولوجية للعراقيين، وأردفوها بنصيحة ماسية: إذا أردتم السيطرة على مجتمع ما، عليكم باستهداف قيمه الأخلاقية.

ولقد وجدنا ضالتنا في أشخاص انتخبتهم جماهير لا على معيار الكفاءة والنزاهة، بل الانتماء العشائري والطائفي والقومي. ولأنهم كانوا محرومين ولهم شراهة للثروة فإنهم بدأوا خطواتهم الأولى في الفساد المالي على وجل واستحياء، ثم تشجعوا حين وجدوا أن وزراء ومسؤولين كبار سرقوا المليارات وهربوا بها إلى أميركا وبريطانيا وهم محميون. عندها شاع الفساد وصار عند العراقيين شطارة بعد أن كانوا يعدّونه خزياً، وبه تمت خلخلة المنظومات القيمية الأخلاقية في

المجتمع العراقي، لتكتمل عوامل التقسيم، سياسياً واجتماعياً ونفسياً ولوجستياً، وإيصال العراقيين إلى الحالة التي أفادنا بها خبراؤنا السيكولوجيون بأن نجعلهم يدركون أن العراق صار أشبه بالباخرة (تايتنك)، وأنهم إن بقوا فيها سيهلكون، ما يجعلهم في الأخير يقبلون جميعا بالتقسيم، وسارت الأمور بأكثر مما كنّا نتوقع كما تلاحظون.

وقبل أن نبدأ توزيع الجوائز التي سيشاركني فيها وزير خارجية دولة إسرائيل والسفير البريطاني وشخصية أخرى سيعلن عنها في حينه، نود أن نشير إلى أن المنفّذ الأكبر الذي وافق على إعلان اسمه بالفوز هو ''أبو بكر البغدادي'' الذي كنّا أعددناه نفسياً لهذه المهمة باعتقالنا له أربع سنوات خرج منها مشحوناً بروح الحقد ودافع الانتقام، بعد أن درسنا شخصيته مذ كان صبياً يلعب كرة القدم في شوارع مدينة ''الطوبجي'' ببغداد، إلى حصوله على شهادة الدكتوراه من الجامعة الإسلامية، وقد أدى المهمة بشكل يفوق التوقع.

السادة الوزراء والسفراء وممثلو من يعنيهم الأمر:

إن إنهاء الروح التي توحّد العراقيين بالانتماء إلى العراق، هو الضمانة الأكيدة ليكتب التاريخ عندها، كان هنالك وطن اسمه العراق. ومع أننا مطمئنون إلى أن من صاروا مؤثرين في العملية السياسية ساروا في طريق تبادل التهم التي تباعد فيما بينهم، وأننا أعددنا من سيتعاونون معنا، لكنني لا أخفيكم خشيتي من العراقيين. فحين دخلت قبل أيام صحبة مترجمي إلى كنيسة في الكرادة، رأيت امرأة بعباءة قد أشعلت شمعة ووقفت أمام السيدة العذراء، تتوسل إليها وهي تبكي ''مريمانه.. بجاه أبو الحسنين عليج.. رديلي ابني''، وما زاد من خشيتي أنها ختمت دعاءها قائلة ''تعالوا قسّموا قلبي ولا تقسّموا العراق''.

القسم الثاني

بعيداً عن السياسة..

قريباً من الناس

الشخصية العراقية.. والتباهي بالحزن

الحزن (Grief) من أقدم الانفعالات والمشاعر التي رافقت الحياة الإنسانية. ففي قصة تكوين الخلق، أغوى الشيطان حواء وآدم ليأكلا من ثمار الشجرة المحرمة، فأمرهما الله سبحانه بالخروج من الجنة، فتملكهما حزن شديد على ما حلّ بهما.

ويذكر لنا التاريخ أمثلة كثيرة مشابهة عن حالات حزن عميقة أنهكت أصحابها وجعلتهم في حيرة فلسفية أمام مآسي الحياة من بينها: حزن جلجامش على موت صديقه أنكيدو، وحزن النبي نوح على غرق ابنه، وحزن النبي يعقوب على ولده يوسف، وحزن الخنساء على موت اخوتها. والأمثلة في ميدان الأدب لا تقل أهمية وعمقا وانفعالاً، سواء في الدراما الإغريقية والشكسبيرية، أو في الروايات والقصص الإنسانية، أو في أشعار قيس ليلى والمتنبي والمعري والسياب.

غير أن الحزن يتخذ صفة أكثر تحديداً من الناحية المفاهيمية، إذ يعدّ انفعالا وعاطفة بشرية تنتاب معظم الناس في المجتمعات كافة حين يتعرضون الى أزمة أو فاجعة كفقدان شخص عزيز أو صدمة نفسية تسبب معاناة ذاتية، أو الشعور بمعاناة الآخرين حين تصيبهم الكوارث لاسيما الزلازل أو الأعاصير المدمرة، أو خسران لأشياء لها قيمة مادية كبيرة أو اعتبارية أو اجتماعية مهمة.

سنركز في هذا الموضوع على الحزن الناجم عن فقدان الفرد لأحبائه، بوصفه الحزن الأكثر تغلغلاً في النسيج العراقي، والأكثر شيوعاً في مآتمنا وحتى في أغانينا، نبدأه برؤية نظرية سيكولوجية للحزن، ثم في بحث ميداني لعيانات عراقية.

التشريح النفسي للحزن

يصنف الحزن واحداً من الانفعالات الرئيسة في الحياة الإنسانية. والانفعال Emotion – بتشريح سيكولوجي – إحساس أو مشاعر أو وجدان ينجم عن تفاعل عوامل متعددة أبرزها ستة، هي:

- التقويم المعرفي Cognitive appraisal. ويعني تفسير الفرد للحدث المسبب للحزن، وتقديره للمعنى الشخصي المتعلق بالحدث، وللحالة الراهنة التي هو فيها.
- الخبرة الذاتية Subjective appraisal وتعني الحالة الوجدانية ونوعية الأحاسيس التي تلوّن الخبرة الشخصية للفرد.
- التوجهات التي تحكم الفكر والفعل Thought and action tendencies وتعني الحاحات الفكر أو الفعل للتصرف بطريقة معينة.
- التغيرات الجسمية الداخلية Internal bodily changes وتعني الاستجابات الفسيولوجية وبخاصة المتعلقة بالجهاز العصبي الذاتي من قبيل، تسارع نبضات القلب وزيادة النشاط الغدّي.
- تعابير الوجه Self expression وتعني ما يطرأ على الشفتين والعينين وبشرة الوجه من تغيرات.
- الاستجابة للانفعال Responses to emotion. وتعني كيف ينظّم الفرد ويتعامل مع انفعالاته في المواقف التي تقدح زنادها.

والانفعال، بوصفه حالة داخلية، تقرره – بدرجة أكبر – طبيعة الحياة النفسية والمزاجية للفرد، وسماته الشخصية، وتجاربه الحياتية عبر الزمن الذي عاشه، ووجود أو انعدام تجارب مماثلة عن الوفاة كانت قد مرّت به، ودرجة الصلة التي تربطه بالمتوفى، والأهمية الرمزية للوفاة لديه وتفسيره لها، وما يتوقع أن ينجم عنها في المجالين الأسري والاجتماعي.

أما الانفعال بوصفه حالة ظاهرية، فأن ما يقرره الى حد بعيد هو الواقع الاجتماعي والثقافي الذي يعيش فيه الفرد. وما يحدده من تقاليد وطقوس حدادية متنوعة. فبالرغم من أن الكثير من مظاهر الانفعالات تكون متشابهة عبر

الحضارات المختلفة، لأسباب بيولوجية، فأن الكثير منها أيضاً يكون التعبير عنها مختلفاً، لأسباب تتعلق بأن كل حضارة أو ثقافة تضع معايير بشأن متى وأين وكيف ينبغي التعبير عن الانفعال.

ولا يحدث الحزن دفعة واحدة إنما على مراحل. ففي المرحلة الأولى يشعر الفرد بعدم واقعية الحدث (الوفاة)، ويصعب عليه قبول هذا الفقدان، فيوجه غضبه نحو أناس آخرين يعتقد بأنهم كانوا قادرين على منع حدوث الوفاة لكنهم لم يفعلوا ذلك. وينتابه في هذه المرحلة إحساس بالخدر يستمر لدقائق أو ساعات. بعدها يتحول الى المرحلة الثانية، وفيها يشعر الإنسان المفجوع بالفقدان بالانزعاج، ويواجه صعوبات في التركيز، وتضعف شهيته للطعام أو يفقدها تماماً، ويعاني من اضطرابات في النوم من قبيل الأرق أو النوم المتقطع، المصحوب بأحلام مزعجة أو كوابيس يصحو منها مفزوعا أو هائجاً. وبعدها تأتي المرحلة الثالثة التي يمكن تسميتها بمرحلة القبول، وفيها تنحسر تلك الأعراض تدريجيا، ويبدأ الشخص المفجوع يدرك أن الحدث (الوفاة) أمر واقع فيتكيف لقبول الخسارة ويعود بالنهاية الى حالته الطبيعية.

وتتباين الآراء بخصوص مدة الحزن، فمن الباحثين من يحددها بأربعة الى ستة أسابيع، ومنهم من يقدرها بـ (6–12) أسبوعاً، تنخفض بعدها الأعراض ويعود الشخص المفجوع الى وضعه الطبيعي، وهذا ما يحصل لدى غالبية الناس، ويطلق عليه في هذه الحالة (الحزن الطبيعي) وهي حالة إنسانية لدى البشر عموماً، ولا تعد اضطراباً نفسياً.

متى يصبح الحزن مرضياً؟

يتفق معظم الاختصاصيين في الاضطرابات النفسية على أن أعراض الحزن اذا استمرت أكثر من ستة أشهر عندها يصبح الحزن اضطراباً ويعدّ حزناً مرضياً (Pathological Grief). وتشير الدراسات الى وجود عوامل تؤدي دوراً مهماً في حدوث مضاعفات في الحزن تحولّه من حالته الطبيعية الى حالة مرضية. ويمكن تحديد هذه العوامل من خلال الإجابة عن الأسئلة الآتية:

- ما المرحلة العمرية للفرد الذي فقد عزيزاً عليه؟

- هل توجد في حياة الفرد وفيات سابقة لأقرباء أو أعزاء؟ وما الوسيلة أو الآلية التي تعامل بها مع تلك الأحداث؟
- ما درجة القرابة مع الفقيد (زوج/زوجة/أخ/أب/أم/ابن...)؟
- ما هي مشاعره نحو الفقيد؟ وهل يحمل نحوه مشاعر وجدانية متناقضة... حب وكره في آن معاً؟
- عند حصول الوفاة، هل كان جميع أفراد الأسرة أو الأقارب موجودين؟
- هل كانت الوفاة متوقعة أم غير متوقعة؟
- ما حجم الفراغ الاجتماعي والعاطفي الذي تركه الفقيد؟ وهل حدث تدهور اقتصادي تزامن مع الوفاة؟

إن الإجابة عن هذه الأسئلة تقدم مؤشرات عن مضاعفات يمكن أن تسهم في حصول الحزن المرضي. فالوفاة غير المتوقعة، في سبيل المثال، تحدث تأثيراً انفعالياً أقوى من الوفاة المتوقعة.

تداعيات الحزن المرضي

تحدث تغيرات بيولوجية سلبية عند الإصابة بالحزن المرضي تكون على ثلاثة مستويات:

تغيرات في إفراز الغدد الصم، وتغيرات في نشاط مناعة الجسم، وتغيرات في نظام النوم.

أما على المستوى النفسي المباشر، فتشير الدراسات الحديثة الى أن المصابين بالحزن المرضي تظهر لديهم اضطرابات مصاحبة من قبيل: الاكتئاب، والوسواس القهري، والتحول الهستيري، وتوهم المرض، والنحول العصبي. وتظهر في بعض الحالات الأوهام والهلاوس السمعية والبصرية عندما يتركز تفكير أصحابها على ذكرياتهم مع الفقيد، فتغدو حية في مخيلاتهم. وقد يستعيدون مشاهد منها في أثناء نومهم أو في أحلامهم. كما يتوهمون أحيانا رؤية الفقيد أو المتوفى موجوداً في البيت أو في الشارع، أو يسمعون صوت خطواته، أو ينادونه باسمه. وتذكر بحوث أخرى أن عدداً من المصابين بالحزن المرضي تظهر لديهم اضطرابات سلوكية

كالرغبة في الانتحار أو التجوال الليلي أو الفزع أو الخمول في النشاط اليومي. فيما يقوم آخرون ببناء أضرحة كبيرة للمتوفى ووضع حاجاته فيها كما لو كان حياً، ويكثرون من زيارة هذه الأضرحة. فيما يعتري سلوك آخرين نكوص يعود بهم الى مرحلة الطفولة، فيتصرف الواحد منهم في حديثه وسلوكه كما لو كان طفلاً. هذا فضلاً عما ينجم عن سلوك المصابين بالحزن المرضي من مشكلات أسرية واجتماعية وتقصير في الالتزامات الحياتية والعاطفية والمهنية قد تؤدي الى نفور الأسرة وفقدان الوظيفة وابتعاد الناس عنهم.

الحزن المرضي في السيكولوجيا العراقية

في ضوء ما توافر من معرفة فقد تنبهت المجتمعات المتقدمة الى أن الحزن المرضي ينبغي أن يولى من الاهتمام ما تحظى به الاضطرابات النفسية الأخرى، سواء من حيث البحث العلمي أو التشخيص أو العلاج. وإذا كان علماء النفس يهتمون بدراسة الحزن في المجتمعات المستقرة، فأن دراسته في مجتمعنا العراقي تعدّ ضرورة ملحّة على الصعيدين الإنساني والعلمي. ذلك أنه ينفرد عن المجتمعات المعاصرة في أنه تعرض لثلاث حروب طاحنة خلال أقل من ربع قرن، بدءاً من الحرب العراقية الإيرانية عام 1980، مروراً بحرب الكويت عام 1991، فالحرب الأخيرة عام 2003، ثم حروب العنف والاحتراب الطائفي والإرهاب ومقاومة الاحتلال والتهجير والهجرة القسريين للأهل والأحبة.. فضلاً على ثلاث عشرة سنة من الحصار تخللها انهيار النظام الصحي وعودة الأمراض الوبائية، والموجات المتلاحقة من القصف بالصواريخ والطائرات الحربية، وما نجم عن ذلك من آلاف القتلى والضحايا في ساحات المعارك وفي البيوت والأماكن العامة. يضاف لها ما حصل في الأعوام الخمسة الأخيرة من العنف وحوادث الخطف والذبح وهتك الأعراض واغتصاب العذارى... والتفجيرات اليومية التي طالت أرواح مئات الآلاف من المدنيين، وحرب المدن التي شنتها القوات الأمريكية...

هذا يعني أن الحزن كان رفيقاً يومياً لخمسة وثلاثين مليون عراقي في خمس وثلاثين سنة من تاريخه الدموي المعاصر، مما يستدعي التعرف ميدانياً ما اذا كان

هذا الحزن قد تحول الى حالة مرضية أم أنه ما يزال ضمن دائرة العاطفة الإنسانية الطبيعية. وعليه قمنا (الكاتب والباحث الدكتور هيثم الزبيدي) بتصميم "مقياس نفسي" يقيس درجة الحزن، وجرى تطبيقه على عينة واسعة من المواطنين العراقيين ممن فقدوا أناساً أعزاء عليهم ومضى على وفاتهم ستة أشهر فأكثر. وقد شملت العينة أفراداً من الجنسين، من مراجعي المستشفيات والعيادات الطبية النفسية، وأشخاصاً آخرين تمت مراجعتهم في بيوتهم. وبعد تحليل البيانات تم الوصول الى النتائج الآتية:

- تعاني عينة الدراسة (في مجملها) من الحزن المرضي.
- الأفراد (من الجنسين) ممن خبروا فقدان عزيز عليهم منذ أقل من سنة، كانوا أكثر إصابة بالحزن المرضي من أقرانهم الذين مضى على وفاة فقيدهم أكثر من سنة.
- الإناث اللاتي خبرن وفاة فقيدهن الذي مضى عليه أقل من سنة، كن أكثر حزناً من الذكور للمدة نفسها.
- تبين أن أفراد عينة البحث الذين خبروا وفاة الفقيد بطريقة غير متوقعة، كانوا أكثر إصابة بالحزن المرضي من أقرانهم الذين كانوا يتوقعون الوفاة.
- وتبين أن الأفراد ذوي الصلة بالفقيد من الدرجة الأولى، كانوا أكثر إصابة بالحزن المرضي من الأفراد ذوي الصلة من الدرجة الثانية أو اكثر.

استشراف

إن هذه المؤشرات المأخوذة من واقع الحياة الاجتماعية للعراقيين، مضافاً لها ما نلمسه يوميا من مشاهد الحزن والأسى والقنوط العميقة المرتسمة على وجوه العراقيين في حياتهم الخاصة والعامة، وهم يشهدون فقدان واندثار ما أحبوه من أشخاص ورموز وأماكن وذكريات، يجعلنا نجازف بالقول إن (الحزن المرضي) أمسى سمة (نفس تاريخية) تلوّن أو تغلّف ملامح هذه الحقبة العصيبة من مسيرة

التطور الاجتماعي في العراق. وبالرغم من أن هذا الحزن صار يعجن أيام وليالي العراقيين بالحسرة والألم واليأس، إلا أن دافعية النمو والبحث المتجدد عن البدائل هي الأخرى سمة مميزة في الشخصية العراقية المعاصرة، مما قد يجعل حزنها المرضي هذا اضطراباً عارضاً وقابلاً للشفاء التدريجي، اذا تزامن ذلك مع النوايا الصادقة والعمل الحقيقي على القضاء أو التخفيف من العوامل المسببة لهذا النوع المرضي من الحزن.

العراقيون.. والتباهي بالحزن

من الشائع لدى البشر في كل المجتمعات أنهم يتباهون بما لديهم من مال وحلال أو جمال أو مكانة أو أولاد.. إلا العراقيون فأنهم على ما أرى مغرمون أو مهووسون بالتباهي بالهموم والأحزان، في حالة ينطبق عليها قول الشاعر نزار قباني: "معتقلون داخل أحزاننا، وأحلى ما بنا.. أحزاننا". لاحظ ذلك في نفسك أو بين أصدقائك، فما أن يبدأ أحدهم بالشكوى من همّ أو ضيق حتى يبادره الآخر، بل يقاطعه قائلاً: (يا أخي أنت زين.. لكن لو تشوف آني..) ويروح مسترسلاً يروي بألم أكثر ما حلّ به، وبدراما تصور للمقابل وكأن مصائب الدنيا وقعت كلها فوق رأسه!.

وفي (الدارمي) وهو أبلغ ألوان الشعر الشعبي، وراوية الحزن العراقي، حكاية تفي بإيصال المعنى، مفادها: أن امرأة ذهبت الى صديقتها تشكو حالها، فقالت لها:

(ما تدري بيّ الناس العلّة خفية... بالكلب سبع أزروف وبلاه يخيه)

أي: إن الناس لها الظاهر ولا تدري يا أخيتي بأن الهموم قد أحدثت سبعة ثقوب في قلبي.

وكان المفروض بصديقتها أن تواسيها وتهوّن عليها الأمور، لكنها أجابتها بالدارمي أيضاً:

(نيالك بدنياك بس سبعة ازروف... الكلب منخل صار بيه العمى يشوف)

أي: سعيدة أنت بدنياك اذا كان في قلبك سبعة ثقوب فقط، فأنا قلبي صار منخلاً يرى من خلاله حتى الأعمى!.

وهذه الحالة (التباهي بالحزن) أسبابها النفسية. فالعراق يكاد يكون البلد الأكثر تعرضاً للكوارث والحروب والفواجع والمحن.. بدءاً من الطوفان وصولاً الى ما هو عليه الآن. وأظن أن أول تراجيديا في العالم كانت في العراق.. أعني تراجيديا جلجامش وأنكيدو. وأظن أيضا أن أقسى تراجيديا كانت على أرضه.. أعني أحداث واقعة كربلاء. ومنذ ذلك التاريخ (61هـ) وإلى الآن حكمت العراق أربعة أنظمة (الأموي والعباسي والعثماني والبعث) كانت قاسية جداً في ظلمها للناس وبطشها بالخصوم، حتى أنه مرت أزمان على العراقيين ما خلا فيها بيت من كارثة. والأقسى أن السلطة كانت تمنع أسرة من تنهي حياته أن تقيم مجلس عزاء لفقيدها. وهذا يعني في فعله النفسي اشراط أو اقتران الحزن بالظلم والقسوة الذي يؤدي الى تكثيف التعبير عن الحزن بانفعال أشد.

وثمة مسألتين نفسيتين نوجزهما بالآتي:

إن المكّون السلوكي للانفعالات يكون أما شفوياً.. كلام، واما بلغة الجسد.. إشارة.. حركة. ويتفق علماء النفس على أن لغة الجسد تكون أصدق أحياناً من لغة الكلام، وأن تعابير الوجه هي الأكثر تعبيراً عن الحزن من اللسان. ويطرح آخرون فرضية اسمها (التغذية الراجعة لتعبير الوجه) مفادها أن عضلات الوجه وارتعاش الشفتين وسيلان الدموع على الخدود، أو مشهد العينين وهما تبكيان بصمت.. ترسل إشارات الى أكثر من مركز في الدماغ تعمل على تنشيط الجهاز العصبي الخاص بالانفعالات (الهيبوثلاموس، الأمجدالا،...) يؤدي بدوره الىتصعيد الانفعال لدى أطراف الحدث المشاركين في المشهد.

ومع أن تعابير الوجه عن الحزن تكاد تكون متشابهة عند خلق الله، إلا أن الملاحظ على العراقيين أنهم يضخّمون أو يبالغون في التعبير عنها. وهذا ناجم في واحد من أسبابه النفسية عن هول ما أصابهم من فواجع ومحن وكوارث عبر أكثر من ألف سنة.. جرى التعبير عنها بمشاركة وجدانية اقتضى الحال أن تكون بمستوى الفجيعة. ثم تحول هذا التعبير، عبر تكرار الفواجع وما صاحبها من تعزيز، الى تقليد، حتى صار من غير اللائق اجتماعياً أن يكون الانفعال هادئاً أو بارداً في مواساة من كان انفعاله ملتهباً.

ولأن الفجيعة كانت بين العراقيين مثل كرة السلة، فأن العراقي كان يشارك بانفعال حار أخاه المفجوع، ليس من جانب أنساني فقط، إنما أيضا – وهذا أهم – لأن الفجيعة ستحل بالآخر يوم ما، وعلى المقابل أن يردّ الفضل ساعتها. والغالب عند العراقيين أنهم يردون الفضل بأحسن منه. فأن كان الفضل بكاء ساعة مثلاً، فأن ردّ الفضل يكون بكاء ساعتين وأن أمكن فبأكثر!. والمثل يقول (دين بدين حتى دموع العين).

والشائع عن النساء في كل المجتمعات أنهن عاطفيات، يعبرّن عن انفعالاتهن بشكل أشد وأعمق، حتى صارت العواطف مرادفة لـ (الأنوثة)، وتحديداً الانفعالات الرقيقة والحزن في مقدمها. فيما الانفعالات الخشنة مرادفة لـ (الرجولة) والغضب في مقدمها. ولو تمعنا في العواطف الرقيقة (الأنثوية) لوجدنا أنها مقتصرة على ما يمكن تسميته بـ (الانفعالات العاجزة) من قبيل: الحزن والقلق والخوف، وهي انفعالات تعمل على أن تجعل الفرد يبدو ضعيفاً وعاجزاً. والمسألة النفسية هنا، هي أن الإنسان يتعاطف أكثر مع الإنسان الضعيف العاجز، وأن هذا العاجز تدرب على تجسيد انفعال الحزن، بفعل تكراره، فصار ماهراً في تمثيل دوره، فكيف اذا كان هذا الإنسان هو المرأة!.

ولأن الحزن في المجتمع العراقي كان بحجم فواجعهم، فأنه اختار المرأة لتكون بطلته. ولقد أجادت و(أبدعت) في تجسيد هذا الدور بدراما تراجيدية. فكما في المسرحية التراجيدية، فأن في مأتم الحزن النسائي العراقي أكثر من جوقة، تتصدرها جوقة النائحات اللاتي يجدن الصراخ والعويل، وجوقة اللاطمات على الخدود، وجوقة ناثرات الشعر وشاقات الصدور...، تقودهن قائدة أوركسترا المأتم – (الملاّيه) – في إيقاع يجمع هذه الجوقات ويوحدهّن في مباراة بينهن، في أيهما تجيد دور التعبير عن انفعال الحزن، وأيهما كان لها التأثير الأكبر بين الحاضرات المشهد.

وبعد أن تعلن قائدة الأوركسترا – (الملاّيه) – عن فترة استراحة، فأنه يتم فيها تقويم للمشاركات على وفق معايير (موضوعية) من بينها: شدة احمرار الوجه، ولا بأس اذا كان مخرمشاً بالأظافر، أو سيلان الدم على الخدود، أو تقطيع شعر الرأس، أو تمزيق الملابس، أو شدة بحة الصوت، أو من كانت قد أغمي عليها

صدقاً أو هستيرياً.. وتحظى الفائزة منهن بالاهتمام والتعاطف والإطراء والمـــديح على وفائها وطيبتها وصدق مشاعرها.

والغريب عند العراقيين، والمرأة بشكل خاص، أنهم ماضون بالتباهي في التعبير عن أحزانهم وطول حدادهم، بالرغم من أنهم جزعوا منها، وفي أعماق كل واحد منهم صرخة تصيح: أما لهذه الأحزان من آخر!!

العراقيون.. وسيكولوجيا التطيّر

توطئة في التوقع

ينفرد الإنسان بأنه المخلوق الوحيد الذي يمتلـك القـدرة علـى التوقـع، ونقصد بالتوقع تفسير الإنسان لما سيقع له من أحداث وما يظهر عليه من تصرّف قبل وقوعها. غير أن الناس يختلفون في طريقة تفسيرهم لما سيقع مـن أحـداث، وفي نوع المعنى الذي يضفونه على تلك الأحداث، ومـدى تأثيرهـا فيـه أو في الآخرين.

ويمكنك تصنيف التوقع على أنواع: خير وشر، صح وخطأ، توقع عقـلاني مقابل توقع غير عقلاني.. ولك أن تضيف أنواعاً أخرى.

وبخلاف العديد من النظريات النفسية (لاسيما الفرويديـة) الـتي تـرى أن خبرات الماضي هي التي تحدد سلوك الحاضر، فأن التوقع يبنى على فرضية مفادها: إن الأحداث التي ستقع في المستقبل، وليس الخبرة التي اكتسبها في الماضي، هي التي تقرر نوع السلوك الذي يتصرف به الإنسان في زمنه الحاضر. وأن تباين الناس في سلوكهم لا يعود بالدرجة الأولى إلى تباينهم فيما اكتسبوه من خبرات وتعلمـات إنما يعود إلى تباينهم في تصنيف طبيعة الأحداث التي يتوقعونها، وطريقة تفسـيرهم لها ونوع المعنى الذي يضفونه عليها.

ولا يقتصر تأثير التوقع على سلوكهم وتصرفاتهم بل يتعداه إلى ما يصيبهم من أمراض أو اضطرابات نفسية، بمعنى أن هنالك امراضاً نفسية تصيب الإنسـان لا لسبب وراثي (جينات) أو صدمات أو خبرات في الماضي، إنما (التوقعات) بـالمعنى الذي اوضحناه.

التطيّر

لقد مهدنا للتطير بتوطئة عن التوقع، لأن التطير هو طريقة أو أسلوب في التفكير يتعلق بما سيقع للفرد من أحداث. هذا يعني أن البعد الزمني للتطير هو المستقبل، غير أن تأثيره في السلوك يظهر في الحاضر. فإذا توقعت مثلاً، أن صديقك الحميم الغائب عنك من عشر سنين سيأتي غداً، فأن مزاج الفرح يظهر عليك اليوم، وإذا توقعت أن صديقك الراقد في المستشفى سيموت غداً، فأن انفعال الحزن يظهر عليك اليوم.

والتطير حالة سيكولوجية خالصة، من حيث إن مضمونها الرئيسي هو القلق الناجم عن احتمالات متناقضة واحياناً حادة، بين خوف من شرّ مرتقب وبين خير وفير آت.

ولان التطير ينتمي إلى التفكير الخرافي، عليه يفضّل أن نعرف ما هو علمي عن هذا النوع من التفكير لتكتمل عندك الصورة.

التفكير الخرافي

إن التفكير عند الإنسان كان في الأصل خرافياً، ونقصد بالتفكير الخرافي تفسير الظاهرة بغير اسبابها الحقيقية العلّية، أو عزو نتائج عمل معين أو حادث إلى غير مسبباته الفعلية. ويميل الرأي إلى الاعتقاد بأن الظواهر الطبيعية التي تقع خارج سيطرة الإنسان من قبيل: الاعاصير، الزلازل، الطوفان، الرعد والبرق.. كان يجري تفسيرها في البدء على إنها تحدث بفعل قوى غير طبيعية، وكان "اختلال" عقل الإنسان أو أصابته بالجنون يخضع للتفسير نفسه. فالجماجم التي وجدت فيها ثقوب صغيرة جرى تفسيرها على إنها تعود لاشخاص اصيبوا بأمراض عقلية. وان أسلافنا الاولين كانوا "يعالجون" هؤلاء بفتح ثقوب في جماجمهم لأعتقادهم بوجود ارواح شريرة في داخلها، وان فتح هذه الثقوب يساعد على طرد الارواح الشريرة من ادمغتهم. وكان البابليون ينظرون إلى الإنسان "المخبول" على انه مبتلى بعفريت هو سبب مرضه، وان هنالك روحاً أو عفريتاً لكل مرض. ومثل هذا الاعتقاد كان موجوداً لدى الصينين والاغريقيين، الذين كانوا يعزون "الجنون" أو

الشذوذ في السلوك، إلى أن الشخص تمتلكه روح شريرة بعد أن يسحب عنه الآله حمايته له.

وكانت مثل هذه الاعتقادات والخرافات شائعة حتى في اوربا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، وانتشر السحر والسحرة فيها حتى القرن الثامن عشر، وهي حالة حتمية بسبب الحروب والمجاعة والاوبئة التي شهدتها اوربا في تلك العصور.

كان ذلك حال الناس قبل نشوء العلم، وهم معذورون عن تفكيرهم الخرافي، لكن العذر يكون باهتاً لمن يعيش في عصر العلم وما يزل يؤمن بالخرافه.. بل انك ترى "اكاديميين" بينهم حملة دكتوراه لديهم خرافاتهم التي يعتقدون بها. وقد يعزى السبب إلى أن خلايا دماغ الإنسان كانت قد تدربت أو تقولبت عبر ملايين السنين على التفكير الخرافي، وأن فيها من ‘‘الترسبات" ما لايستطيع العلم الحديث محوه، أو لأن مصدر الخرافة في الأصل كان عقيدة شبه دينية، على ما يرى الباحثان (انجلش وانجلش)، أو لأنها فلكلور شعبي يحبه الناس على ما يرى الباحث "هل"، أو إنها اعتقاد راسخ في القوى فوق الطبيعة وفي الاجراءات السحرية المخدّره من التفكير الخيالي وصارت مقبولة اجتماعيا على ما يرى "كارل يونغ"، أو لمعاناة القهر التي يعيشها الانسان المعاصر لاسيما في الشعوب المتخلفة التي تحكمها سلطات غير عادلة وعدم وجود حلول لمشكلاته الحياتية وتضافر وسائل الاتصال الحديثة مع وسائل الفكر الشعبي في ترويج الخرافة كما نعتقد نحن.

وسواء كانت الخرافة اعتقاداً أو فكرة.. ذات مصدر ديني أو شعبي أو سحري.. فأن المهم في الأمر أن الخرافة طريقة في التفكير يعتمدها الفرد في تفسير ما حدث له أو ما سيحدث بغير أسبابه الحقيقية، وبشكل مخالف أو مناقض للتفسير العلمي لها، على وفق مقاييس العقل والمنطق والموضوعية.

والحقيقة أن آلية التفكير الخرافي لا تختلف عن آلية التفكير العلمي من حيث أن كليهما يهدف إلى تفسير ظاهرة غامضة، غير أنهما يختلفان من حيث أن التفكير العلمي يتوصل إلى معرفة الأسباب العلّية الفعلية للظاهرة، فيما يعزوها التفكير الخرافي إلى أسباب لا علاقة لها بالظاهرة.

والخرافة بهذا المعنى تختلف عن الاعتقاد الخاطيء من حيث ديمومتها وتمسّك الفرد "واحياناً المجتمع" بها، فيما الاعتقاد الخاطيء يكون طارئاً يتراجع الفرد عنه حين يثبت له العكس. كما تختلف الخرافة عن الشائعة التي تظهر في أوقات الحروب عادة لأنها تختفي سريعاً، فيما الخرافة تظل مستمرة سواء على مستوى الفرد أو المجتمع.

ومع أن الفروق لا تبدو واضحة بين الخرافة والاسطورة، ووجود تداخل بينهما، إلا إن الاسطورة تحمل شيئاً من القداسة ونوعاً من الإيمان المطلق بها.

والملاحظ إن انتشار الخرافات يكثر في أوقات الأزمات الاجتماعية والاقتصادية والنفسية، وتعرّض المجتمع إلى أخطار مثل حدوث حرب أو توقع حدوثها. وهنالك علاقة طردية بين انتشار أو شيوع الخرافة وبين تعرّض الفرد أو الناس إلى الخوف أو القلق، وبينها "الخرافة" وبين التخلف والجهل وتدني المستوى الثقافي، وبينها وبين إدراك الفرد أو المجتمع بعجزه عن حل مشكلة حياتية يتوجب عليه حلّها.

سيكولوجيا التطيّر

أشرنا إلى أن التطير يتعلق بالتوقع، أي بطبيعة الأحداث التي ستقع في المستقبل. أما الحالة السيكولوجية التي تتحكم بالانسان المتطير فهي التناقض الانفعالي بين التشاؤم والتفاؤل: توقع الشر والنحس والخطر والمرض وقلة الرزق أحياناً، وتوقع الخير والسعد والامن والصحة ووفرة الرزق أحياناً أخرى، في حالة تنّقل بينهما تشبه رقّاص الساعة.

ولأن الجهاز العصبي للأنسان لا يتحمل حالة قلق مستديمة فأنه لا بد أن يبحث عن وسائل لخفض هذا القلق. ولأن الإنسان المتطير لا يمتلك سيطرة عملية وعلمية ويشعر بالعجز في السيطرة على مصيره، وان الواقع لايقدّم له حلولاً لمشكلاته الحياتية، (ونعني بالواقع هنا: النظام السياسي والاجتماعي والسلطة الدينية تحديداً)، فأن العقل الواعي "الشعور" يتعطل لديه ويكف عن التفكير في خفض قلقه وايجاد رأس خيط شرنقة الغموض التي تلفه، فيتولى "اللاشعور" هذه

المهمة بأن يسعفه بحيلة أو آلية نفسية هي "الإسقاط"، ونعني به ترحيل مخاوفه وقلقه على أشياء أو رموز لها دلالات تبدو له مقنعة، مثل القدر والحظ والنصيب... أو باضفاء قدرة على قوة خارجية أو سماوية، أو رمز معين، تولّد لديه الطمأنية بأنها ستحل له المشكلة أو تحقق له المرام.

وسائل التطيّر عند العراقيين

تتنوع وسائل التطيّر عند العراقيين وفيها ما يبدو لطيفاً وفيها ما يبدو سخيفاً، وسنركز في الآتي على ما هو أكثرها شيوعاً، ويمكن تصنيفها على نوعين:

أولاً/النذور

تعد النذور وسائل لجلب التفاؤل وخفض القلق، ومن أكثرها شيوعاً بين العراقيين، هي:

1. خبز العباس: وهي أرغفة من الخبز ملفوف بداخلها خضروات (كرفس، كراث، معدنوس، رشّاد...) وتعمد الأسرة ميسورة الحال إلى إضافة جبن مالح من النوع "الكردي" اذا أرادت توزيعها على بيوت كثيرة. وينذر خبز العباس (نسبة الى الامام العباس) في حالة شخص مفقود، فتقوم الأم بعمله وتوزعه على الجيران وبيوت الطرف اذا عاد ابنها. كما ينذرفي حالة نجاح الولد أو البنت في الامتحان وما شابه ذلك.
2. حلاّل المشاكل: وهو خليط من سبع مكسرات بينها: (حب أحمر، زبيب، فستق، حمّص...) ويستعمل في حل مشكلة مستعصية نوعاً ما، ويوزع في ساحات مراقد الائمة والرجال الصالحين. والشائع في بغداد نذر حلال المشاكل الى الامام الكاظم في حي الكاظمية الذي يدخلون الى صحنه من باب يسمونه (باب المراد او باب الحوائج - أي قضاء أو تلبية الحاجة). وهنالك من يرى ان توزيعها يكون على النساء فقط دون الرجال.

3. النقود: وترمى هذه النقود في داخل أضرحة الائمة والرجال الصالحين في حالات شفاء مريض أو عودة غائب عزيز أو تحقيق أمنية.

ومن أجمل النذور ما نذرته شاعرة شعبية من الناصرية ضمنته في بيت من الدارمي يقول:

(نذر الك سيد ادخيل نوط ابو الميه... من أفز والكي اهواي غافي على اديه).

ومعناه: لك يا سيد ادخيل – وهو مرقد رجل صالح قريب من الناصرية – صك بمائة دينار اذا استيقظت من النوم ووجدت حبيبي نائماً بين يديّ!.

ولأن الامنية عزيزة، فأن سعر نذرها غال، فمائة دينار عراقي في اربيعينات القرن الماضي تساوي ملايين بقيمته الآن. فراتب الشرطي أيامها كان دينارين وراتب المعلم "الافندي" كان ستة دنانير، ولك أن تحسبها وتترحم على دينار أيام زمان.

4. نذر الكاروك: شراء كاروك لنوم الطفل، تنذره الزوجة التي ترزق بطفل بعد طول انتظار والذهاب به إلى أضرحة الائمة وخاصة الامام (السيد محمد) في قضاء بلد حيث يكثر في ضريحه كواريك الأطفال القادمة من بغداد ومناطق أخرى. وتنذر بعض الزوجات شراء (زناجل من الذهب) تلبسها لطفل تمنت أن ترزق به وتضعها برجليه في داخل مرقد الامام ثم ترميها بداخل الضريح.

5. نذور الحيوانات: وتكون بذبح حيوان والشائع منها (ديك، خروف، ثور) واحد أو أكثر بالنسبة للمتمكن، واقامة وليمة غداء عامرة يدعى لها الأقارب والأصدقاء والجيران والمعارف، أو يوزع لحماً نيئاً. وتكون عادة عندما تحل مشكلة كبيرة كعودة أسير كان يحسب بعداد المفقودين، أو شفاء مريض من مرض خطير كالسرطان مثلاً.

والملاحظ أن معظم نذور الشيعة تكون للأئمة، ومعظم نذور السنّة تكون في مناسبة المولد النبوي، ولك أن ترى ألوانها في منطقة الأعظمية

ببغداد التي تزدحم بالزائرين لمرقد الأمام الأعظم.

وينذر العامة من أهل أربيل (هولير كما يفضّلون) ألوان الطعام وأشياء أخرى يأخذونها لزيارة مرقد (سلطان مظفر) في مناسبة المولد النبوي ويطلبون المراد. ويذهب آخرون منهم لزيارة مرقد (شيراسور) وينذرون له (لو نيسك لو جيسك) أي لو عدس لو نعجه، اذا تحقق المرام.

ومن "جميل" ما رأيت في مكان قريب من شقلاوة، شجرة قريبة من مرقد (الشيخ بايز) يأتيها من لديه مشكلة فيعقد بغصنها خيطاً أو وصلة من قماش ويمضي، وعلى القادم الآخر أن يحل الخيط أو الوصلة وعندها ستنحل مشكلة من كان عقدها.

6. صواني زكريا وشموع العذراء. تعمل العراقيات بمناسبة مولد النبي زكريا حلويات متنوعة ومكسرات وتمر يضعنه في صواني مزينة بالشموع الملونه وأوراق الياس الخضر، ويتوجهن عصر يوم المولد إلى النهر، كما يحصل للبغداديات حيث يتجهن أسراباً وفرادى إلى نهر دجلة، وبعد أن تطلب كل واحدة أمنيتها وتأكل ما تشتهي من الحلوى والمكسرات تضع الصينية برفق على سطح الماء الجاري محملة بالرجاء في تحقيق المرام.

وتنذر الكثير من النساء المسلمات، لاسيما اللواتي ليس لديهن اطفال، الشموع والحلوى للسيدة مريم العذراء ويزرن الكنائس أيام الآحاد ويطلبن منها أن يرزقن بطفل بجاهها عند الله الذي خصها بمعجزة ابنها السيد المسيح.

7. قراءة الأبراج. تقوم قراءة الأبراج على فرضية مفادها أن خصائص شخصية الإنسان ومزاجه وما يقع له من أحداث يحددها البرج الذي يكون موجوداً في فلك الارض ساعة ولادته.

وتفرد أغلب الصحف والمجلات مساحات يومية ثابتة للابراج لقراءة الحظ ومعظمها يحمل توقعات تفاؤلية. وتنتشر قراءة الأبراج بين

الموظفات وطالبات الجامعة، ومع أن كثيرات منهن يقرأنها للتسلية إلا إن بعضهن يعتقدن بما تقوله الأبراج. وقد زاد الإقبال على الأبراج بعد أن خصصت قنوات فضائية عراقية وعربية برامج لها يقدمها اختصاصيون في علوم الفلك أو الفيزياء أو الهندسة!.. أو من صارت لديهم خبرة فيها، يضفون عليها صفة العلم باستعمالهم أجهزة الكومبيوتر في تحليل شخصية الإنسان ومزاجه وتركيبته الفسلجية واختلافها من شخص إلى آخر تبعاً للبرج المولود فيه.

ويبدو أن قراءة الأبراج، التي يقوم عليها رجال في الغالب، قد ادت إلى تراجع قراءة الفنجان التي تقوم علها النساء في الغالب.

ثانياً/وسائل السيطرة على التشاؤم

نعني بالتشاؤم هنا توقع الشر أو الخطر أو النحس او المرض أو الحسد، وكل ما يثير التطير لدى الإنسان من أحداث سيئة قد يخبؤها المستقبل، وعليه فأنه يحتاط لها بوسائل تؤدي إلى خفض القلق لديه، وتبعث في داخله حالة الشعور بالسيطرة على مصيره.

وتتنوع وسائل السيطرة على التشاؤم لدى العراقيين، ومن اكثرها شيوعاً لديهم:

1. الحروز. يتضمن الحرز أشكالاً وطلاسم وحروفاً متناثرة وآيات قرآنية، ويكتب بماء الزعفران ذي اللون الذهبي، ويكون عرض ورقة الحرز بحدود 5سم وطولها يتراوح بين طول ورقة واحدة الى أكثر من متر، ويلف بشكل محكم بقطعة قماش ناعم يفضل أن يكون من الحرير الأحمر، ويحمل في الزند أو في قلادة أو يوضع في الجيب أو داخل وسادة النوم أو في الشيء المراد حمايته، ويقوم بكتابة الحروز الرجال عادة: (سيد، أو شيخ، أو ملاّ...).

ومع أن الوظيفة الأساسية للحرز هي منح صاحبه الشعور بالأمان للوقاية من العين والمرض والخطر (والحرز لغة يعني التعويذة والمكان

الحصين)، إلا أنه يستعمل أيضاً "للجاهل" الذي يفز من نومه، وللمحبة مثل فتاة تريد أن يحبها شاب معجبة به، أو العكس، أو الزوجة التي تشك في أمر زوجها، كما يستعمل "الحرز" لجلب الرزق أحياناً.

ومن طريف ما حصل لي أنني اشتريت سيارة تويوتا جديدة من الشركة! موديل 1981، وذهبت بها لزيارة صديق لي لديه اهتمام بكتابة الحروز لا سيما للبنات اللواتي يردن الزواج، أو الزوجات اللواتي بدأ ازواجهن يضوجون منهن. وعندما ركبت سيارتي مودعاً، فتح صاحبي "الجقمقجة – الحافظة" داخل السيارة ووضع شيئاً صغيراً بكبر الشخاطة ملفوفاً بقطعة حمراء، فسألته: ما هذا؟. أجابني: حرز... يحمي سيارتك ويهنيك الله بها. والأطرف من ذلك.. انني احتفظت بالحرز في داخل سيارتي!.

والمدهش في صاحبي هذا أنه كان يفك عقدة الرجل المصاب بالعنّة النفسية التي تحصل للعريس في ليلة عرسه. وأذكر أنه جاءه مرة موظف بدرجة مدير قاصداً اياه من بغداد، وهو في قرية قريبة من مدينة الشطرة، مصاب بهذه العقدة التي فشل في علاجه منها أطباء بغداد، على ما ذكر، فقام صاحبي بكتابة حرز ليضعه تحت الوسادة وآيات قرآنية كتبها بماء الزعفران ومرد اوراقها بالماء وامره ان يغتسل به هو وزوجته التي كانت معه، وبعد أن خرجا من الحمّام أجلسهما معاً ووضع يده اليمنى على رأس الزوج واليسرى على رأس الزوجة وأخذ يقرأ عليهما آيات قرآنية ثم أدخلهما الى غرفة خاصة ليناما فيها.. وفي الصباح كانت الهلهوله!!

كان ذلك في الثمانينات (وأدعو لصاحبي الطيب بطول العمر ان كان حياً) ولم أكن حينها أعرف تفسيراً علمياً لها ثم فهمت أن أسباب العقدة هذه تكون نفسية خالصة وليس بمقدور اختصاصي بالطب العام أن يعالجها وأحياناً يفشل في علاجها حتى الطبيب النفسي، لأنها تقوم

على مسألتين نفسيتين الأولى: الايحاء، والثانية ايمان المصاب بها بقدرة المقابل على حلّها، وكلتاهما قد حصل، فصاحبي كان يجيد بالفطرة فن الايحاء (بالمناسبة، ما كان يشترط مالاً بل يتركه لكرم الشخص)، وأن شهرته التي وصلت من الشطرة الى بغداد تولّد الشعور بالايمان لدى المصاب بالعقدة بأن حلّها سيكون على يدي هذا الرجل الذي من أجله قطع المسافات.

2. التبخير بالحرمل. وذلك بحرق بذور الحرمل في البيت وقت المغرب عادة، وتستخدم لتوقي الإصابة بالحسد وابعاد الشر. أما لماذا وقت المغرب، فأظن إنها تتعلق بالاعتقاد بأن الجن يأوي إلى البيوت مع غياب الشمس، وهذا يعني أن التبخير بالحرمل يستعمل لطرد الأرواح الشريرة. وتعمد بعض الأمهات في حالة مرض ابنها فجأة إلى أن "اطكله حرمل" اعتقاداً منها بأن الروح الشريرة "الجني أو العفريت" سيهرب منه إذا اشتم رائحة الحرمل، أو أن المحسود سيذهب عنه شرّ حاسده.

3. لبس المحابس (الخواتم). يضع بعض العراقيين في أصابع أيديهم (بينهم متعلمون) محابس بلون شذري أو بخرزة زرقاء أو بفص من العقيق إما للتبرك أو لتوقي الإصابة بالعين أو لجلب الرزق. فاللون الأزرق أو الشذري وظيفته ابطال الحسد، والعقيق بلون القريب من الجوزي وظيفته التبرك، وألون خواتم أخرى يقرأ عليها (السيد) آيات قرآنية وظيفتها المحبة وجلب الرزق. وقسم يضع المحبس تحت وسادته مع قطعة نقود معدنية وقطعة خبز صغيرة وينام، فاذا استيقظ في الصباح يكون قد رأى حلماً في المنام بخصوص القضية التي نوى (الاستخارة) بخصوصها. وتستخدم هذه الطريقة عندما يكون الشخص حائراً بين أمرين.

ولقد لاحظت مؤخراً عدداً من السياسيين العراقيين يلبسون الخواتم التي يغلب على فصوصها اللون الأزرق أو الشذري، ولا أعلم ما اذا كان

الغرض منها دفع الحسد لوصولهم الى مراكز قيادية في الدولة ما كانوا يحلمون بها، أم للحماية من الأخطار مع أن كل واحد منه لديه فصيل من الحماية المدججين بالسلاح وبأحدث الأجهزة الالكترونية.

4. الآيات القرآنية. يكثر العراقيون من وضع الآيات القرآنية في بيوتهم، لاسيما المعوذتين وآية الكرسي، ويفضلون أن تكون مكتوبة باللون الشذري، وغالباً ما يعلقونها في غرف الاستقبال، أو في مدخل البيت. ويبدو أن الغرض السيكولوجي منها هو الوقاية من حسد الزائرين، ودفع الشر عن أهل البيت، وليس للتبرك كما يقول البعض، إذ لو كان الأمر كذلك لوضعوا آيات أخرى من القرآن، لكن هذه الايات بالذات تستعيذ بالله من الحسد ومن كل مخلوق مجبول على إيذاء الآخرين أو تمني السوء لهم.

5. نعيق الغراب وصوت الططوه. يتطير العراقيون من نعيق الغراب لا سيما إذا كان اسوداً ويرمونه بالحجر إذا نعق قريباً من الدار لاعتقادهم بأنه نذير شؤم. ويتطيرون أيضاً من صوت طائر صغير يسمونه "ططوه" له صوت مزعج كما لو كان صراخ امرأة مفجوعة يحملهم على الاعتقاد بأن هذا الطائر يحمل لهم خبراً بأن أحد أفراد البيت سيموت أو انه معرض للخطر، ولهذا تردد العراقيات الشعبيات حين يسمعن صوتها عبارة (سجينه وملح) لتخويف الطير بالهرب والنجاة بريشه.

الجميل في العراقيين أن معظم الذين يعتقدون بالخرافات ووسائل التطير، لا يؤمنون بها بل أن كثيرين منهم يسخرون منها في داخلهم أو في نكاتهم، واعتقد أن ذلك يعود لسببين رئيسين، الأول: إن الدين في الحضارات العراقية القديمة لم يكن قوياً موازنة بالحضارة المصرية مثلا..، ولنا في ذلك شاهدان: ملحمة جلجامش الذي تحدى الآلهة، والتوجّه العلمي للحضارتين السومرية والبابلية ومنجزات الحضارات العراقية المدهشة. والسبب الثاني: إن المحن التي أصابت العراقيين كثيرة ومتنوعة وقاسية اضطرتهم اللجوء إلى الخرافة وأساليب التطير، ولما لم يجدوا نفعاً منها بالخلاص من مصائبهم قلّ إيمانهم بها.

على مسألتين نفسيتين الأولى: الايحاء، والثانية ايمان المصاب بها بقدرة المقابل على حلّها، وكلتاهما قد حصل، فصاحبي كان يجيد بالفطرة فن الايحاء (بالمناسبة، ما كان يشترط مالاً بل يتركه لكرم الشخص)، وأن شهرته التي وصلت من الشطرة الى بغداد تولّد الشعور بالايمان لدى المصاب بالعقدة بأن حلّها سيكون على يدي هذا الرجل الذي من أجله قطع المسافات.

2. التبخير بالحرمل. وذلك بحرق بذور الحرمل في البيت وقت المغرب عادة، وتستخدم لتوقي الإصابة بالحسد وابعاد الشر. أما لماذا وقت المغرب، فأظن إنها تتعلق بالاعتقاد بأن الجن يأوي إلى البيوت مع غياب الشمس، وهذا يعني أن التبخير بالحرمل يستعمل لطرد الأرواح الشريرة. وتعمد بعض الأمهات في حالة مرض ابنها فجأة إلى أن "اطكله حرمل" اعتقاداً منها بأن الروح الشريرة "الجني أو العفريت" سيهرب منه إذا اشتم رائحة الحرمل، أو أن المحسود سيذهب عنه شرّ حاسده.

3. لبس المحابس (الخواتم). يضع بعض العراقيين في أصابع أيديهم (بينهم متعلمون) محابس بلون شذري أو بخرزة زرقاء أو بفص من العقيق إما للتبرك أو لتوقي الإصابة بالعين أو لجلب الرزق. فاللون الأزرق أو الشذري وظيفته ابطال الحسد، والعقيق بلون القريب من الجوزي وظيفته التبرك، وألون خواتم أخرى يقرأ عليها (السيد) آيات قرآنية وظيفتها المحبة وجلب الرزق. وقسم يضع المحبس تحت وسادته مع قطعة نقود معدنية وقطعة خبز صغيرة وينام، فاذا استيقظ في الصباح يكون قد رأى حلماً في المنام بخصوص القضية التي نوى (الاستخارة) بخصوصها. وتستخدم هذه الطريقة عندما يكون الشخص حائراً بين أمرين.

ولقد لاحظت مؤخراً عدداً من السياسيين العراقيين يلبسون الخواتم التي يغلب على فصوصها اللون الأزرق أو الشذري، ولا أعلم ما اذا كان

الغرض منها دفع الحسد لوصولهم الى مراكز قيادية في الدولة ما كانوا يحلمون بها، أم للحماية من الأخطار مع أن كل واحد منه لديه فصيل من الحماية المدججين بالسلاح وبأحدث الأجهزة الالكترونية.

4. الآيات القرآنية. يكثر العراقيون من وضع الآيات القرآنية في بيوتهم، لاسيما المعوذتين وآية الكرسي، ويفضلون أن تكون مكتوبة باللون الشذري، وغالباً ما يعلقونها في غرف الاستقبال، أو في مدخل البيت. ويبدو أن الغرض السيكولوجي منها هو الوقاية من حسد الزائرين، ودفع الشر عن أهل البيت، وليس للتبرك كما يقول البعض، إذ لو كان الأمر كذلك لوضعوا آيات أخرى من القرآن، لكن هذه الايات بالذات تستعيذ بالله من الحسد ومن كل مخلوق مجبول على إيذاء الآخرين أو تمني السوء لهم.

5. نعيق الغراب وصوت الططوه. يتطير العراقيون من نعيق الغراب لا سيما إذا كان اسوداً ويرمونه بالحجر إذا نعق قريباً من الدار لاعتقادهم بأنه نذير شؤم. ويتطيرون أيضاً من صوت طائر صغير يسمونه "ططوه" له صوت مزعج كما لو كان صراخ امرأة مفجوعة يحملهم على الاعتقاد بأن هذا الطائر يحمل لهم خبراً بأن أحد أفراد البيت سيموت أو انه معرض للخطر، ولهذا تردد العراقيات الشعبيات حين يسمعن صوتها عبارة (سجينه وملح) لتخويف الطير بالهرب والنجاة بريشه.

الجميل في العراقيين أن معظم الذين يعتقدون بالخرافات ووسائل التطير، لا يؤمنون بها بل أن كثيرين منهم يسخرون منها في داخلهم أو في نكاتهم، واعتقد أن ذلك يعود لسببين رئيسين، الأول: إن الدين في الحضارات العراقية القديمة لم يكن قوياً موازنة بالحضارة المصرية مثلا..، ولنا في ذلك شاهدان: ملحمة جلجامش الذي تحدى الآلهة، والتوجّه العلمي للحضارتين السومرية والبابلية ومنجزات الحضارات العراقية المدهشة. والسبب الثاني: إن المحن التي أصابت العراقيين كثيرة ومتنوعة وقاسية اضطرتهم اللجوء إلى الخرافة وأساليب التطير، ولما لم يجدوا نفعاً منها بالخلاص من مصائبهم قلّ إيمانهم بها.

والمفارقة أن خرافات التطير انتشرت بين العراقيين في الألفية الثالثة أكثر مما كانت عليه منتصف الألفية الثانية. والسبب الرئيسي يعود إلى توالي المحن على العراقيين لأكثر من 35 عاماً دون التقاط الأنفاس، وانعدام وجود سلطة قادرة على حل مشكلاتهم والتخفيف من معاناتهم الحياتية، فضلاً عن ظهور قنوات فضائية عراقية بالمئات.. معظمها تبث برامج فيها ما يروج سيكولوجيا التطير لاسيما برامج الأبراج. ويبدو أن الاحتراب الطائفي يوفر الفرصة للأشخاص الذين لهم سلطة دينية أو اجتماعية أو سياسية – دينية على بث معتقدات خرافية يزداد شيوعها بين الناس في أوقات الأزمات وفقاً لمبدأ العدوى النفسية.

والأجمل في العراقيين أنهم حين يجتازون أزمة فأنهم يغتسلون من متعلقاتها الخرافية اغتسال المتسخ بالأوساخ بماء دجلة.

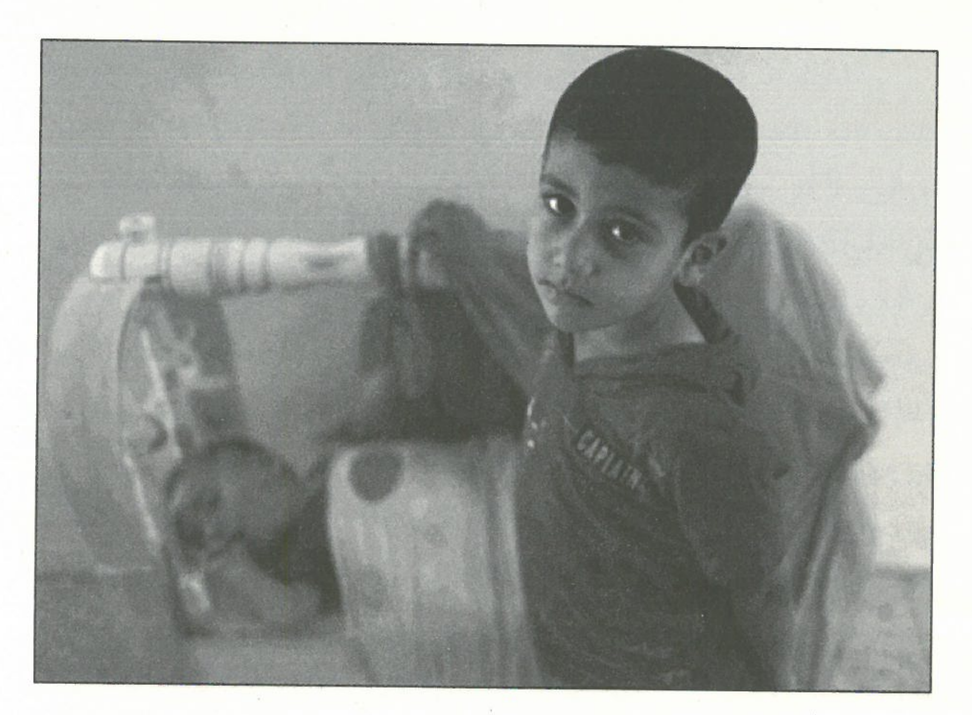
أطفال العراق..
(35) عاماً بلا طفولة

تنويه:

في 20/تشرين الثاني/1989، اعتمدت الجمعية العامة هذا اليوم يوماً عالمياً لإعلان حقوق الطفل، وقدم العالم تعهداً للأطفال (بأن نبذل قصارى جهدنا من أجل حقوقهم في البقاء والنماء وفي التعليم والتحرر من العنف وسوء المعاملة وفي المشاركة وإسماع الصوت...). وكانت الجمعية العامة للأمم المتحدة اوصت في عام 1954بالقرار836 بأن تُقيم جميع البلدان يوماً عالمياً للطفل وتركت حرية الإختيار لها، واعتمد الاول من حزيران من كل عام يوماً عالمياً للطفل تحتفل فيه اغلب دول العالم بضمنها العراق.

***

منذ (35) عاماً واطفال العراق ضحايا مفجوعون صامتون. كان أول ما استلب منهم هو حياة الطفولة بمرحها وبهجتها وألعابها وأغانيها، يوم نشوب الحرب العراقية الأيرانية (1980). أذكر انني كنت عام (1978) عضو لجنة مشرفة على برامج الاطفال في تلفزيون بغداد تضم ايضاً الروائية لطفية الدليمي والكاتب باسم عبد الحميد. كانت برامج (الكارتون) تنتقى من مناشيء مختلفة: تشيكوسلفاكيا، بولندا، الاتحاد السوفيتي، اليابان، وامريكا. وكانت البرامج المحلية المخصصة للاطفال هي الاخرى ممتازة مثل: لغتنا الجميلة، سينما الاطفال، الشاطر، وبرامج تعليمية اخرى. وكانت اغاني الاطفال تعبّر عن عالم الطفولة ومفرداتها، منها اغنية تقول: (شوفو شحلو بيدي الطباشير.. شوفو شحلو ارسم عصافير.. رسمت وردة.. وفراشة عالحقل اتطير).



أطفال العراق يعدون أكثر أطفال العالم معاناة من الخوف والجوع والفقر

وكان أخطر خلل سيكولوجي حدث للاطفال المولودين عام 1980 وما بعده، ان تشكّلت لدى هذا الجيل (يؤلف حاليا بحدود 70% من المجتمع العراقي) صور ذهنية ومعتقدادت ومدركات مشوهه بخصوص نفسه والآخرين والعالم والحياة، وأخرى غير سوية بمواصفات الصحة النفسية. ففي السنوات الثمان للحرب العراقية الايرانية تشكّل لدى الاطفال مفهوم ان العالم عدائي وان الآخرين يريدون افناءه. وبمشاهدته لجثث قتلى الحرب بدءا من برنامج (صور من المعركة) في الثمانينيات، الى مشاهد التفجيرات اليومية في المدن العراقية التي صارت تستهدف المدنيين، الى بشاعة جرائم قطع الرؤوس.. تراجعت لدى هذا الجيل (قيمة الحياة) التي كانت مقدسة.

اذكر حين كنت طفلاً بالخمسينيات، وأنا ابن قرية، حضرت موكب تشيع رجل توفي وهو في السبعين من عمره.. كان الجميع يشعر بالأسف والحزن على وفاته. هكذا كان ذلك الجيل (الكبار حالياً الذين لا تتجاوز نسبتهم 30%)، يحترم قيمة الحياة التي انعدمت لدى جيل الشباب. والى هذا السبب نعزو جرائم القتل

وبشاعة قسوتها في الاحتراب الطائفي التي قامت بها مليشيات من الشباب.

كنّا نأمل ان تنتهي استلابات الطفولة بسقوط الدكتاتورية ويعود للطفولة عالمها الذي يشبه عالم العصافير.. لكن ما حصل للاطفال في الزمن الديمقراطي كان افضع وأبشع. فبحسب تقديرات وزارة العمل (2010) فان (4,5) مليون طفل فقدوا والديهم أو احدهما. (بالمناسبة، يتيم الحرب لا يعرف من قتل اباه فيما يتيم الاحتراب الطائفي يعرفه، ولهذا ينشأ لديه دافع الاخذ بالثأر ولن يخف دافع الانتقام لدى هؤلاء اليتامى ما داموا احياء).

وتشير منظمة اليونسيف الى ان أطفال العراق يعدّون أكثر أطفال العالم معاناة من الخوف والجوع والفقر جراء العنف والارهاب والتهجير والإهمال منذ وقوع العراق تحت الاحتلال، وان اكثر من (360) الف طفل يعانون من أمراض نفسية، فيما أفادت ممثلة الامين العام للامم المتحدة قبل اربع سنوات ان 50% من طلبة المدارس الابتدائية لا يرتادون مدارسهم، و40% منهم فقط يحصلون على مياه شرب نظيفة.. فيما صار حالهم الان اقسى واوجع بعد التهجير القسري لثلاثة ملايين عراقي!



العراق وطن بلا طفولة

ولأول مرّة في العراق تم استخدام الاطفال في اعمال اجرامية بقتل ابناء وطنهم، بدأت بمنظمة طيور الجنة التي شكلتها القاعدة ووصلت الآن الى قيام داعش بتشكيل افواج من الاطفال بتدريبهم حتى على قطع الرؤوس. ولأول مرّة ايضاً تم بيع اطفال العراق قبل خمس سنوات في دول الجوار واخرى اوربية، وأجبرت فتيات بعمر الصبايا على الدعارة، وعرضن للبيع في سوق النخاسه كالفضيحة التي بثها التلفزيون السويدي عام (2013).. لتصل الآن الى بيع الفتيات بعمر ست سنوات بمئتي دولاراً للأيزدية الواحدة!.

ومع كل هذه المصائب بين السياسيين من يعدّ موضوع الاطفال قضية ثانوية إزاء وطن منكوب وشعب موجوع مفجوع، مع انه أهم ثلاث قضايا الى جانب الامن والخدمات، لسببين: لأنهم اكثر الفئات الاجتماعية التي يجب ان تحظى بالرعاية في اوقات الازمات والكوارث، ولأن هذا الجيل الصامت الآن، والمأزوم نفسياً، هو الذي سيكون المتكلم الذي سيحدد مستقبل العراق.

لكن واقع الحال يشير الى انهم مهملون. والمفارقة ان المسؤولين في الحكومة ليسوا جميعهم جهلة، بل بينهم من جاء من مجتمعات متقدمة لا سيما المجتمع البريطاني.. يعرفونان الطفل في بريطانيا يخصص له راتب يوم يولد، يوضع في البنك ويستلمه حين يكمل السابعة عشرة مع الارباح المتراكمة، فضلاً عن تأمين صحي واجتماعي، فلماذا ما تعلموا هذا العمل النبيل من بريطانيا التي عاشوا فيها سنين ويحملون جنسيات تؤكد انتماءهم لمجتمع متحضّر؟

لا تفسير لهذا الاهمال سوى ان الذين صاروا بالسلطة وفّروا الرفاهية لأطفالهم وامّنوا مستقبلهم، وما عاد يعنيهم بؤس وشقاء ملايين الاطفال.. بل ان لديهم من قساوة القلب وموت الضمير ودناءة النفس انهم يسرقون مخصصات النازحين.. وعجبي كيف ان الممثلة الامريكية، انجلينا جولي، بكت حين شاهدت اطفالنا النازحين.. وما اهتزت شواربهم على اطفال اهلهم وكأن الغيرة العراقية.. مسحوها من جبينهم بورق التواليت.

اللعنة منّا عليكم.. مباشرة وبالوجه.. وأخرى مؤجلة.. تأتيكم من جيل الاطفال هذا يوم تغادرون السلطة والدنيا.

شخصية المثقف العراقي.. وتضخّم الأنا

لدي شك يتاخم اليقين بأن معظم المثقفين العراقيين الكبار مصابون بـ"تضخّم الأنا" وانه متورّم لدى عدد منهم. ومع إن هذه العلة موجودة على مستوى النخب: سياسيون، أكاديميون، فنانون، ورؤساء عشائر... لكنها تعلن عن نفسها بوضوح أكثر لدى المثقفين الكبار (وسنفرد مقالة خاصة عن الفنانين). واعتقد إن هذه العلة "تضخّم ألانا" مرض العراقيين المزمن، وإنها شائعة لدى العامّة منهم، وإلا لما ضربوا على أنفسهم المثل القائل: "إذا أنت أمير وأنا أمير فمن يسوق الحمير".

و"تضخّم الأنا" غير "قوة ألانا"، فالثانية حالة صحية نابعة من الثقة بالنفس والتقدير الموضوعي – الواقعي لقدرات وقابليات صاحبها، ومعبّرة عن الاعتزاز الإيجابي بالنفس واحترام الذات.

أما "تضخّم الأنا" فهو حالة عصابية "مرضية" لها أسباب متعددة (تراكم الشعور بالاضطهاد والاغتراب، وسنأتي عليها) ولكن العوامل المؤثرة والخفية في شخصية "الأنا المتضخم" إنها تجمع صفات في "توليفة" من ثلاث شخصيات مختلفة هي: النرجسية والتسلطية والاحتوائية. فهي تأخذ من الشخصية النرجسية حاجتها القسرية إلى الإعجاب.. أي إنها تريد من الآخرين أن يعجبوا بها بالصورة التي هي تريدها، وأن لا يتوقفوا عن المديح والإطراء. فحالها في الإعجاب كحال جهنم، يسألونها: هل امتلئت؟ تقول: هل من مزيد!. وتأخذ أيضا منها شعار النرجسي: "أنا مميز"، وخاصيتها الأساسية المتمثلة في الإحساس بتفخيم أهمية الذات، والتظاهر بامتلاك قدرات فريدة، وان على الآخرين أن يتعاملوا معه على أساس أنه مميز، وأن تقديمه على أنفسهم هو استحقاق لا يستوجب حتى الشكر منه!.

وتأخذ شخصية "الأنا المتضخّم" من الشخصية التسلطية، انفعالاتها الغاضبة واندفاعيتها، وتصنيفها الناس بثنائيات، وفي مقدمتها ثنائية الأصدقاء مقابل الأعداء، أي من كان معي فهو صديقي وما عداه فهو عدّوي، وتصرفها بالتعالي والعجرفة نحو من هم أقل منه منزلة (والمفارقة أنها تتصرف بتواضع شديد وانصياع وتملّق لأصحاب القوة والمال!).

وتأخذ من الشخصية الاحتوائية السعي إلى السيطرة على الآخرين واحتواء وجودهم المعنوي وأفكارهم، سواء بالإبهار أو بأساليب درامية أو التوائية.

و"الأنا" يمارس – لدى كل إنسان – ما نسميه الآليات أو الحيل الدفاعية، التي تعني:

استراتيجيات لا شعورية مشوهة للواقع يعتمدها الأنا لحمايته من القلق أو خفض القلق لديه عندما يرفض الاعتراف بواقع سواء كان خارجياً أم داخلياً. وعددها يزيد على أربعين آلية أو "تكنيك نفسي" مصنفة في سبعة أنواع لا مجال لذكرها هنا.

إننا جميعاً نمارس الآليات النفسية، والفرق الرئيسي بين الإنسان السوي والمصاب بتضخم الأنا، أن الأول يمارسها جميعها بمرونة في المواقف التي تستدعيها، فيما المصاب بتضخم الأنا، يمارس عدداً محدوداً نذكر منها ثلاثة:

- الإسقاط: ويعني ترحيل عيوب الأنا إلى شخص أو موضوع أخر. فإذا كانت "س" حسودة فإنها تنفي عن نفسها ذلك وتتهم زميلتها "ص" بممارسة الحسد. وتشيع آلية "الإسقاط" كثيراً بين المثقفين الكبار المصابين بتضخم الأنا. منها مثلاً ما حصل مؤخراً بين الشاعر الكبير سعدي يوسف ومثقفين كبار عندما تم تأسيس "المجلس العراقي للثقافة". والواقع أن شيوع "الإسقاط" بين المثقفين الكبار لا يقل سوءاً عن شيوعه بين قادتنا السياسيين.
- الحذلقة الفكرية: وتعني التلاعب بالأفكار والتمويه وإجادة صناعة الكلام. فالمثقف الكبير المصاب بتضخم الأنا حين يتحدث في موضوع معين فأنه "يبدع" في صناعة الكلام، في حال يشبه لاعب كرة السلة

المحترف.. يبهر الجمهور بلعبه في الساحة لكن معظم كراته تكون خارج الحلقة.

- العدوان: لدى المثقف الكبير المصاب بتضخم الأنا نزعة عدوانية صريحة أو ضمنية. فهو إذا انتقده أحد في أفكاره أو سلوكه بحق أو بدونه فأنه يشهر بوجه كل أسلحته، حتى لو كان ناقده صديقاً له. وغالباً ما تشيع بين المثقفين الكبار تهم "العمالة" لدولة أو لمخابرات معينة وقد تتعداها إلى النيل من الأخلاق والشرف.

ولدى شخصية "الأنا المتضخّم" حاجة قسرية إلى المبالغة والاستعراضية. فهو يطرح نفسه كما لو كان انسكلوبيديا عارفاً بكل شيء. فإذا كان اختصاصه النقد الأدبي مثلاً، تحدث في السيكولوجيا كما لو أنه فرويد.

وهو لديه عطش دائم إلى التفخيم، وانتقاء رموز وأوصاف دالة عليه، منها مثلاً، إذا كان أكاديميا يحمل مرتبة "الأستاذية" فهو لا يقبل منك أن تخاطبه بمفردة "أستاذ" أنما "بروفيسور"، وكأن لقب "أستاذ" يقلل من شأنه، فيما "بروفيسور" تعني عنده التميّز والاعتبار وعلّو الشأن، فضلاً عن أن في بروفيسور إشباع حاجة نفسية لديه "للتماهي" بالأجنبي.

وشخصية "الأنا المتضخّم" لديها حساسية شديدة نابعة من الشعور بالنقص. يذكر لي صديق "على ذمته" أن صدام حسين طلب إحضار خبراء اقتصاديين لمناقشة مشروع صناعي وكان بين الحاضرين حامل دكتوراه في الاقتصاد. وبعد أن شرح لهم فكرة المشروع وجاء الدور إلى الدكتور، قال كلمة "لا" عن فكرة طرحها صدام. ولما انفضّ الاجتماع طلب منه صدام البقاء في مكانه و"أندار" عليه فمسك به من "ياخة سترته" ورفعه إلى الأعلى وقال له: الذي يقول لصدام حسين "لا" لم تلده أمه بعد، وضربه بحذائه على مؤخرته باتجاه الباب. وشبيه بهذا الموقف يحدث كثيراً بين المثقفين الكبار المصابين بتضخم الأنا في الندوات ومجالس الشرب. ففي جلسة في نادي اتحاد الأدباء العراقيين ضمت الكاتب الكبير عزيز السيد جاسم، وجّه أحد الجالسين نقداً له لمقالة كتبها، فغضب المرحوم عزيز و"هفّه" بالبطل الذي أمامه!

المبدعون العراقيون
يموتون في الغربة

في شهر واحد (ابريل 2015) توفي الفنان المسرحي خليل شوقي في هولندا، وتوفي الفنان التشكيلي محمد مهر الدين في الاردن. وفي دمشق هنالك مقبرة خاصة بالعراقيين.. كتب على أحد قبورها.. الشاعر محمد مهدي الجواهري. في ليبيا توفي ودفن هناك اشهر عالم نفس عراقي في النصف الثاني من القرن الماضي.. دكتور نوري جعفر. وفي السويد توفيت في (1998) رائعة المسرح العراقي الفنانة زينب.. ولفّ نعشها بعلم عراق 14 تموز مكللاً بباقات الزهور تتقدمه دراجتان ناريتان وخلفه عراقيات وعراقيون بألوانهم المتعددة وشخصيات عالمية.. سياسية وفنية وثقافية، وصف موكبها في حينه بأنه لم تشهد السويد مثله. والفاجعة، ان معظم المدن العربية والاوربية تكاد لا تخلو مقابرها من مبدع عراقي في العلوم التطبيقية والانسانية والعسكرية والفنون الجميلة.

فلماذا يموت العراقيون المبدعون في الغربة؟

أن لا تكون للمبدعين مكانة في الزمن الدكتاتوري فتلك مسألة مفهومة، ولكن أن تتراجع مكانتهم في الزمن الديمقراطي فهذه قضية فيها نظر. ذلك أن النظام الدكتاتوري يرغم العقل المبدع على خدمته.. ولأن شخصية المبدع تنفر من الاتجاه التلسطي فانه اما أن يستجيب دفعاً للشر، أوالانكفاء على الذات، او يعيش حالة اغتراب عن نفسه والوطن قد تدفع به الى الانتحار (حدث هذا في دمشق وبيروت)، أو يهاجر الى بلد يحترم شخصه ويقدّر ابداعه. ومن يتأمل واقع العقول

العراقية المهاجرة يجد انها أنشأت جامعات وكليات في دول الخليج، اليمن، ليبيا، الجزائر.. وأسهمت بتطوير دول أوربية، وقدمت لمجتمعاتها خدمات تتطلب ابداعاً، اذ يذكر الكاتب خالد القشطيني أن الأطباء الموجودين في بريطانيا لو عادوا الى العراق لتوقفت الخدمات في المستشفيات البريطانية!.

والمفارقة ان زمن الديمقراطية فشل في اعادتهم كما فشلت الدكتاتورية، مع أن الدكتاتورية شرّعت لهم قانونا بأسم (الكفاءات) كان مجزياً مادياً.. وعادوا للعراق فعلا لكنهم اختنقوا.. فتركوا ما منح لهم من قطع أراض وسيارات وامتيازات، ورجعوا لبلدان الغربة التي رحبت بهم ثانية رغم انهم تركوها ليحققوا حلم وطن أحبوه.

وديمقراطيتنا فشلت ليس فقط في تهيئة الأجواء لعودة المبدعين، بل أن الموجودين منهم داخل الوطن صاروا بين من أخمد صوته كاتم صوت، او من اختار ان يجاهر بالحقيقة حاملاً كفنه على يديه بشجاعة المقاتل، أو من سار على خطى المهاجرين من قبله.

والمؤلم أن الباقين منهم تراجعت مكانتهم الوظيفية. فمعظم المراكز الرئيسة بمؤسسات الدولة تسند لا على أساس الكفاءة العقلية بل الانتماء الحزبي وولاءات الهويات الفرعية (عشيرة، قومية، طائفة..)، والمحاصصات، حتى صارت كل وزارة مؤسسة مستقلة عن الدولة يجري التعيين فيها على اساس هوية وزيرها والكتلة السياسية التي منحت لها. وصار التعيين بمؤسسات الدولة يفضّل حامل بكلوريوس من اهل الثقة على خبير دولي حامل دكتوراه في الاقتصاد، ولم يعد للمبدعين المستقلين دور فاعل على صعيد السلطة التنفيذية، فكان هذا أحد أسباب سوء الأدارة وشيوع الفساد بأنواعه الثلاثة السياسي والمالي والأداري بحالة تثير الخجل أن يحتل العراق الديمقراطي! المراتب الأولى بالفساد بحسب منظمة الشفافية العالمية.

وكما جرى في النظام الدكتاتوري باسناد عمادات الكليات في الجامعات الى المنتمين لحزب السلطة، فان هذه العمادات ورئاسات الأقسام العلمية اسندت غالبيتها للمنتمين الى الأحزاب الأقوى في السلطة من حديثي الخبرة، فيما

الأكاديميون المبدعون يكاد دورهم يكون مهمّشاً. ولهذا السبب فان الجامعات العراقية احتلت مراتب متأخرة في سلّم التقويم العالمي والعربي للجامعات.

وما يحز بالنفس، تراجع القيم الأخلاقية بحق المبدعين ايضاً. فقد شكا أكاديمي معروف بابداعه وخرّج أجيالاً أنه حضر مؤتمراً علمياً فأجلسه طالبه الذي صار (دكتورا) في الخط الثالث فيما طالبه هذا جلس بالخط الثاني.. لأنه يعمل بمكتب معالي الوزير. وأن مدير مدرسة من جيل المبدعين طرق كل ابواب وزارة(الـ...) من أجل نقل ابنته لمكان قريب من مسكنه.. وعجز، فنقلها شاب بعمر حفيده يعمل في "ميليشيا" أحد الأحزاب.. بيوم وليلة!. فضلاً عن ان ثقافة القبح جعلت ثقافة الأبداع في الموسيقى والمسرح والفن والشعر تتراجع داخل الوطن بمسافات عما كانت عليه قبل خمسين سنة!

ان الابداع صار اليوم هو المعيار لتقدم المجتمعات وتفوق الدول. فالدولة الأكثر احتراماً لمبدعيها وتوفيراً لفرص توظيف ابداعهم بخدمة المجتمع، هي الأكثر تطوراً وتحقيقاً لحياة كريمة لمواطنيها. ففي مقالته "الثورة الهادفة" أشار عالم النفس تورنس المتخصص بالابداع الى أن الولايات المتحدة بدأت منذ مطلع ستينيات القرن الماضي بثورة خفية في أهداف وطرائق التربية بتوظيفها نحو الحل الإبداعي للمشكلات، والتعبير الإبداعي أيضا، فيما اشار العالم الامريكي جيلفورد الى "أن صياغة طريقتنا في الحياة وضمان مستقبلنا يقومان على قدراتنا الابداعية على وجه الخصوص".. وقبله ما اشار أرنولد توينبي الى أن الأفراد المبدعين هم المصادر الأساسية في المجتمع. ونضيف لما قالوه ان قراءة التاريخ في مجالات السياسة والنظم الاجتماعية والعلوم التطبيقية والفنون.. تجعلنا نستنتج أن المبدعين هم الذين يغيرون العالم ومسار التاريخ أيضاً، بل وحتى تغيير الأنموذج الذي ننظر من خلاله الى الكون والأشياء والطبيعة البشرية، وقس على ذلك ما احدثه غاليلو وانشتاين وماركس وفرويد.

وما يحيرك أن تراجع مكانة المبدعين في زمن الدكتاتورية كان أحد أسباب انهيارها، وأن الديمقراطية التوافقية لم تلتقط العبرة ولم تدرك ان المبدعين في العراق طاقة هائلة في اعمار الوطن وتطوير العقول.. بل ان النظام الديمقراطي تقصّد

التضييق عليهم فهاجروا أو استكانوا بعد ان اعتمدت حكومات التغيير السابقة مبدأ (الأقربون وأهل الثقة) هم الآولى في مؤسسات الدولة.. وان كانوا لا يفهمون!.. وتلك احدى أهم اولويات ما ينبغي ان تقوم به الحكومة الجديدة.. منطلقة من حقيقة: لو اتيحت الفرصة لنصف مليون عراقي مبدع وعودة نصف مليون عقل عراقي مهاجر.. لجعلوا العراق جنّة، لأنه يمتلك ثلاث ثروات هائلة: تحت الأرض وفوقها.. وفي العقول.. فهل يفعلون؟

تخلخل قيم العراقيين.. كارثة خفية

توطئة في القيم

تعدّ القيم values من اكثر الموضوعات الـتي حظيـت باهتمـام العلمـاء والباحثين في العلوم الإنسانية القديمة والحديثة.

ففي الفلسفة هنالك ثلاثة وجهات نظر في القيم الأولى المثالية يرى مفكروها أن القيم ترتبط بالسماء وان الإنسان يستمد قيمه الكاملة والمطلقة (جمال، حـق، خير) من العالم المثالي السماوي الذي هو أبـدي وثابـت ومطلـق، علـى رأي أفلاطون. فيما ترى وجهة النظر الواقعية بأن القيم ترتبط بالعالم المـادي الـذي يعيشه الإنسان، وانه يستطيع أن يصل الى قيمه باستعمال العقل الذي يميـز لـه الجميل والقبيح. وان العلم والجمال والحق والأخلاق مصدرها العقل على ما يرى "كانت". أما وجهة النظر الفلسفية الثالثة فيرى أصحابها بأنه لا يوجد خير مطلـق أو شر مطلق فالأمر يتعلق بالموقف الذي يكون فيه الإنسان. فسلوكنا تجاه الأشياء هو الذي يحدد قيمتها، وهذا يعني أنه لا توجد للقيم صفات مطلقة، أي أن ما يهم الإنسان ليس القيمة بحد ذاتها إنما بالنتيجة المترتبة عليها، وبما أن النتائج نسبية فأنه لا يوجد خير مطلق ولا شر مطلق على ما يرى "جون ديوس".

واختلف علماء الاجتماع في رؤيتهم للقيم وفي ترتيبها من الأهم الى الأقـل أهمية واقترحوا مفهوم السلّم أو النسق القيمي الذي يعني مجموعة القيم المترابطة التي تنظّم سلوك الفرد وتصرفاته في ترتيب هرمي لما يتبناه الفرد ولما يحكـم سـلوكه، وهو ما نعنيه بالمنظومة القيمية. وتباين ترتيب محتوى المنظومات القيمية من مجتمع الى أخر. ففي المجتمعات الإسلامية، مثلاً تكون القيم على رأس هذه المنظومة. فيما تكون القيم المادية على رأسها في المجتمعات الغربية.

إن لهذه المنظومات القيمية وظائف اجتماعية ونفسية هامة، منها أنها تقـوم بربط أجزاء الثقافة في المجتمع لتبدو متناسقة وتعطي فهما عقلياً مشـتركاً لـدى أفراده، وتزودهم بمعنى الحياة وأساليب تحقيق الأهداف، وإصدار الأحكـام علـى الأفراد والأحداث والأشياء وما هو مرغوب فيه وما هو مرغوب عنه.

ويرى علماء الاجتماع أن تكامل الثقافة في مجتمع ما يعتمد علـى انسـجام القيم مع بعضها البعض في ذلك المجتمع في علاقة طردية، وان القيم هي الـتي لهـا التأثير الأكبر في ثقافة المجتمع، وان تأثيرها يعتمد على درجـة مرونـة النسـق أو المنظومة القيمية ومدى تماسكه حين يتعرض المجتمع الى تغيرات فكرية جديدة، أو أحداث كبيرة كالحرب مثلاً.

وكان أكثر المهتمين بالقيم هم علماء النفس الاجتماعي، وابتكروا مصطلحاً آخر هو "الاتجاه Attitude" وحددوا مضمون الاتجاهات بأنها معتقـدات Beliefs أو آراء Opinions.

بخصوص الناس والأشياء والأفكار، ووصفوا الاتجاه بأنه رأي إيجابـي أو سلبـي يتشكل اجتماعياً بخصوص شخص أو جماعة أو موضوع أو حدث يجعلنا نتخذ موقفاً فكرياً أو سلوكياً مع الشيء أو ضده، وفضلوا اسـتعمال الاتجـاه في الدراسات الميدانية، كون الاتجاه أقل تجريداً من القيمة، ولأنه يعّبر عن موقـف أو موضوع واحد أو عدد قليل من المواقف، ولأنه لا يحتاج الى خبرات كثيرة قياسـاً بالقيمة. واشاروا الى أن القيم ترتبط بالاتجاهات لأن تفضيلات الفرد للأشـياء أو الأشخاص يبنيها على اتجاهاته الأساسية التي تنبع من ثقافة المجتمع. ويخلصـون الى أن القيم مجموعة من التفضيلات لأحكام عقلية مرتبة بصيغة نظام معقّـد يطلـق تعميمات على الأشياء والجماعات والأشخاص بصورة صريحة أو ضمنية متوزعـة بين القبول والرفض.

غير أن علماء النفس يختلفون بشأن الكيفية التي تنشأ بها القيم، فعلى وفـق نظرية التحليل النفسي فإن الطفل في سنواته الست الأولى يستدخل معايير الوالدين وتنتظم لديه في مكوّن نفسي هو الأنا الأعلى يحتوي على القيم والتقاليد والضوابط والمعايير الاجتماعية.

ويرى علماء النفس السلوكيون أن اكتساب الفرد للقيم يعتمد على نوع التعزيز الذي يحصل عليه، فان حصل على تعزيز إيجابي (معنوي أو مادي) على فعل يحمل قيمة معينة "الصدق مثلاً" فان قول الصدق سيتحول الى سلوك لديه انطلاقا من مبدأ أن السلوك الذي يعزز فان احتمالات ظهوره تزداد عند التعزيز. ويكون اكتساب الفرد للسلوك الأخلاقي المرغوب فيه بنفس الطريقة التي يكتسب بها أي نموذج آخر من السلوك من خلال عمليتي التعلم الشرطي والإجرائي.

ويرى أصحاب نظرية التعلم الاجتماعي أن الفرد يكتسب القيم الإيجابية أو السلبية عن طريق ملاحظته للنماذج التي يحتك بها، وما يترتب على أفعالها من اثابات أو عقوبات، فهو حين يشاهد أنموذجاً يقوم بسلوك معين فانه ينتبه الى ما يترتب على هذا السلوك من نتائج (إثابة أو عقوبة) ويدرك أنه اذا قام بنفس السلوك فانه سيحصل على النتيجة نفسها.

أما علماء النفس المعرفيون فهم ينظرون الى القيم بوصفها عمليات عقلية تتضمن إصدارأحكام يتعلمها الفرد من محاولته تحقيق التوازن في علاقاته الاجتماعية المعتمدة على مستوى نموه العقلي. ويرون أن القيم أو (الأحكام الخلقية كما يفضلون) تتطور عبر مراحل من الطفولة الى الرشد تبدأ بمرحلة ما قبل الأحكام الخلقية وتنتهي بمرحلة تطور الضمير الشخصي لدى الفرد وقيمه الخاصة به وإدراكه أن ما هو صحيح أخلاقياً قد لا يكون بالضرورة صحيحا قانونياً.

وللقيم ثلاثة مكونات: معرفي يتعلق بادراك موضوع القيمة ومعالجته بعمليات عقلية توازن بينه وموضوعات أخرى، ووجداني يختص بالمشاعر المصاحبة للموضوع من قبول واستحسان وسرور أو رفض ونفور وألم، وسلوكي يتبدى بالقيام بفعل صريح دال على القيمة.

والقيم على أصناف: دينية، سياسية، اقتصادية، اجتماعية، معرفية وجمالية. وقد تكون القيم وسائل لتحقيق أهداف، وقد تكون أهدافاً بحد ذاتها، وقد تكون مثالية يصعب تحقيقها أو الزامية أو تفضيلية، وقد تكون صريحة يعبّر عنها بالكلام أو بالسلوك وقد تكون ضمنية يستدل عليها من فعل أو إشارة، وقد تكون عابرة تدخل وتغادر أو دائمة يمتاز بعضها بالقدسية.

أما مصادر اكتساب القيم فهي الأسرة أولاً، تليها المدرسة والمجتمع والأقران ووسائل الثقافة والأعلام. وقد تشترك جميعها أو عدد منها في ضخ قيم متشابهة وقد تختلف أو تتعارض فينجم عن الحال الأول منظومة قيم متسقة ومتماسكة فيما تكون في الحال الثاني متنافرة وغير مستقرة.

ويمكن تشبيه القيم بـ"اللاصق" الذي يعمل على تماسك الأشياء بعضها ببعض أو "الأسمنت" الذي يربط طابوق العمارة ويحافظ على هيكلها بتمثيل مجازي للأفراد والنظام الاجتماعي. ولكن هذا لا يعني أن "اللاصق القوي" أو "الأسمنت القوي" حالة جيدة اذا سحبنا الوصف على القيم في النظام الاجتماعي، كما أن ضعف المادة اللاصقة أو رخاوة المادة الماسكة ليس جيداً أيضاً، فالحالة الجيدة للمنظومة القيمية هي التي تمتاز بالمرونة التي تسمح بالتغيير الإيجابي والصلابة التي تحافظ على تماسك القيم الأصيلة، فحال المنظومة القيمية بالمجتمع كحال العمارة.. يمكنك إجراء تغيرات جميلة في هيكلها لكنها قد تنهار اذا أحدثت تغيرات في أساسها، بمعنى أن المجتمع الجيد هو الذي يحافظ على قيمه الإيجابية الأصيلة التي تعمل على التماسك بين أفراده ويكون مرناً في التعامل مع القيم الجديدة التي تفرزها الحضارة الإنسانية.

شارحة.. لمدخل

نرى، نحن المعنيين بالعلوم الاجتماعية والنفسية، أنه توجد في داخل كل إنسان "منظومة قيم" هي التي تحرّك سلوك الفرد وتوجهه نحو أهداف محددة بطريقة تشبه ما يفعله "الداينمو" بالسيارة. فكما أنك ترى السيارة تتحرك (وحركتها سلوك) ولا ترى الذي حرّكها "الداينمو" كذلك فأنت لا ترى "المنظومة القيمية" التي تحّرك سلوك الفرد. وهذا يعني أن اختلاف الناس: (رجل الدين عن رجل السياسة عن رجل الاقتصاد عن الفنان عن المنحرف عن الإرهابي...) يعود إلى أن المنظومة القيمية تكون مختلفة لديهم نوعيا وكميا وتراتبيا وتفاعليا. فالمثقف – في سبيل المثال – تكون منظومته القيمية حضارية النوع غزيرة الكم متراتبة منطقياً وهارمونياً ومتفاعلة بانفتاح مرن، فيما تكون المنظومة القيمية لدى المتعصب "القومية، مذهب، معتقد.." تقليدية ومحدودة

ومرصوفة ومتلاصقة وصلدة. والاختلاف بين الناس في منظوماتهم القيمية أحد ثلاثة أسباب رئيسة تؤدي إلى الاحتراب بين أفراد المجتمع الواحد. ومع أن تخلخل المنظومات القيمية لدى الناس وتهرؤ النسيج الأخلاقي للمجتمع قضية أخطر حتى من دمار وطن فإننا، الحكومة والبرلمان ونحن، لا نوليها من الاهتمام قدر اهتمامنا بالقضايا السياسية.

إضاءة.. من عالم كبير

في كتابه الذائع الصيت "To Have or to Be" شخّص عالم النفس والناقد الاجتماعي الكبير "ايرك فروم" وضع الإنسان بأنه تحول إلى سلعة تحكمه قوانين العرض والطلب والبيع والشراء. وكان يقصد بذلك الإنسان في الدول الصناعية الكبرى، وفي أمريكا تحديداً. وطرح في ذلك الوقت "نهاية سبعينات القرن الماضي" مفهوم (الشخصية التسويقية) ووصفها بأنها تقوم على ممارسة الشخص لذاته بوصفه سلعة، ولقيمته "قيمة تبادلية" وليس "انتفاعية". وأن الكائن البشري أصبح سلعة في "سوق الشخصيات" وأن معايير التقويم في هذا السوق لا تختلف عن نظيرتها في سوق السلع، في واحدة تعرض السلع للبيع وفي الأخرى تعرض الشخصيات للبيع أيضا. وصار نجاح الفرد متوقفا على كيفية عرضه لشخصيته بشكل يؤمّن له "صفة" مقبولة، وأن يكون لا كما يريد هو أن يكون بل كما يريد له المشتري أن يكون حتى لو اقتضى الأمر أن يتجرّد من قيمه الإنسانية.

استنتاجات

في ضوء هذه الإشارات العلمية نستنتج الآتي:

- إن طبيعة الظروف الاجتماعية لها الدور الرئيس في تشكيل المنظومة القيمية للفرد.
- إن غالبية أفراد المجتمع تضطرها ظروفها إلى أن يتحولوا إلى "سلع" بحسب قوانين العرض والطلب. (لأعمال التجارة مطلوب شخصية تسويقية، للقتل مطلوب شخصية تجيد فن القتل).

- تتباين المنظومات القيمية للأفراد بتباين الظروف والضغوط في مجتمعاتهم.
- إن إعادة أعمار المنظومات القيمية للناس: "الأخلاق، الضمير، الجيرة..." أصعب من إعادة أعمار وطن، لاسيما إذا أنتهكت في المجتمع قيمتا (الحياة والملكية).

الكارثة الخفية

تتوافر الآن عوامل الكارثة الخفية في المجتمع العراقي، نحدد أهمها بالآتي:

أولاً: إن أكثر من 50% من أفراد المجتمع العراقي ولدوا في حرب ونشئوا في حرب ويعيشون الآن أكثر من حرب. هذا يعني أن جيل الشباب بعمر 35 سنة فما دون يمتلك منظومات قيمية تختلف عن المنظومات القيمية لجيل الكبار. وأن الحروب (التي بطبيعتها تخلخل القيم وتفسدها خاصة إذا كانت طويلة ومتلاحقة وكارثية) والفقر والشعور بضياع العمر واليأس من المستقبل والخوف من المجهول.. وكارثة وفواجع ثلاثة ملايين مهجر (نازح) عراقي، شكّلت لديهم شبكة منظومات تتصدرها قيم الصراع من أجل البقاء والأنانية وتحليل ما يعدّ حراما أو غير مقبول في المعيار الأخلاقي للمجتمع العراقي. والذي يرجّح اكتمال الكارثة أن جيل الشباب قوة تتنامى حجما وفاعلية فيما جيل الكبار قوة تتآكل حجما وينحسر تأثيرها بتقدم الزمن.

ثانياً: أحدث النظام السابق تخلخلاً كبيراً في تركيبة المجتمع العراقي بأن أعاد توزيع الثروة وخلق تبايناً حاداً بين طبقتين: أقلية غنية مستحدثة وفقيرة كبيرة ابتلعت الطبقة الوسطى بكل مثقفيها وموظفيها بمن فيهم أساتذة الجامعة. ففي دراسة ميدانية لكاتب هذا الموضوع أجراها عام 1997 تبين منها أن مكانة الأستاذ الجامعي التي تحتل المرتبة الرابعة في قمة الهرم الاقتصادي للمجتمع العراقي (مع الطبيب والتاجر والمهندس) تراجعت إلى المرتبة الرابعة والعشرين بعد مصلّح الراديو والتلفزيون! وجاء المعلّم بعد الحمّال في رتبته بالهرم الاقتصادي! ومعروف أن التخلخل في الهرم الاقتصادي للمجتمع يفضي إلى تخلل في منظوماته القيمية.

ويحدث الآن ما يباعد أكثر في التباين الاقتصادي، فمعظم التجار ورجال الأعمال اضطروا إلى أن يهاجروا أو يوقفوا أعمالهم بعد انهيار الصناعة العراقية، وهجر البلد أكثر من أربعة ملايين، وهجّر في داخله قرابة المليون. ومع أن رواتب الموظفين تحسنت بعد التغيير وانعكست إيجابياً على وضعهم الاقتصادي ولكن ما حدث في السنتين الأخيرتين أنهم "أكلوا" الإيجابي و لم يعدهم إلى طبقتهم الوسطى..

مقابل هذا ظهرت فئة قليلة مستحدثة أيضاً تتجه نحو الثراء بشهية مفتوحة ممثلة بالحكومة وأعضاء البرلمان الذين وعدوا الفقراء بالرفاهية فزادوهم فقراً. فراتب رئيس البرلمان مثلاً أكثر من ستين مليون دينار بالشهر فيما المهجّرون لا يجدون قوت يومهم وقسم منهم ينامون مع أطفالهم في الحدائق العامة في حرّ تموز وآب اللهّاب. وصار عدد الأرامل والأيتام والجياع والثكالى والمهاجرين أكثر بأضعاف مما كانوا عليه في حروب صدام وحصاره. ومع ذلك تجد السياسيين من المعممين والافندية يتباهون بان الخلاص من الدكتاتورية لا يساويه ثمن حتى لو دمّرت بغداد وصار الوطن كله يتحنى بدماء أبناءه كل يوم ولأجل غير مسمى. وإذا صار معظم من يفترض فيهم أنهم القدوة والنخبة "بعمامة أو بدونها" منافقين.. اعني يمتدحون الواقع المعاش مع أن كل ما فيه كارثة، فأن النفاق بأصوله ومشتقاته سيكون قيمة مشاعة التداول بين الناس، بل أنه صار أمراً عادياً كما السرقة والاختلاس!.

ثالثاً: إن الذين بيدهم أمور الناس يمتلكون منظومات قيمية فيها من عوامل التضاد والتناشز أكثر مما فيها من عوامل التماثل والانسجام. ولهذا تأثيران سلبيان خطيران، الأول: تفكيك المجتمع في استقطابات من القيم المتصلبة، والثاني: اضطرار الفرد إلى أن يعرض نفسه سلعة في سوق السياسة الذي يجبره على التخلي عن قيمه الإنسانية والعمل بما يأمره به مصدره السياسي.

رابعاً: إن الوضع العام بالعراق طارد للذين يمتلكون منظومات قيمية صحية، بخاصة العلماء والمفكرين والمتدينيّن المتنورين والمثقفين والفنانين. وهذا يعني أن صراع القيم بالمجتمع العراقي سيكون بين المنظومات القيمية التي تؤكد على حاجات البقاء والاحتماء والمصالح البراجماتية والقيم الأنانية على حساب القيم الأخلاقية والإنسانية الرفيعة.

خامساً: إن العراق واقع تحت الاحتلال الأمريكي، وأن جورج بوش الأب كان قد قال في أوائل التسعينات: "إن القرن القادم (يقصد الحالي) ينبغي له أن يكون أمريكياً". وقبله قال الرئيس نيكسون: "يجب على أمريكا أن تقود العالم". وهو امتداد لقول الرئيس روزفلت في الأربعينيات: "إن قدرنا هو أمركة العالم". ولست معنياً هنا بالأمر السياسي للاحتلال إنما بالمجال الأخلاقي والقيمي، لأنني أرى أن الأمراض النفسية والاختلال في القيم والأخلاق التي شخّصها فروم في المجتمع الأمريكي انتقلت إلى المجتمع العراقي بعد أن صارت النوايا التي لمّح أو صرّح بها الزعماء الأمريكيون السابقون حقائق واقعة في العراق، فضلا عن أن الاحتلال هو بحد ذاته كارثة أخلاقية.

سادساً: أن العراق سيكون بوابة الشرق الأوسط الأوسع للعولمة وآلية جديدة للتصرف بثروات الشعوب، النفط والغاز. ولست معنياً هنا بالبعدين السياسي والاقتصادي للعولمة وما يكون لهما من إيجابيات بل فيما ستحدثه العولمة من تدمير أو تخريب أو اهتراء بالنسيج الأخلاقي، ليس بسبب ما تحمله العولمة من سلبيات بل أيضاً لأننا نتعامل معها في ظرف استثنائي وحالة نفسية غير مستقرة قد تفقدنا التفاعل الإيجابي معها. وهناك مؤشرات وأدلة تفيد أن العولمة قد زادت من وتيرة سلعنة القيم بالمجتمع وجعلت كل شيء مَعروضاً للبيع مقابل اجر معلوم بما فيها الذمم والضمائر والأجساد البشرية.

تدارك الحال

إن عوامل الكارثة الاجتماعية والأخلاقية تتفاعل الآن وتعمل بشكل خفي في المجتمع العراقي كما السرطان، وليس لإيقاف انتشارها سوى إجراءين:

الأول: أن تتولى أمور الناس حكومة يحمل وزراؤها منظومات قيمية صحية بكفاية مهنية عالية وحزم عادل، يعمل أعضاؤها بانسجام وتكامل يولّد القناعة لدى الناس بأنهم يخدمونهم حقا.

والثاني: وهو الأهم. إن نسبة كبيرة من الناس يعظّون الآن أصابعهم ندماً على إعطاء أصواتهم في الانتخابات السابقة لمن ظنوا أنهم يخدمونهم فخذلوهم.

وأنهم يتطلعون إلى بديل يمنحونه أصواتهم في الانتخابات القادمة. وأفضل بديل هو أن يتوحد التكنوقراط والمثقفون في قائمة باسم (قائمة التكنوقراط والمثقفين) تظم أشخاصا يجمعهم الانتماء للعراق وبرنامج علمي وعملي لخدمة النـــاس واعمـــار الوطن، وعليهم من الآن التعريف بأنفسهم وبرنامجهم.

وبدون هذين الإجراءين فأن النخر في المنظومات القيمية، التي تلقت ضربات موجعة من النظام السابق والاحتلال والحكومات الثلاث، سيأتي على ما بقي قائماً من أعمدتها ليبقى إعلان الكارثة عن اكتمالها (انهيار القيم والأخلاق وتهرّؤ النسيج الاجتماعي) مسألة وقت ليس إلا.

ثقافة القبح

لفت انتباهي مقالة للكاتب العراقي رشيد الخيون وأخرى للكاتب الامـــاراتي سالم حميد، تناولتا حالتين تحدثان في مجتمعين بنظامين مختلفين (العراقي والسعودي) دعا المتطرفون فيهما الى تحريم الموسيقى والغناء، وقام المؤتمرون بأمرهم بتنفيذ ذلك على صعيد السلطة!.

والمفارقة ان الضدين اللذين يختلفان حتى في أبسط الأمور اتفق المتطرفون في كليهما على تحريم ما هو جميل: (فالغناء حرام، والموســيقى حــرام، والمســرح والسينما حرام، والادب حرام، والشعر حرام، والانترنت حرام على المرأة من دون محرم، والتصفيق حرام، والقهوة حرام لأنها لم تكن معروفة في صــدر الاســلام!) والنص منقول من مقالة الكاتب الاماراتي دكتور سالم التي يصف فيها ما يدعو له تيار ديني متشدد في المجتمع السعودي.

وفي عاصمة الثقافة العالمية.. بابل أقيم في 2010 مهرجان عالمي دعـــي اليـــه فنانون قدموا من انحاء العالم. غير ان محافظة بابل اتخذت قراراً بمنع الاحتفـــالات بحجة ان (المدينة لها طابعها الاسلامي) ولأنهم يرون (ان الجسد عوره وان الغنـــاء رجس من عمل الشيطان) بتعبير الاديب مالك المطلبـــي، فيما عدّ الدكتور الخيون هذا المنع (مؤشراً لمصادرة الديمقراطية بالديمقراطية نفسها). والشيء نفسه حـــدث في البصرة، اذ منع مجلس محافظتها فريق مونتكارلو للسيرك من تقديم عروضه برغم انهم ألبسوا الراقصات ثيابا محتشمه!.

لا نريد التذكير بأن الموسيقى ولدت اصلا في سومر، وان أول اغنيـــة حـــب في تاريخ البشرية كتبت في سومر، وأن كبار فلاسفة الاسلام: الفارابـــي، الكندي، ابن سينا... أحبوا الموسيقى وكتبوا فيها، وان الحضارة الاسلامية مـــا ارتبطـــت بتحـــريم

الموسيقى. ولكن لنتصور عالماً بلا غناء، بلا موسيقى، بلا سيد درويش الذي ما تزال ألحانه تعيش بيننا منذ عام 1917، بلا عبد الوهاب، ام كلثوم، عبد الحليم، السمباطي، بليغ حمدي، الرحابنه، فيروز، جورج وسوف، داخل حسن، ناظم الغزالي، رياض احمد، ياس خضر.. كيف سيكون؟!. الجواب: لا يطاق.. وكل شيء لا يطاق يعني أنه معدوم الجمال. فما الذي جمع الضدين المتطرفين في اتفاقهما على تبني ثقافة القبح.. مع أن الموسيقى والغناء للروح البشرية كما الحدائق الملونة بالورود والعطور للطبيعة؟!

والتحليل: ان كل تطّرف أيّا كان نوعه: ديني مذهبي، عرقي... مأزوم سيكولوجيا بثلاثية (الكره والحقد والانتقام) ومن تتحكّم به هذه النزعات تجبره على معاداة ما هو جميل.. في روح الانسان وشكله ايضا. فالمرأة، في رأيهم، يجب أن تتشح بالسواد من قمة رأسها الى حيث يلامس الأرض ثوبها، والرجل عليه أن يقصّر ثوبه ويطيل لحيته حتى لو امتدت متراً. وأغاني الأفراح بمناسبات الزفاف يجب أن تستبدل بأناشيد دينية، واستخدام الآلات الموسيقية يجب أن يكون في الأحزان فقط.

ولهؤلاء نقول: هل تصدّقون أن الأبقار التي يسمعونها موسيقى تدرّ كميات وفيرة من الحليب وتمتاز بقيمة غذائية، وأن حقول البطاطس المزودة بأجهزة تصدر أصوات موسيقى كلاسيكية أعطت محصولاً أكثر جودة من حقول البطاطس التي نمت بدون موسيقى؟!

هذا ما فعلته الموسيقى بالحيوانات والنباتات فما بالكم بما تفعله بالانسان!. قد لا تصدقون (مع أنه مثبت علمياً) أن تأثير الموسيقى في الانسان يبدأ من كونه جنيناً في الشهر الرابع للحمل! وأنها تؤثر ايجابياً في صحة الطفل ووزنه وصحة الأم وسلامتها. وأن المرضى الذين يعانون آلاماً شديدة بالمفاصل ويشكون صعوبة الحركة والاضطرابات النفسية، انخفضت آلامهم وتحسنت حالتهم النفسية وقدرتهم على المشي بعد سماعهم الموسيقى الكلاسيكية لثلاثة أشهر!. وأن دراسة صدرت حديثا توصلت الى أن للسعادة أربعة شروط.. أحدها الاستماع للموسيقى!.

وأضيفوا الى ما يصعب عليكم تصديقه، ان ثقافة القبح تقصّر العمر فيما ثقافة الجمال تطيله، لأنها تشيع الحب بين الناس وتجعلهم أكثر تعلّقا بالحياة.. فلماذا تشيعون ثقافة القبح مع أن الله جميل يحب الجمال!.

علي الوردي
ذكريات ومخطوطات ومواقف نقدية
بخصوص الشخصية العراقية

تعريف.. لجيل ما بعد الوردي

الدكتور علي الوردي هو أبرز عالم اجتماع عراقي في القرن العشرين، وأول من درس طبيعة المجتمع العراقي وحلل الشخصية العراقية وحظي بشهرة يستحقها. ولد عام 1913 بمدينة الكاظمية ولّقب بالوردي نسبة لجده الذي كان يمتهن حرفة تقطير ماء الورد. عمل في طفولته صانع عطّار بمحلة شعبية بالكاظمية، لكن العطار استغنى عنه لأن الصبي عليّا "يقره كتب ومجلات وعايف المشتريه".

تخرّج في الدراسة الاعدادية وعمل لسنتين معلماً باحدى مدارس الكاظمية.. سافر بعدها الى أمريكا ليحصل على شهادتي الماجستير والدكتوراه من جامعة تكساس عام 1950 وعاد للعراق بالسنة نفسها وعيّن مدرّساً لعلم الاجتماع بكلية آداب جامعة بغداد، وظل فيها الى عام 1972حيث أحيل على التقاعد.

تأثر الوردي بمنهج ابن خلدون، وعن (مقدمته) كانت اطروحته للدكتوراه.. وتنبأ له علماء اجتماع اميركان بشأن عظيم ومنهم رئيس جامعة تكساس.. وقد صدقت نبؤتهم. فبعد عودته للوطن بسنة أصدر كتابه (شخصية الفرد العراقي1951) أتبعه في عقد الخمسينيات بمؤلفات أصيلة بينها: مهزلة العقل البشري، أسطورة الأدب الرفيع، الأحلام بين العقيدة والواقع، وكتابه الذي أزعج السلطات الحاكمة (وعّاظ السلاطين) واثار عليه حفيظة رجال الدين ايضا لأنه

وصفهم بانهم لم يستطيعوا مجاراة التغيير الفكري الذي حصل في العصر الحديث.

وفي الستينيات أصدر: دراسة في طبيعة المجتمع العراقي، لمحات اجتماعية في تاريخ العراق الحديث-12 كتاباً أنجزها بين عامي 69-1979، ومنطق ابن خلدون في ضوء حضارته وشخصيته 1978- تونس، فضلا عن بحوث مبكرة أصيلة بينها (الأخلاق.. الضائع من الموارد الخلقية) نشرته مجلة (الأحداث-1959) الصادرة عن الجامعة الأمريكية في بيروت.

ومن بداية عمله الأكاديمي في الخمسينيات صار الوردي قلقاً على مصير العراق ومستقبل المجتمع العراقي. وكان الصوت الاجتماعي الوحيد في زمن كانت فيه الثقافة العراقية موزعة بين ايديولوجيات وتيارات قومية ويسارية واسلامية وأدب وشعر، فيما كان هو يغرّد خارج سرب الثقافة. والمفارقة ان السياسيين والمثقفين أخذوا يحضرون ندواته، ويتكاثر عددهم، فشغلهم بأفكاره التي أدهشتهم وسحرهم بجزالة لفظه ورشاقة اسلوبه.

وكان يرى أن فهم المجتمع ونجاح السياسة في العراق يمرّان عبر بوابة (الشخصية العراقية) فخصص لها كتابه (شخصية الفرد العراقي) ممهداً بتوضيح مفهوم (الشخصية) استغرق نصف صفحاته لكون الموضوع جديداً على العراقيين.. مشيراً أن ابن خلدون كان رائدا بمحاولته دراسة شخصية الانسان لا على اساس المواعظ والارشاد كدأب من قبله بل بتحليل تاريخي اجتماعي موضوعي. وكان الوردي أول من حلل بعمق نظرية ابن خلدون وشخصها بأنها تدور بالأساس (حول البداوة والحضارة وما يقع بينهما من صراع). والتقط منه مقولته التي وصف بها البدو بأن "رزقهم في ظلّ رماحهم" معلّقا بأن "البدو لا يعرفون من دنياهم غير الفروسية والفخار والغلبة والتنافس". ووظف ذلك بمنظور حضاري على مجتمعه منبّها ومحذّراً السياسيين والناس بقوله: "ولعلني لا أغالي اذا قلت ان مجتمعنا الراهن هو من أكثر المجتمعات في العالم تأثراً بالقيم البدوية في محاسنها ومساوئها. ولعل المساوئ البدوية اوضح أثراً فيه من المحاسن.. فقد وجدت العشائر الريفية لا تزال تسلك في الحياة مسلكاً يقارب مسلك أجدادها من بدو الصحراء، فلديهم قيم العصبية والمشيخة والدخالة والضيافة

والثأر". وبرغم أنه قال هذا قبل نصف قرن فانه الآن أوضح مما كان عليه في زمانه!.

والمخجل ان الوردي يوم توفي في 13 تموز 1995 لم يجر له موكب تشيع يليق بعالم كبير بل اقتصر على المقرّبين.. فيما ودّعه زملاؤه ومحبوه.. صمتاً.. وعن بعد!.

* * *

أولاً: ذكريات علي الوردي.. الساخر الفكه

تعود علاقتي بالدكتور علي الوردي إلى عام "1989". ففي تلك السنة كان على رأس وزارة التعليم العالي وزير مثقف بثقافة فرنسية محب للأدب والثقافة والفلسفة، هو الدكتور منذر الشاوي. وكان من نشاطاته الثقافية أن اصدر جريدة معتبرة باسم "الجامعة"، المؤسسون لها ستة بينهم: حسب الله يحيى، الدكتورعامر حسن فياض، الدكتور فجر جوده، الدكتور منذر الخطيب، وأنا مسؤول "الصفحة الأخيرة".

وثمة موقف أعيد قوله عن رجل القانون الدكتور منذر الشاوي.

كنت أكتب عموداً ساخراً بالصفحة الأخيرة وجد له هوى في نفسه، فاستدعاني إلى مكتبه واطرى عليه واصفاً العمود الساخر في الصحافة بأنه اصعب المقالات واكثرها مقروئية، وطلب مني أن أطوره. فسألته بكلمة واحدة: (وتضمنّي؟!).. ضحك بمزاج وأسند ظهره على كرسيه الهزّاز وقال: (والله تبقى أنت وحظك، لو للقمّة لو للأمن العامة).

وكنت خططت اجراء حوارات مع الرموز العلمية والثقافية لأعمل ارشيفاً لمفكّري العراق ومبدعيه فبدأت بأول وزيرة للتعليم العالي في العراق الدكتورة سعاد إسماعيل وزرتها في بيتها على نهر دجلة قريباً من الصليخ. وكان هدفي الثاني هو الوردي الذي زرته بداره الواقعة خلف إعدادية الحريري للبنات في الأعظمية، واجريت معه حواراً نشر المسموح به في حينه مع صورة كاريكاتيرية بريشة الفنان "علي المندلاوي". وسألني عن باقي الحوار، فأجبته: "إذا نشر يا دكتور فسيكون

طريقك لبو زعبل"، فرد مازحاً: "والله إذا أنا وأنت سوا.. يا محلاها". وتطورت العلاقة إلى صداقة وزيارات في بيته.

وكنت قبلها اجريت دراسة ميدانية بعنوان: (البغاء.. أسبابه ووسائله وتحليل لشخصية البغي) تعدّ الأولى من نوعها في العراق والعالم العربي من حيث نوعية ادوات البحث والاختبارات النفسية، وعدد البغايا والسمسيرات اللواتي شملهن البحث. ففي ذلك الوقت كانت وزارة الداخلية القت القبض على اكثر من (300) بغيا وسمسيرة من عموم محافظات العراق تراوحت أعمارهن بين 17 الى 55 سنة بينهن من لهنّ علاقات بمسؤولين كبار!.

وحين انجزت الدراسة، دعت وزارة الداخلية اكاديميين وقضاة لمناقشتها في ندوة خاصة بها بينهم الدكتور علي الوردي. وبعد انتهاء المناقشة سحبني الوردي من يدي (على صفحه) وقال لي: "دراستك هاي عن الكحاب تذكرني بحادثة ظريفة. في الأربعينات ناقشت الحكومة موضوع فتح مبغى عام في بغداد، وعقدت لقاءاً ضم كلاً من الوصي ونوري سعيد ووزير الداخلية ووزير الصحة ومدير الأمن العام. فاتفقوا على الفكرة لكنهم اختلفوا على المكان، بين الباب الشرقي وساحة الميدان. وكان بين الحاضرين شخص مصّلاوي يجيد فن النكته فقال لهم: ان افضل مكان للمبغى هو الميدان والما يصدّق خل يروح يسأل أمّه!".

ضحكنا.. وخاطبت عيناه عينيّ بتعليق: ماذا لو قالها احدهم الآن! لأفرغ مسدسه في قائلها والمبتسمين فيما الوصي ونوري السعيد ووزير داخليته ومدير امنه العام.. استلقوا على ظهورهم من الضحك!.

والوردي يجيد فن اختيارعنوان موضوعه ويعرف فن استخدام مقولة (العنوان ثريا النص)، فحين سألته عن بدايات حياته اختصر الاجابة بعنوان: (من الحمير.. الى الجامبو!).. مبيناً انه كان في بداية حياته يسافر على ظهور الحمير ثم اتيح له ان يسافر بطائرة الجمبو.. وختم جوابه بأنه كان في صباه صانع عطّار براتب شهري قدره خمس روبيات (ثم صرت الآن مؤلفا اتحذلق على الناس بأقاويل لا يفهموها.. واطلب منهم أن يفهموها!).

وكان ان زادت حالات الانحراف الجنسي في العراق في اربعينيات وخمسينيات القرن الماضي فعزاه الوردي الى الانفصال الشديد بين عالم الرجل وعالم المرأة آنذاك، واستشهد بأن اغانينا تخاطب الحبيب بلفظة المذكّر وان اغلب اشعارنا الغزلية نؤاسية.. هائمة بنفس الحب الذي هام به ابو نؤاس!. وليته يشهد الآن دعوات جهات حكومية وبرلمانية الى عزل الأناث عن الذكور في المؤسسات التعليمية في زمن المحمول والفيس بوك.

وكان الوردي يحن للأيام التي كان (آباؤنا) يعيشون فيها. ومن سخرياته المريرة قوله: (لو خيرت بين حالتي الأولى عندما كنت معدما ولكني املك ايمان العجائز وهذه الحالة التي انا فيها الآن "تسعينيات القرن الماضي" لفضلت الحالة الأولى، لأن الايمان القوي يسبغ على الانسان طمأنينة نفسية يندر ان يحصل عليها المترفون من أرباب الملايين!).

وكنّا نحرص في الندوات العلمية التي نعقدها ان يكون الوردي أول المتحدثين، فوجدت الرجل يتحدث لدقيقتين ثم يقول: "عذراً فأنا أعاني من وعكة صحية"، فهمست إحدى المرات في أذنه: "وعكة صحية لو أمنيه"، فأجابني همساً "استر عليّ لا توديني بداهية".. أدركت بعدها انه كان يهرب إلى الوعكة الصحية لحظة تغصّ الحقيقة في زردومه وتريد أن تخرج، فالرجل كان مرعوباً من (صدام حسين)، وله الحق.. فهو أسمه علي حسين الوردي وكظماوي وصاحب كتاب وعاظ السلاطين، واخطرها انه ابلغ بأن (السيد الرئيس غير مرتاح لما كتبته).. وصدام أطعم كلابه لحم أقرب الناس اليه!.

كانت آخر مرة زرته بها في بيته حين كان مريضاً. جلست بجانب سريره المتواضع وتمنيت له الشفاء العاجل والعمر الطويل، فقال وهو يحدس أنها النهاية: (أتدرى ماذا يعوزني الآن: إيمان العجائز)، ولم افهمها إلا بعد حين. وأضاف مازحاً: "تدري آني ما احب الماركسيين.. بس ما اعرف ليش احبك.. تعال انطيني بوسه".. قبلّته وكادت الدمعة أن تطفر.

ومن سخرياته الموجعة أن أقيم له قبيل أن يموت حفل تكريمي (شكلي) فبعث ابنه وقال من على المنصة: يبدو أن والدي لا يكف عن المزاح حتى وهو على

فراش المرض.. فقد كلفني ان انقل لكم بيتاً واحداً من الشعر:

(جاءت وحياض الموت مترعة... وجادت بوصل حيث لا ينفع الوصل!)

وللأسف.. فحتى مدينته (الكاظمية) لم تفه حقه.. مع ان فيها مسؤولين كباراً من ابناء طائفته.. بينهم نائب كان معدما بنى على ضفاف دجلة من جهة مرقد الامام.. بيتاً لنفسه بملايين الدولارات!.

ان استذكار الوردي الآن ينبهنا الى حقيقة أزلية.. هي ان الطغاة زائلون والعلماء خالدون!.

* * *

ثانياً: مخطوطات بخط يده

توطئة:

في العام (1989) اصدرت وزارة التعليم العالي جريدة بعنوان (الجامعة) يرأس تحريرها وزيرها حينذاك الدكتور منذر الشاوي، وكنت مسؤول الصفحة الأخيرة فيها فخططت ان اعمل ارشيفاً لمفكّري العراق ورموزه العلمية والثقافية عبر لقاءات تستنطق الذاكرة وتحاور الافكار، فكان الوردي ثاني من ابتدأت به بعد تلاه أول وزيرة للتعليم العالي.. الدكتوره سعاد اسماعيل.

كنت قبلها التقيت الوردي (1913ـ 1995) في ندوة عقدت لمناقشة دراسة ميدانية بعنوان: (البغاء: اسبابه ووسائله وتحليل لشخصية البغي) طبقّت فيها اختبارات نفسية على (77) بغياً وسمسيره، كانت وزارة الداخلية القت القبض عليهنّ في حملة حصيلتها أكثر من (300) من عموم محافظات العراق، اشرنا لها في اعلاه. وانفتحنا على بعضنا.. فرحت ازوره بين حين وآخر في داره الواقعة خلف اعدادية الحريري للبنات في الاعظمية، نتحاور واستزيد من علمه الذي كنت (كأي عراقي) مبهوراً به قبل ان اتعرّف عليه. وكنت، حين اختلف معه في الرأي، اطرحه بما يجلي الغموض عندي ويزيد المعرفة من عالم فذّ كان في عطائه كنخلة أعثقت بما هو شهيوطازج.. لكن الرعب حينها اوقفه من طرح ثمارها يوم ابلغوه أن (السيد الرئيس غير راض عنك). وأظن أن من بين ما أثار عدم رضاه قول

الوردي ان القيم البدوية والعشائرية التي أوجدتها حاجة البقاء في محيط الصحراء القاسي هي التي تتحكم في سلوك أغلب العراقيين، وأن القيم المتمدنة لديهم سطحية وهشّة، فحسبها (الرئيس) أنها تعنيه أو مشمولا بها. وقد صدق الرجل اذ اعتمد النظام في العقد الأخير من حكمه القيم العشائرية وأنشأ (شيوخ أم المعارك). وأحالوا الوردي على التقاعد من عمله بجامعة بغداد، فاعتكف بيته لا يغادره الا تلبية لندوات علمية محدودة، كان حين تعطى له الكلمة يتحدث لدقيقتين ثم يقول (اعتذر لأن عندي وعكة صحية).. وما كانت وعكة، بل الحقيقة حين تغادر مستقرها في أعماقه وتصل فمه!

في أدناه (الحلقة الأولى) من هذه الأوراق التي احتفظت بها (25) عاماً.. وثيقة من عالم كبير.. ما أحوجنا اليه الآن، بالرغم من ان السياسيين لن يستمعوا له، حتى لو جاء مصطحباً معه.. ابن خلدون!

* * *

المخطوطة الأولى

(من الحمير... الى الجامبو)

س: أرجو أن تحدثنا عن قصة حياتك من طفولتك حتى الآن، برواياتك انت لتكون مرجعاً، وما هو شعورك الآن بعدما بلغت سن الشيخوخة؟!

ج: كتبت ذات مرة مقالا" في احدى الصحف بعنوان: (من على ظهور الحمير الى الجمبو). وكنت اقصد به انّي في بداية حياتي سافرت على ظهور الحمير ثم أتيح لي أن أسافر بطائرة "الجمبو" وهذا المقال يصوّر سيرة حياتي وحياة مجتمعي تصويراً واضحاً.

- انّي من مواليد العهد العثماني، فقد ولدت في عام 1913 وشهدت هذا التطور الهائل الذي حدث في العراق حيث تحوّل المجتمع به من وضع القرون الوسطى الى العصر الحديث. ومما يلفت النظر أنني أنا شخصياً قد تحولت حياتي بما يشبه التحول الذي مرّ به العراق. فقد كنت في صباي صانع عطار براتب شهري قدره خمس روبيات (375 فلساً)، ثم

صرت الآن مؤلفاً اتحذلق على الناس بأقاويل لا يفهمونها وأطلب منهم أن يفهموها.

- اني مشغول الآن بكتابة مذكراتي، وهي ستكون ذات جانبين، أحدهما أتحدث فيه عما جرى في المجتمع من تحول عجيب، والآخر أتحدث فيه عما جرى لي أنا من تحوّل أعجب منه.
- اني ما زلت أتذكر تلك الأيام التي كنت أعمل فيها صانعاً في دكان عطار من شروق الشمس حتى الساعة الواحدة بعد الغروب. وحدث لي في عصر أحد الأيام أنّي ذهبت الى شاطيء النهر في مهمة كلفني بها "استاذي" العطار، فرأيت المقاهي وصوت الحاكى يلعلع بأغاني محمد القبنجي ورشيد القندرجي وبدرية انور. وقد أثار هذا المنظر دهشتي وأخذت أسائل نفسي: (كيف يكسب هؤلاء الناس رزقهم ومن اين يعيشون؟). فقد كنت أتصور ان كسب الرزق يضطر الانسان الى العمل من شروق الشمس الى ما بعد غروبها، وليس من الممكن لشخص يريد أن يكسب رزقه وهو جالس في المقهى عصراً يستمع الى الاغاني.
- ثم دارت الايام بعد ذلك، فوجدت نفسي قد صرت من المترفين، وأخذت أصول وأجول راكضاً وراء الدنيا، ونسيت أني كنت قبلئذ من المساكين (كتبها اولاً: من أبناء الصعاليك وشطب عليها). وتلك الايام نداولها بين الناس – كما ورد في القرآن الكريم!.
- ان مذكراتي تخلو من السياسة، في الغالب، وهي تختلف بذلك عن المذكرات التي صدرت في العراق. فالذين كتبوا تلك المذكرات كانوا من رجال السياسة وكان غرضهم من كتابة المذكرات تبيان وجهة نظرهم في الأحداث السياسية التي شاركوا فيها أو عاصروها. أما مذكراتي فليس فيها من ذلك الا قليلاً.
- اني لم اشارك في الأحداث السياسية، فان مزاجي لا ينسجم مع السياسة. اني أحب أن اكون متفرجاً فيها لا مشاركاً. ولكل انسان مزاج خاص به، وليس للانسان يد في صنع مزاجه كما لا يخفى.

- حاولت في مذكراتي أن اتحدث عن السياسة بصفتي متفرجاً عليها. ولا حاجة بي الا القول ان الاحداث السياسية لها جانب اجتماعي، ولهذا سوف يجد القاريء في مذكراتي شيئاً من التحليل لبعض أحداث السياسة، انما هو تحليل من وجهة نظر اجتماعية – والله المستعان على كل حال!
- أعود الآن الى سؤالك عن شعوري في مرحلة الشيخوخة التي أمرّ بها، وهو سؤال لا يخلو من شيء من الاحراج لي.
- اني اشعر الآن بالتذمر. وهناك سببان أو ثلاثة لهذا التذمر لا مجال هنا لذكرها، وسوف يجد القاريء تفصيلاً لها في مذكراتي. قد يكفي هنا أن أقول اني فقدت ايمان العجائز الذي كان متوافراً في الاجيال الماضية.
- ليس في مقدور شخص يعيش في هذه الحضاره الصاخبة، ويطلع على ما فيها من تطور علمي، أن يظل محافظاً على ايمان العجائز. فان هذا الايمان لا يتوافر الا في البيئات الراكدة المنعزلة، وهي البيئة التي كان أباؤنا يعيشون فيها.
- اني لو خيرّت بين حالتي الاولى عندما كنت معدماً ولكني املك ايمان العجائز وهذه الحالة التي انا فيها الآن لفضلّت الحالة الاولى. فان الايمان القويّ يسبغ على الانسان طمأنينة نفسية يندر أن يحصل عليها المترفون من أرباب الملايين!.

توثيق: اهديت هذه المخطوطة الى مؤسسة كلاويز الثقافية في مهرجانها عام 2013 واستلمها مني (ملاّ بختيار) امام جمهور الحاضرين، وطلبت منه ان توضع خلف زجاج في معرض المؤسسة الثقافي بمدينة السليمانية. ونشرت جريدة المدى بقلم مراسلتها غفران حداد، ما نصه:

"سلّم الدكتور قاسم حسين صالح، وسط تصفيق الحضور وتغطية اعلامية كردية وعربية، الأستاذ ملاّ بختيار والأستاذ نوزاد احمد رئيس مركز كلاويز الثقافي من الدكتور قاسم حسين صالح مخطوطة من (11) صفحة مكتوبة بيد الدكتور علي الوردي.

وقد جاء في كلمة الاهداء التي القاها الدكتور قاسم امام المشاركين بمهرجان كلاويز بمدينة السليمانية، ان هذه المخطوطة هي من حوار صحفي اجريناه مع الوردي عام 1989 في داره الواقعة خلف اعدادية الحريري بمدينة الأعظمية.. وقال:

المؤلم ان الوردي الذي يعد ابرز عالم اجتماع عراقي في القرن العشرين، عاش مضطهداً زمن النظام الدكتاتوري ومنسياً في زمن النظام الديمقراطي. فالذين جاءوا بعد التغيير وكانوا لا يملكون ثمن تذكرة الطائرة.. بنوا القصور بملايين الدولارات في مدينة الكاظمية و لم يقيموا له نصباً تذكارياً فيها.. مع انه ابن الكاظمية..".

* * *

المخطوطة الثانية

كلام في المرأة

توطئة:

في هذه الحلقة أردنا أن نعرف رأي الوردي في المرأة وهو يقترب من العقد الأخير للألفية الثانية، ونوازنه برأيه فيها بداية خمسينيات القرن الماضي، اذ لاحظ الوردي آنذاك وجود ظاهرة في العائلة العراقية أسماها (التجزؤ).. أي انقسام في أسلوب الحياة بين الرجل والمرأة والطفل.. وأنه قلّ أن نجد في هذه الدنيا مجتمعاً تجزأت فيه العائلة مثل هذا التجزؤ البليغ، حيث الطفل يذهب الى الزقاق يتسكع مع اقرانه، والمرأة مجالها البيت لا ينبغي أن تحيد عنه، والرجل مجاله في اوقات فراغه المقهى. ويضيف، أن العراق مشهور بمقاهيه، وهي على كثرة عددها تغص بالرجال. ويرى أن سبب هذه الظاهرة حجاب المرأة أولا، وتعالي الرجل عن المكوث معها في البيت ثانياً.. لأنه نشأت عندنا قيم تجعل من المرأة جنساً أقلّ منزلة من الرجل وأضعف عقلاً بحيث يشعر الرجل ازاءها بالتعالي والكبرياء.. فاذا علم الناس برجل يكثر من المكوث في بيته مع امرأته وأولاده.. أتهم بالتخنث، على حدّ وصفه.

ويعزو الوردي هذه القيم الى البداوة.. وأن المجتمع البدوي مجتمع غزو وحرب، والرجل وحده هو الذي يقوم بمهمة الحرب والنضال، اما المرأة فتعتبر مهمتها أخفض درجة من مهمة الرجل ولذا ينظر اليها بعين الاستصغار والمهانة. وبسبب ذلك فقد تعودت المرأة أن تقبع في بيتها وأن تعتقد بفضل ذلك ودلالته على العفّة والشرف، فهي قد لقنّت منذ الطفولة على أن تكون محجبة لا تخرج من البيت الا عند الضرورة القصوى.

وكان الوردي يرى أن هذا الانفصال الشديد بين عالم المرأة وعالم الرجل في المجتمع العراقي، (خمسينيات القرن الماضي)، يؤدي في كثير من الأحيان الى الانحراف الجنسي. فقد ثبت علمياً – يضيف – أن الانحراف الجنسي، في الغالب اكتسابي، سببه انفصال المرأة عن الرجل كما هو الحال في الجنود الذين يظلون في ميدان الحرب مدة طويلة بعيدين عن النساء، وكذلك البحّارة والسجناء.

ويعزو الوردي سبب انتشار الانحراف الجنسي في العراق آنذاك الى هذا الانفصال الفضيع بين الرجل والمرأة. ويستشهد بأن أغانينا تخاطب الحبيب بلفظة المذّكر، وأن أغلب أشعارانا الغزلية نؤاسية.. أي هائمة بنفس الحب الذي هام به المنكوب أبونؤاس. ولسوء حظنا أن العراق كان مهد الحجاب لأول انتشاره في الحضارة الأسلامية.. وكذلك كان مهبط الوحي على أبي نؤاس.. على حدّ وصفه.

س: الدكتور الوردي، مع أن المجتمع العراقي شهد تطوراً كبيراً في السبعينيات الا أنه لم يكن تطوراً متوازناً فيما يخص الرجل والمرأة. فما سبب هذا الفرق بين الرجل والمرأة من الناحية الاجتماعية؟ وما مستقبل المرأة برأيك؟

ج: يجب أن نعلم قبل كل شيء أن المرأة تختلف عن الرجل في ناحيتين، اولاهما انها اضعف بدناً من الرجل، والثانية انها تقضي كثيراً من وقتها في شؤون الحمل والرضاع والاهتمام بالاطفال.

ان المرأة تختلف عن أنثى الحيوان في هاتين الناحيتين. فأنثى الحيوان لا تختلف اختلافاً كبيراً من حيث قوتها البدنية عن الذكر، وهي كذلك لا يشغلها الحمل والرضاع عن كسب العيش كمثل ما يشغل الأنثى البشرية.

ومن الظواهر التي لفتت انظار الباحثين هي أن الأباحية الجنسية موجودة في الحيوان، ولكنها غير موجودة بالمجتمع البشري الا نادراً.

س: لماذا؟

ج: لأن انتشار الاباحية في أي مجتمع بشري يؤدي الى هلاكه بالنهاية.

س: وما الفرق بين أنثى الحيوان والأنثى البشرية؟

ج: الأنثى البشرية في فترات الحمل والرضاع تحتاج الى من يحميها ويعيلها هي واطفالها وهي اذن مضطره الى الارتباط برجل والى الأختصاص به لكي تستطيع البقاء في الحياة هي واطفالها. وهذا هو سبب نشوء نظام الزواج والعائلة في المجتمع البشري، ولم يجد الباحثون مجتمعاً بشرياً خالياً من هذا النظام على وجه من الوجوه.

س: وما الذي احدثته الحضارة الحديثة في تقليص الفرق بين الرجل والمرأة؟

ج: ان الفرق الذي ذكرناه بين المرأة والرجل ادى الى أن يكون الرجل مسيطراً على المرأة ويفرض عليها الطاعة لأمره. وقد ظلت المرأة خاضعة للرجل منذ بداية ظهور البشر على وجه الأرض حتى عهد قريب. والواقع أن الحضارة الحديثة احدثت تغيراً جذرياً في ظروف المرأة مما جعلها تتمرد على سلطة الرجل وتطالب بالمساواة معه.. وصار في مقدور المرأة بالعصر الحديث أن تكسب الرزق وتحترف كثيراً من المهن التي كان الرجل يحتكرها لنفسه، كما صار في مقدورها أن تضبط نسلها بحيث لا تكون في معظم اوقاتها مشغولة بالحمل والرضاع على نحو ما كانت عليه المرأة القديمة. اضف الى ذلك أن القوة البدنية لم تبق لها تلك الأهمية التي كانت لها في العصور القديمة. ان السيف بطل استعماله وحل محله السلاح الذي لا يحتاج الى القوة البدنية التي كان السيف يحتاج اليها.

ان هذا التطور الذي حدث في الحضارة الحديثة جعل في مقدور المرأة أن تكون حرّة في اختيار زوجها، أو أن تكون حرّة في الامتناع عن الزواج. وهذا هو الذي جعل ظاهرة الأطفال غير الشرعيين واسعة الانتشار في المجتمعات المتقدمة. ففي السويد مثلاً تشير الاحصاءات الى أن نسبة الاطفال غير الشرعيين فيها هي ثلث مجموع الاطفال أو اكثر. وقد اضطرت حكومة السويد من جراء ذلك الى تسجيل الاطفال جميعاً بأسماء امهاتهم بدلاً من التسجيل بأسماء الأباء حسب

الطريقة التي اعتاد البشر عليها منذ قديم الزمان.

س: والى اين ستفضي هذه الظاهرة برأيك؟.

ج: يتنبأ بعض علماء الاجتماع بأن هذه الظاهرة ستزداد نمواً جيلاً بعد جيل من جراء تحرر المرأة وانطلاقها. وربما جاء زمن يضعف فيه نظام الزواج والعائلة ويكون الاتصال الجنسي أمراً عادياً من بعض الوجوه. وعندها سوف تتولى الحكومة أمر العناية بالاطفال وتربيتهم، أو هي قد تتولى بالاضافة الى ذلك أمر تنمية الاجنّة في الانابيب بدلاً من بطون الأمهات.

س: وان صحت هذه النبوءه؟

ج: اذا صحت هذا النبوءه فان الخطر من ذلك على البشر قد لا يقل عن الخطر الناشيء من تلوث البيئة أو ازدياد الاشعاع الذري أو اضمحلال طبقة الاوزون أو غيرها من مساويء الحضارة الحديثة.

س: وكيف ستكون شخصية الطفل برأيك؟

ج: ان الطفل الذي ينشأ في مؤسسة حكومية لا تنمو شخصيته كمثل ما تنمو في احضان العائلة. فان حنان الأبوين وجو العائلة لا يمكن الاستعاضه عنهما بأية مؤسسة حكومية مهما كانت متقنة.

***

في ختام هذه الحلقة نطرح تساؤلين لأبداء الرأي والمناقشة..

الأول: من المعلوم أن الشذوذ الجنسي كان منتشراً في المجتمع العراقي في خمسينيات القرن الماضي.. فكيف هو الآن؟ واذا كانت نسبته انخفضت فهل يعود ذلك الى زوال الانفصال بين عالمي المراة والرجل بالدرجة الأولى؟

والثاني: في سبعينيات القرن الماضي تراجعت نسبة الحجاب بين العراقيات الى درجة كبيرة، وكانت نسبة السفور بين الطالبات الجامعيات في العاصمة بغداد اكثر من 80% فيما حصل العكس في الألفية الثالثة. فهل تعود "روح" السبب الى ما ذكره الوردي، وان الاسلام السياسي ليس سوى وسيلة نفخ فيها لاحيائها؟.

***

المخطوطة الثالثة

قراءة.. في مقتل عثمان

في هذه الحلقة يتحدث الوردي عن العلاقة بين علمي الاجتماع والتاريخ، ويستشهد بحادثة مقتل الخليفة عثمان بن عفان، ويحللها بشكل مختلف ويرى أن الحادثة لو لم تقع في عهد عثمان لوقعت في عهد تال له. ويشير صراحة (والحوار أجري عام 89) الى أن الحاكم كان بمرتّب محدود ولا يستطيع أن يقتل أحدا كما يشتهي أو يستبدّ بأمور الناس (واشارات أخرى لسلوكيات كان يمارسها رئيس النظام السابق، الذي كان يودع أقبية المخابرات من قال نكتة على سجيته تفسّر على أنها تمس السيد الرئيس!). وفيه يلمّح بذكاء الى أن النظام الدكتاتوري لا يمكن أن يدوم، وأنه بدون اعتماد النظام الديمقراطي والتصويت الحر فان الصراع بين الحاكم والمحكوم يفضي الى التنازع وسفك الدماء.. وهذا ما حصل للمجتمع العراقي بعد رحيله بعشرين عاماً!.

***

س: الملاحظ أنك اجتماعي تارة ومؤرخ تارة أخرى، فما هو السبب الذي جعلك كذلك؟ وهل هنالك علاقة بين علم التاريخ وعلم الاجتماع؟

ج: نعم. هنالك علاقة تفاعلية وثيقة بين علم التاريخ وعلم الاجتماع. فالمؤرخ يكون أقدر على فهم احداث التاريخ اذا كان ملمّا بعلم الاجتماع، كما أن الاجتماعي يكون أقدر على فهم المجتمع اذا كان ملمّاً بتاريخه.

أستطيع أن آتيك بمثال على أهمية علم اجتماع في فهم أحداث التاريخ حول الحادثة الكبرى التي حدثت في عهد الخليفة عثمان بن عفان وأدت الى مقتله. فهذه الحادثة كان لها أثر بالغ جداً في مسيرة التاريخ الاسلامي، وقد انقسم المؤرخون حولها الى فريقين متعارضين، فمنهم من وضع اللوم كله على الذين ثاروا على عثمان، ومنهم من وضع اللوم كله على حاشية عثمان.

ونحن اليوم اذ نحاول دراسة هذه الحادثة في ضوء علم الاجتماع الحديث نستطيع ان نفهمها فهما يختلف عن فهم المؤرخين القدامى لها.

س: كيف؟

ج: يمكن القول من الناحية الاجتماعية ان تلك الحادثة كانت محتومة لابدّ من وقوعها عاجلاً او آجلاً. ان حاشية عثمان ربما كانوا سبباً في تعجيل وقوع الحادثة، ولكن الحادثة لابدّ أن تقع في تلك المرحلة التي مرّبها المجتمع الاسلامي. فهي لو لم تقع في عهد عثمان لوقعت في عهد تال له.

س: هل هذا يعني أن أسبابها كانت موجودة قبل عهد عثمان؟

ج: كان نظام الحكم في الخلافة الراشدة التي دامت نحو ثلاثين سنة يشبه أن يكون ديمقراطياً، أو هو كان ديمقراطياً فعلاً. فالحاكم فيها كان ذا مرتّب محدود وهو لا يستطيع أن يتصرّف بالأموال العامة كما يشتهي. وهو كان ايضاً لا يستطيع أن يقتل أحداً أو يعاقب أحداً كما يشتهي اذ هو كان مقيّداً في ذلك بالتعاليم الاسلامية. وهو كان ايضاً لا يستطيع أن يستبدّ بأمور الناس كما يريد بل يجب أن يستشيرهم فيها حسب المبدأ القرآني القائل (وأمرهم شورى بينهم).

يجب أن نعلم أن معالم الديمقراطية هذه التي ذكرناها لم يكن من السهل تحقيقها في أية أمّة من الأمم في العصور القديمة. وان هي صارت من الممكن تحقيقها في فترة من الزمن فانها لا يمكن أن تدوم طويلا، ولابدّلها من حدّ تقف عنده.

س: لماذا؟

ج: لأن مشكلة البشر انهم لا يمكن أن يرضوا عن حاكم حتى ولو كان هذا الحاكم عادلا نزيها الى أقصى درجة ممكنة. ان رضا الناس غاية لا تدرك – كما ورد في المثل العربي القديم – فاذا تمكن الحاكم من ارضاء فريق من الناس فلابدّ أن يسخط عليه فريق آخر منهم.

كان الحكام قديماً يسيطرون على الناس عن طريق الترهيب والترغيب. فالمال بيدهم يغدقونه على من يريدون اجتذابه، كما أن السيف حاضر بين أيديهم يعاقبون به من يسخطون عليه. وبذا صار الرعايا في العصور القديمة ساكتين خائفين، ولم يكن في مقدورهم أن يفعلوا غير ذلك.

س: وما الذي اختلف الآن؟

ج: الذي حصل في العصور الحديثة أن النظام الديمقراطي قد حلّ المشكلة. فالناس الآن لا يختلفون عن الناس قديما، اذ هم لا يمكن ان يرضوا كلهم عن حاكم، ولابدّ أن يكون فيهم الراضون عنه والساخطون عليه. ولكن الانتخابات التي تجري فيهم بين حين وآخر تتيح لهم أن يعزلوا الحاكم الذي لا يرضون عنه، وينصّبوا حاكماً آخر بدلاً منه. انهم يعلمون أن الحاكم الجديد لم ينل تأييد الناخبين جميعاً، فان رضا الناس غاية لا تدرك - كما أشرنا اليه آنفاً. ولكنه قد نال تأييد الأكثرية منهم وهذا يكفي.

س: يبدو انك تنظر للصراع وكأنه مسألة حتمية وأبدية ولا تحله حتى الديمقراطية.

ج: ان الاختلاف والتنازع نزعة أصيلة في البشر لا مفرّ منها. ومن طبيعة البشر أنهم حين يختلفون يعتقد كلّ فريق منهم أن الحق في جانبه وأن الباطل في جانب خصمه. واذا وقع الاختلاف بين البشر دون أن تكون لديهم طريقة عملية للفصل بينهم، كطريقة التصويت والانتخابات في الديمقراطية الحديثة، فان الاختلاف بينهم ينمو ويتصاعد بمرور الأيام، وقد يؤدي أخيراً الى التنازع العنيف وسفك الدماء. وهذا هو ما حصل فعلاً في عهد الخليفة عثمان.

س: وهل حصل هذا على صعيد الناس بشكل عام؟

ج: نعم، فقد انقسموا الى حزبين متصارعين، أحدهما ناقم على عثمان والآخر مؤيد له. فكيف يمكن حل هذا الصراع بينهما؟

س: كيف؟

ج: اجتمع الناقمون على عثمان في المسجد أخيراً وأخذوا يوجهون اليه اللوم الشديد ويصرخون في وجهه ويقذفونه بالحجارة، فسقط عثمان على الأرض مغمي عليه، وحمل الى بيته، وهنالك تسلق اليه نفر من الغوغاء فقتلوه.

لو كان عثمان من طراز الحكام القدامى، اذ يقف الحرس والجلاوزة بين يديه وهم مستعدون لقتل أي رجل يأمرهم بقتله، لما تجرّأ أحد عليه بالصورة التي رأيناها.

ومن الجدير بالذكر أن علي بن أبي طالب الذي تولّى الخلافة بعد عثمان لم يكن أفضل حالاً تجاه رعيته من عثمان. ونحن حين ندرس الكلمات والخطب

التي قالها في أواخر خلافته نجدها مليئة بالتذمر من رعيته والشكوى منهم. انهم لم يوجّهوا اللوم الشديد أو يقذفونه بالحجارة على نحو ما فعلوا مع سلفه عثمان، ولكنهم كانوا يخالفونه ويستهترون بأمره ويجابهونه بما لا يرضى، وقد خاطبهم ذات مرة قائلاً: (اذا كانت الرعايا قبلي لتشكو حيف رعاتها فانني اليوم لأشكو حيف رعيتي كأنني المقود وهم القادة أو الموزوع وهم الوزعة).

ان هذه الكلمة من علي لها مغزى اجتماعي يلفت النظر. فنحن نرى الحاكم هنا يشكو من المحكومين له. وهذا أمر غريب غير مألوف في العصور القديمة، اذ جرت العادة أن يكون المحكومون هم الذين يشكون من حكامهم، و لم يكن مألوفاً أن يشكو الحكام من المحكومين.

س: هذا يعني وكأنك تريد أن تقول بأن الديمقراطية في عهد الخلفاء الراشدين جاءت في غير وقتها..

ج: نعم. فما جرى يدل على أن الخلافة الراشدة وصلت الى نهاية عمرها وليس في مقدورها أن تبقى مدة أطول، فالحاكم فيها لم يكن قادراً أن يسوس رعيته عن طريق الترغيب والترهيب كما كان الحكام القدامى يفعلون، وكذلك لم يكن قادراً على أن يلجأ الى التصويت على نحو ما يجري في الديمقراطية الحديثة. وخلاصة القول ان الديقراطية الراشدية جاءت في غير أوانها، أو هي جاءت قبل أوانها. ونحن اذ نريد دراستها في ضوء علم الاجتماع الحديث نتوصل الى نتيجة تختلف عن تلك التي اليها المؤرخون القدامى.

س: حدثني عن الجانب الآخر للموضوع.. أعني أهمية التاريخ للباحث الاجتماعي.

ج: جرى الباحثون الاجتماعيون في النصف الأول من هذا القرن (يقصد القرن العشرين) على أنهم اذا أرادوا دراسة مجتمع انكبّوا على دراسة حاضره و لم يهتموا بدراسة ماضيه. وقد تبين لهم بعدئذ أنهم كانوا في هذا مخطئين. يقول الباحث المعروف روبرت نيسبت في كتاب له صدر في عام 1970: "ان الفجوة بين علم الاجتماع والتاريخ أخذت في السنوات الأخيرة تتقلص باستمرار، وهي الفجوة التي كانت موجودة لمدة طويلة في الولايات المتحدة الأمريكية. ففي

السنوات العشرين الأخيرة صار المؤرخون ينتفعون من مفاهيم علم الاجتماع تدريجاً، وكذلك صار الاجتماعيون ينتفعون من المعلومات التاريخية..".

اننا لا يمكن ان نفهم مجتمع من المجتمعات البشرية مالم نفهم تاريخه ولاسيما تاريخه القريب. وأوضح مثل يمكن أن نأتي به في هذا الشأن هو المجتمع العراقي، فنحن لا نستطيع أن نفهمه في وصفه الحاضر فهما واقعياً مالم نحاول فهم الأحداث التي جرت له في العهد العثماني، وهذا ما حاولته عند تأليف كتابي "لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث".

س: كان تركيزك فيه على القيم والمعتقدات، فهل ترى أنها تبقى تعمل بعد سبعين عاما؟

ج: ان القيم والمعتقدات والتقاليد التي تنشأ في عهد من العهود لا يمكن أن تختفي فجأة عند زوال ذلك العهد، فهي تبقى تؤثر في سلوك الناس وتفكيرهم مدة طويلة من الزمن بعد زوال أسبابها. انها تضعف تدريجا بمرور الزمن ولكنها لا تختفي من أعماق النفوس اختفاءا تاما.. وهذا هو من معالم "التناشز الاجتماعي" كما أشرنا اليه آنفاً.

* * *

بقي أن نذكّر الجيل الجديد بأن عالم الاجتماع الدكتور علي الوردي الأستاذ بكلية الآداب جامعة بغداد، أحيل على التقاعد قبل بلوغه السن القانوني وسحب منه لقب (أستاذ متمرس) لافقاره مادياً وتهميشه فكرياً، وصدرت توجيهات بحظر تداول مؤلفاته بداعي (السلامة الفكرية) التي اعتمدها النظام السابق ضد كل فكر يتعارض او لا ينسجم مع فكر حزب البعث. ومع أنه غيّب ومات منسياً في تموز 1995 فانه عاد حياً الى الساحة الفكرية ليتأكد للناس أن الطغاة زائلون والعلماء خالدون.

ثالثاً: مواقف نقدية

1- الازدواج في الشخصية العراقية

يعدّ الدكتور علي الوردي هو الذي ألصق صفة "ازدواج الشخصية" بالفرد العراقي. ومع أن الرجل أشار في محاضرته التي ألقاها في بداية الخمسينيات، أنه لا يدعي "بأن هذه المحاضرة بحث قد استوفى شروطه العلمية" إلا أن عدداً من الباحثين والناس بشكل عام عدّوا ما قاله حكماً قطعياً، واستلطفوه.

ومع أن الوردي قال في سياق محاضرته: "لقد لاحظت بعد دراسة طويلة بأن شخصية الفرد العراقي فيها شيء من الازدواج" فانه استدرك قائلاً: "واني وان كنت غير واثق من نتيجة هذه الدراسة" ثم عاد ليوحي ضمناً بأن حكمه هذا عن يقين بقوله: "ولكني أجد كثيراً من القرائن تؤيد فيما أذهب إليه". ومن القرائن التي يذكرها عن ازدواج شخصية العراقي: "أن المسلم العراقي من أشد الناس غضباً على من يفطر علناً وهو من أكثرهم إفطاراً"، و"أن الفرد العراقي من أكثر الناس حباً للوطن وتحمساً لخدمة العلم بينما هو في الواقع مستعد للتملص من خدمة العلم اذا آن الأوان". ويؤكد بأن "الفرد العراقي - في هذا - ليس منافقاً أو مرائياً كما يحب البعض أن يسميه، بل هو في الواقع ذو شخصيتين"(*).

توضيح مفهوم

في خمسينيات القرن الماضي شاع في الولايات المتحدة مفهوم (ازدواج الشخصية) وكان المثال الكلاسيكي لها هو رواية ستيفنسن الموسومة: "دكتور جيكل ومستر هايد Dr. Jekyll and Mr. Hyde" التي جرى تحويلها إلى فلم سينمائي جذب الملايين من المشاهدين.

وحدث أن ظهرت - في الخمسينيات أيضاً - حالة واقعية في أمريكا لفتاة أسمها "Sybil" كانت لها ثلاث شخصيات: شخصية عادية، موظفة تمارس عملها حسب الأصول، وشخصية متدينة تذهب الى الكنيسة في أيام الآحاد، وشخصية

(*) النصوص العائدة للدكتور علي الوردي مأخوذة من كتابه: شخصية الفرد العراقي.

مستهترة ترتاد نوادي الرقص والقمار في الليل. وكان لكل شخصية أسم خاص بها ولا تعرف إحداهن الأخرى. ولأن الحالة مثيرة كسابقتها فقد التقطتها السينما وحولتها الى فلم بعنوان "ثلاثة وجوه لحواء، Three Faces of Eve" عرض عام 1957 وقامت ببطولته الممثلة Joanne Woodward فظهر مفهوم جديد بعد "ازدواج الشخصية" هو "تعدد الشخصية Multiple Personality". وحدث أن أشاعت السينما والصحافة الفنية بين الملايين الذين أدهشهم الفلم أن البطلة مصابة بمرض "الشيزوفرينيا" وكان هذا خطئاً علمياً ومفاهيمياً شاع بين الناس وبين أوساط علمية أيضاً، وروجت له السينما والتلفزيون وبخاصة أفلام "هتشكوك"، الأمر الذي اضطر عدداً من الأطباء النفسيين الى التنويه، في السبعينيات، بأن ما يسمى بـ"ازدواج الشخصية أو تعددها" ينضوي تحت العصاب وليس الذهان، لأن المصاب بهذا الاضطراب يتقمص أدواراً مختلفة ولو أنها متناقضة، ولكنه يقوم بكل منها بطريقة منطقية ومتماسكة ومتلائمة مع المتطلبات الاجتماعية للدور، بعكس ما يحدث في الشيزوفرينيا إذ يعبر الاضطراب عن انفصال الشخصية عن متطلبات الواقع فيتصرف الشخص بطريقة تبدو للآخرين مضطربة ولا تتلاءم مع المعايير الخارجية.

ولقد جرى حديثاً (أدبيات عام ألفين وما بعده) إسقاط مصطلحي "ازدواج الشخصية وتعدد الشخصية" واستبدالهما بمصطلح "اضطراب الهوية الانشطاري Dissociative Identity Disorder" وحدد عرضه الرئيسي بأن الفرد "يعيش بشخصيتين أو أكثر، وأن هذه الشخصيات قد تكون على دراية ببعضها البعض أو قد تكون في حالة فقدان الذاكرة النفسي".(*).

هذا يعني أن مفهوم "ازدواج الشخصية" – وهو مفهوم نفسي وليس اجتماعي – لم يعد متداولاً في الطب النفسي وأنه استبدل بمفهوم "اضطراب الهوية الانشطاري" يملك المصاب به هويتين أو شخصيتين – وقد يصل العدد الى العشرات! لكل واحدة أسلوبها الخاص بها في السلوك والإدراك والتفكير والتاريخ الشخصي والعلاقة بالآخرين.

(*) لمعرفة المزيد راجع كتابنا: الأمراض النفسية والانحرافات السلوكية، الصادر في عمان، 2008.

وللإيضاح فان ما يحدث في هذا الاضطراب "الفانتازي"، الذي ما يزال يثير الجدل، أن الشخصية الأصلية أو المضيفة يحل أو ينزل عندها ضيوف هي الشخصيات البديلة. فإذا كانت هنالك شخصيتان في الفرد (الأصلية والضيفة) فانهما تتناوبان السيطرة، والمثال الكلاسيكي هو "دكتور جيكل ومستر هايد" حيث يمارس الدكتور جيكل في النهار عمله الاعتيادي كطبيب فيما يتحول في الليل الى مجرم سفّاح باسم هايد.

الخطأ العلمي في طروحات الوردي

أشاع الوردي مفهوم (ازدواج الشخصية) في الفرد العراقي قبل نصف قرن ونيف متأثراً بشيوع المفهوم عبر أفلام السينما والصحافة الفنية والقصص في خمسينيات القرن الماضي، وسط استغراب الناس ودهشتهم.. أن يحصل مثل هذا للإنسان، وربما خشيتهم على أنفسهم أنيصيب أحدهم ما أصاب الدكتور جيكل أو أن تصاب إحداهن ما أصاب الفتاة سيبل. وهو بذلك تحمّل الخطأ العلمي الخاص بمفهوم (ازدواج الشخصية) الذي أشرنا إليه آنفاً. وبطبيعة الحال فان الوردي لم يكن مسؤولاً عن ذلك الخطأ إنما خطوه يتحدد بأنه قام بتحويل أو ترحيل مفهوم يتعلق بمرض نفسي يصيب أشخاصاً معدودين الى مفهوم اجتماعي يصيب الملايين من الناس.

وليته استخدم المفهوم مجازاً أو استعارة إنما استخدمه بنفس المعنى الشائع لمرض ازدواج الشخصية في الخمسينيات. فهو يقول بالنص: "إن العراقي هو في الواقع ذو شخصيتين، وهو إذ يعمل بإحدى شخصيتيه ينسى ما فعل آنفاً بالشخصية الأخرى.. وانه اذا بدر منه بعدئذ عكس ذلك فمردّه الى ظهور نفوس أخرى فيه (لاحظ هنا تعدد وليس ازدواج) لا تدري ماذا قالت النفس الأولى وماذا فعلت). وواضح لجنابك أن الوصف هذا ينطبق على حالة مرضية وليس على حالة سوية، بمعنى أن المصاب به يعاني من اضطراب أو مرض (ازدواج الشخصية) بمفهومه الشائع في الخمسينيات، و"اضطراب الهوية الانشطاري" بالمفهوم الحديث.. وليس من المعقول بطبيعة الحال أن يكون كل أو معظم

العراقيين مصابين بهذا الاضطراب العصابي، أو المرض ألذها بي على رأي آخر.

إن الذي قصده الوردي هو على وجه التحديد: (التناقض بين الأفكار والسلوك)، بمعنى أن السلوك الذي يتصرف به الفرد يتناقض أو يتعارض مع الفكرة أو القيمة التي يحملها. وإليك بعض الأمثلة مما يذكر:

"إن العراقي، سامحه الله، أكثر من غيره هياماً بالمثل العليا ودعوة إليها في خطاباته وكتاباته، ولكنه في نفس الوقت من أكثر الناس انحرافاً عن هذه المثل في واقع حياته".

"حدث مرة أن أقيمت حفلة كبرى في بغداد للدعوة الى مقاطعة البضاعة الأجنبية، وقد خطب فيها الخطباء خطباً رنانة وأنشد الشعراء قصائد عامرة. وقد لوحظ آنذاك أن اغلب الخطباء والشعراء كانوا يلبسون أقمشة أجنبية والعياذ بالله".

"ومن العجيب حقاً أن نرى بين مثقفينا ورجال دين فينا من يكون ازدواج الشخصية فيه واضحاً: فهو تارة يحدثك عن المثل العليا وينتقد من يخالفها، وتارة يعتدي أو يهدد بالاعتداء لأي سبب حفزه الى الغضب تافه أو جليل، ضارباً عرض الحائط بتلك المثل التي تحمس لها قبل ساعة".

إن مثل هذه الحالات بعيدة جداً عن أن نصفها بـ"ازدواج الشخصية" إنما هي تناقض بين الأفكار والسلوك، أي أن الفرد يؤمن بقيمة أو يتبنى فكرة أو يدعو لها أو يصرّح بها لكنه يتصرف بسلوك مناقض لها، كأن يدعو الى أن تمارس المرأة العمل ضابطا في الشرطة أو الجيش غير أنه يمنع ابنته من التقديم الى كلية الشرطة أو الكلية العسكرية.

وعليه فان الأصوب علمياً وعملياً أن نصف ذلك بـ" تناشز الشخصية" الذي يعني التنافر أو التناقض أو عدم التطابق بين ما يعتقد به الفرد وبين ما يقوم به من سلوك. وطبيعي أن ابتكار مصطلح جديد لن يزحزح مصطلحاً استقر في ذاكرة الناس منذ نصف قرن حتى لو كان أكثر انطباقاً على الحالة، فضلاً على أنهم كانوا استلطفوه وأشاعوه.

والخطأ الآخر الذي وقع فيه الوردي – وقد لا يكون مقصودا – أن محاضرته حول ازدواج الشخصية العراقية تجعل المتلقي لها يفهم أن العراقي يميل الى تغليب

السلوك المناقض لأفكاره وقيمه حيثما اقتضت مصلحته ذلك، أو أن ذلك من طبعه.. وهي صورة سلبية عن الشعب العراقي.

نكرر القول بأن هدفنا ليس تفنيداً أو تقويما لطروحات أستاذنا الكبير الوردي الذي يبقى عالم اجتماع فذ يدهشنا بنباهته وفطنته وعمق تحليله ويمتعنا بأسلوب عرضه وجزالة لفظه وسهولة معناه الذي جاء من نوع السهل الممتنع، إنما هدفنا هو طرح وجهة نظر علمية تغني المعرفة عن ظاهرة اجتماعية عراقية.. التقطها الوردي بذكاء عالم متميز وطرحها بأسلوب كاتب ساحر.

2- نظرية الوردي... لم تعد صالحة

مع اشتداد العنف في العراق، كثرت مقالات في الصحافة يحلل أصحابها الشخصية العراقية بمفاهيم الراحل الدكتور الوردي، عازين العنف فيها الى "صراع البداوة والحضارة" وقساوة الطبيعة وفيضان دجلة والفرات على ما يرى الراحل طه باقر.

لقد كانت تحليلات الوردي ممتعة ومدهشة، وستبقى تراثاً فكرياً رائداً لعالم اجتماع فذ بقامة إبداعية باسقة. غير أن الفاصل الزمني بين ما عليه الشخصية العراقية الآن وما كانت عليه قبل نصف قرن، وطبيعة الأحداث الكارثية التي شهدها العراقيون في العقود الأربعة الأخيرة، تجعل الأسباب التي عزاها الوردي للعنف في الشخصية العراقية تتراجع لصالح أسباب أخرى أقوى وأشد تأثيراً.

ومعروف أن الوردي استند في تحليلاته على آراء ابن خلدون (وعنه كانت أطروحته للدكتوراه) وطّبقها على المجتمع العراقي بعقلية عالم اجتماع مبدع، إلا أننا نرى أن العامل الرئيس للعنف في الشخصية العراقية لا يعود الى "صراع البدواة والحضارة" إنما يعود الى طبيعة "الصراع على السلطة".

إن البذرة الولاّدة للعنف في الشخصية العراقية – التي نتجرع ثمارها القاتلة الآن – زرعت في أرض المشهد الكر بلائي عام 61هـ، الذي يؤشر بداية الصراع على السلطة في العراق بعد ظهور الإسلام. فمنذ ذلك العام صارت في العراق جبهتان: جبهة السلطة وجبهة العامة من الناس، كل واحدة منهما ترى نفسها أنها

على حق والأخرى على باطل. فجبهة السلطة ترى أن الخليفة أو الملك أو السلطان إنما هو "حمى الله في بلاده وظلّه الممدود على عباده". وأن "إمام غشوم خير من فتنة تدوم". وأن "طاعة الأئمة (=الخلفاء أو السلطة)، من طاعة الله وعصيانهم من عصيان الله". وأنه "اذا كان الإمام (=الخليفة أو الملك أو رئيس الجمهورية)، عادلاً فله الأجر وعليك الشكر، وإذا كان جائرا فله الوزر وعليك الصبر".

وهكذا لوت السلطة الدين وجعلته في خدمة السياسة، ورأت نفسها "لاسيما في زمن الدولتين الأموية والعباسية".. "أن حكمها إنما هو حق مفوض من الله، وأنه حق مطلق لها مهما فعلت" (=الدكتاتورية المطلقة بالمفهوم الحديث). وانه ما على الناس إلا الطاعة والخضوع والصبر.

أما جبهة العامة من الناس فقد رأت في السلطة أنها مغتصبة للحكم، وأن الإطاحة بها واجبة، وأن القصاص من الذين ارتكبوا الظلم وخرجوا على تعاليم الدين واجب أيضاً من أجل إقامة العدل.

ومن يومها نشأت قطيعة نفسية بين الجبهتين "السلطة والناس" دفعت كل واحدة منهما الى استخدام ما لديها من وسائل العنف والعدوان. فمارست جبهة السلطة القتل وإشاعة الخوف والرعب على أيدي قادة بينهم من كان طامعاً في الحكم والثروة، أو مصابا بعقدة الشعور بالنقص، مثل الحجاج، الذي يستمتع بسادية قطف الرؤوس، وزياد ابن أبيه (=ابن زنا) الذي تكفل بالقضاء على كل العناصر المناهضة للحكم الأموي في العراق، ولاقى العراقيون على يديه ألوان القتل والصلب والتقطيع والتمثيل، التي تشفي لديه بعضا من عقدة مجهولية الأب!

ويجمع المؤرخون على أن الشعب العراقي، ومنذ المشهد الكربلائي "680م"، تعرض الى ظلم واستبداد وجور لم يتعرض لمثلها شعب آخر. وأن السلطة ظلت تطحنه أكثر من ألف وثلاثمائة سنة. وكان أن توزع العراقيون بين حامل للسلاح محارب للسلطة، وبين منافق مداهن متملق لها، وبين (الياخذ أمي يصير عمي)، وبين عاجز يائس. إذ تذكر الروايات أن معظم العراقيين كانوا، في زمن السلطة العباسية، يذهبون كل ليلة تقريباً الى باب السرداب في مسجد سامراء يقرأون

السلام على "صاحب الزمان" ويدعونه للخروج قائلين: "بسم الله، يا صاحب الزمان أخرج فقد ظهر الفساد وكثر الظلم وقد آن أوان خروجك".

وعلى الرغم من أن السلطات التي تعاقبت على الحكم في العراق كان بعضها يناهض بعضا، "الأموية والعباسية، البعث والملكية..." فأنها كانت في قطيعة نفسية مع العامة من الناس، وإن بدرجات. فجميعها كانت تمارس العنف ببشاعة مع الخصوم. يكفي أن نشير الى أن السلطة في تاريخنا العربي والإسلامي تنفرد عن باقي السلطات في العالم أن في قصور حكامها خزائن كانت تحفظ بها رؤوس الخصوم!. وللتذكير فأن قطع الرؤوس ما كان من ابتكار أمراء الارهاب وداعش في العراق. فقد ذبح السلف ابن بنت نبيهم، وطافوا برأس الحسين في أمصار العرب والإسلام (إشاعة ثقافة العنف). وقتل معاوية عمر الخزاعي ورفع رأسه على رمح من الموصل حتى دمشق، ثم رموا رأسه في حجر زوجته الرهينة. ورمى هشام بن عبد الملك رأس الإمام زيد بن علي في حجر والدته. ورمي رأس مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية في حجر ابنته. ورمى أبو جعفر المنصور رأس إبراهيم أخي النفس الزكية في حجر والده عبد الله بن الحسن. ورمي رأس المعتز بالله في حجر جاريته. ورمي رأس ابن الفرات في حجر والده الوزير قبل ضرب عنق الأخير... وكان هذا هو السبب الرئيس للعنف في الشخصية العراقية، الصراع على السلطة، الذي يتقدم كثيراً على صراع البداوة والحضارة.

ونختلف مع فرويد القائل بأن الإنسان عدواني بطبعه، وقبله المتنبي الذي سبقه بقوله: "والظلم من شيم النفوس فأن تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم".. وعلماء اجتماع آخرين تتناغم آراؤهم في تحليلهم لطبائع البشر مع بعض علماء الوراثة القائلين بوجود "جينات" للعنف في الإنسان. فنحن نرى أن الإنسان - باستثناء حالات - ليس مجبولاً على العنف، غير أنه يكون أشد ضراوة من الوحش حين يتعرض الى "الإحباط اليائس"... أعني عندما يعاق أو يحرم من تحقيق أهداف وإشباع حاجات يراها مشروعة، مصحوبة بمشاعر الحرمان النفسي والاعتباري، وبالذات عندما يدرك أنه أو جماعته يحصل على أقل من استحقاقه، أو أن جماعته تحصل على أقل مما تحصل عليه الجماعات الأخرى. وكان هذا الإحباط، وسببه

السلطة، هو الحالة التي عاشها معظم العراقيين من بدء الدولة الأموية الى عام 2003.. ثم تلاه زمن الخيبات والفواجع حين صار النظام ديمقراطيا.. وستستمر الى حين يستبدل (شاصي التثليث) الذي دقه (بيرمر) في ماكنة العملية السياسية العراقية بثلاثية المواطنة والكفاءة والنزاهة.

وثاني هذه الأسباب، أن اللاشعور الجمعي للعراقيين معبأ بالعنف ومبرمج من ألف عام على تشغيله في حل الصراعات، ومشحون بالثأر والحقد، وأن العراقيين يستحضرون هذا الانفعال لا شعورياً في مواجهة أزماتهم المعاصرة فزادوها تعقيداً وحولوا حكوماتهم الديمقراطية! الى منتجة للأزمات وصار السياسي العراقي أحول عقل!.

وثالث هذه الأسباب، أن السلطة في العراق كانت بيد السنّة العرب من ألف وثلاث مائة عام، فيما كان الشيعة في المعارضة. وأن ما حصل الآن هو تبادل للأدوار، شبيه من حيث فعله النفسي بتبادل دور السيد والعبد. وهذا يعني أن العنف لابد أن يحصل في المجتمع المتعدد الطوائف والأعراق اذا انفردت بالسلطة طائفة أو قومية بعينها.

ورابعها، إن وجود الأجنبي في أي وطن كان وبأي مسمى كان "محرر، محتل... يثير في ابن الوطن الإحساس بالذلّ والإهانة والتحقير والاستلاب، وتستنهض فيه – بحتمية نفسية – مشاعر الكرامة وردّ الاعتبار، تدفعه الى العنف، ليس فقط ضد المحتل بل وضد من يستميلهم المحتل من الناس، خشية أن يستفرد المتعاونون معه بالسلطة والمصالح. ويذكّرنا التاريخ بأنه حيثما حكمت بغداد أو احتلتها سلطة أجنبية، ساد العنف كل أرجاء العراق.

وخامسها يذكّرنا بواقعة حدثت أيام احتلال العراق أيضاً. فقد زار القائد العسكري البريطاني (لجمن) قبيل اندلاع ثورة العشرين، المرجع الديني الشيرازي في النجف وعرض عليه أن يأتيه بمفاتيح روضة الإمامين في سامراء (وهي بيد السّنة) ويعطيها للشيعة، فرفض الشيرازي وعاد (لجمن) خائباً، فبعث بطلب الشيخ ضاري وقال له: كيف تطيعون فتوى الشيرازي وهو مرجع للشيعة؟.. فأجابه الشيخ ضاري: والشيرازي مرجعنا أيضاً!. وهذا هو الموقف الذي نفتقده اليوم.

ويحاول الكتّاب الذين يجترون آراء الوردي تصوير المجتمع العراقي كما لو أنه شخصية واحدة. وتبسيطاً نقول إن مجتمعنا الحالي فيه شخصيتان لا شخصية عراقية واحدة.

الأولى: جيل تمثله شخصية آبائنا، ونحن الكبار الذين عبرنا النصف قرن، يجاهد بالتمسك بقيم أصيلة (الشرف، النخوة، التكافل الاجتماعي، الخوف من العار وفعل الحرام..).

والثانية: جيل، ولّد في حرب ونشأ في حرب ويعيش الآن أكثر من حرب. وأن هذا الجيل المتشبع بثقافة العنف المعجونة بالإحباط، والذي يشكل أكثر من 60% من المجتمع العراقي، ليس له علاقة تذكر بصراع البداوة والحضارة التي تجترها الصحافة عن الوردي في تحليل العنف في الشخصية العراقية.

ويبقى الوردي واحداً من ابرز علماء العراق في النصف الثاني من القرن العشرين، تجاوز تأثيره حدود النخبة الى الناس العاديين، وتعدت شهرته حدود الوطن والعرب الى العالمية، يكفينا ان نستشهد بمقولة البروفسور جاك بيرك الذي وصف الوردي بأنه (كاتب يحلّق الى العالمية بأسلوبه الذي يضرب في المناطق الحساسة في المجتمع كفولتير).

لك منّا أيها العالم المبدع.. المفكّر من طراز رفيع.. الجريء.. الجدلي.. الساخر.. كلّ الاحترام والتقدير والامتنان والذكر الخالد.. راجين ان يكون فيما كتبناه يوفيك بعض حقك علينا.. فنحن، الأكاديميين، كما يقول المتنبي:

لا خيل عندك تهديها ولا مال... فليسعد النطق ان لم يسعد الحال.

فـ (الخيل والمال) صارت من حصة سلطة... المبدعون الأحياء في زمنها مهاجرون، والامواتمنسيون!.

في واقعة (شارلي ايبدو)
درس للدينيين والعلمانيين

تنويه:

لا علاقة مباشرة لهذا الموضوع بالشخصية العراقية، غير ان فيها عبرة بليغة ينبغي علينا التقاطها كونها تخص أخطر قضية نعيشها: جدلية الدين واشكالية الاسلام.

***

ما حصل في فاجعة أربعاء باريس (2015/1/7) يتعدى كونه جريمة قام بها متطرفون انتقاماً من صحيفة نشرت صوراً تسخر من نبيهم، الى اثارة قضيتين خطيرتين:

الأولى: اشعال النار في ميدان الفكر واعلان المواجهة الصريحة بين الايمان والألحاد.

والثانية: الاعلان عن المسكوت عنه بأن الغرب يرى في الاسلام مشكلة.

لنبدأ بالقضية الأولى ونناقشها فلسفياً.

ما حدث لشارلي هو البدء باعلان المواجهة الصريحة بين الايمان والالحاد، بعد ان كانت شبه خفية لأسباب تعود الى الخوف او الاضطهاد او التصفية الجسدية. وما حصل هو مسألة حتمية ناتجة عن تطور الفكر البشري نصوغها بما يشبه النظرية: ان الضد يخلق ضده النوعي عبر مراحل زمنية تختلف في مددها باختلاف مستويات التفكير وسعة انتشاره.. وتكون بعلاقة عكسية مع تقدم الزمن.

كان التفكير الخرافي هو الأصل بوصفه اول مراحل التفكير البشري.. واستغرق آلآف او ملايين السنين ليخلق ضده النوعي المتمثل بالتفكير الديني.. الذي احتاج الى آلآف السنين ايضا ليخلق ضده النوعي المتمثل بالتفكير العلمي.. ومنه ظهر التفكير الالحادي.

من هنا فان واقعة (شارلي ايبدو) قدحت في التفكير البشري تساؤلات كان مسكوتاً عنها نصوغ اهمها بالآتي:

- اذا كان "مصدر" الأديان واحداً، تكون اخلاقها واحدة.. فلماذا الصراع بين الاديان والدعوة الى الحوار بين اتباعها؟. هل هذا "المصدر" لا يستقر على فكر ثابت؟ أم ان الأديان كانت فكرة التقطها أنبياؤها فاخترعوا (قوة خارقة) اسكنوها في السماء وقوّلوها تعاليم انسانية نبيلة لا يأتي بها الا من ينفردون بعبقرية استثنائية واخلاص مطلق لــ (إله) خلقوه فصدّقوا به؟.
- واذا كان "الله" واحداً، فلماذا كوّنت الأديان صوراً ذهنية مختلفة عنه، مع انها من عنده بحسب اتفاقها؟
- ان تاريخ الحرية هو تاريخ نشوء الأديان، وانه بفضل الأديان تحررت ملايين البشر من العبودية، ولكنها خلقت عبوديات أخرى، بما فيها عبودية السلطة التي يأمر رجال الدين بطاعتها حتى لو كانت ظالمة، وبسببها قتل الملايين لخلافات سخيفة.. فلماذا لا يظهر دين جديد يقيم العدل والسلم ويصحح ما حرّفه القائمون على الاديان الموجودة؟ هل يئس "مصدر" الدين فنفض يديه من عباده بعد ان تمادوا في التمرّد عليه، مع انه قادر على ان يفنيهم بلحظة كما فعل بقوم عاد وثمود بحسب ما تؤكد الأديان الثلاثة؟
- لماذا ينسف الدين الجديد الذي قبله؟ وهل اتباع الدين القديم ملزمون أن يؤمنوا بالدين الجديد؟ او أن يتخّذ منهم موقفاً معادياً؟ او ينكر عليهم بعض ما يؤمنون به؟
- ولماذا يركّز دين على صفات: القوة، والجبروت، والبطش، فيما يؤكد دين آخر على صفات: المحبة، والرعاية، والتسامح، ويوازن دين ثالث بين هذين النوعين من الصفات في "الله"؟

- هل اختلاف منظورات الاديان بخصوص طبيعة الله نجم عنه اختلاف منظوراتها بخصوص الطبيعة البشرية؟ أم العكس.. اي انهم اسقطو على الله تناقض الصفات في الطبيعة البشرية؟

وستردّ الضفة الأخرى بتساؤلات من هذا القبيل:

- كيف يمكن للطبيعة المادية ان تخلق كائناً بشرياً بهذه القدرات العقلية الخارقة من خلية في غاية البساطة؟
- كيف يمكن لهذا الكون المتلىء بالهائل من المتضادات الكمية والنوعية ان يسير بهذا النظام ما لم تكن هنالك قوة خارقة تدير اموره؟
- ان العلم يخترع وسائل الدمار ويضعها بيد الأشرار، فيما الدين يحترم قيمة الحياة ويقدّس الانسان بوصفه خليفة الله في ارضه، فلماذا تدعون الى طريق الهلاك فيما الدين طريق نجاة ومحبة ورحمة، وانه افضل لكم حتى لو كنتم لا تؤمنون به؟
- لماذا يكون ايمانكم مقيداً بحدود ما تعدّونه منطقاً، فيما هنالك امور لا يستوعبها منطق ولا يدركها عقل.. بما فيها عقلكم العلمي الذي ما كان يصدّق ان الانسان يمكن ان يصل الى القمر؟!

وانطلاقاً من مبدأ حرية التعبير فان الضد ينبغي ان يحترم ضده النوعي، وان يكون النقاش فكرياً بسلاح الحجة تفند الحجة، غير ان تداعيات جريمة شارلي اشعلت النار في نفوس المتعصبين في الضدين اللذين بدءا اعلان معارك دماءفي مواجهة أزلية!

ولنناقش الآن القضية الثانية (الغرب يرى ان في الاسلام مشكلة).

كشفت حقيقة تداعيات واقعة شارلي انه جرى توظيفها لاشاعة فكرة كان مسكوتاً عنها في العالم الاوربي هي ان الاسلام (دين عنف). وفي هذا خطئان، الأول.. خطأ التعميم، اذ لا يصحتعميم ما قام به اثنان على (1،6) مليار مسلم. فضلاً عن ان القائمين بالجريمة (الأخوان كواتشي – سعيد وشريف) كانا بثقافة غربية اكثر منهما بثقافة اسلامية، فهما يدخنان الماريجوانا ويعشقان رقص الراب (وهكذا كان محمد عطا، قائد عمليات 11 سبتمبر 2001 الذي كان يحتسي

الويسكي في بارات هوليوود – على ذمة أريك دافيس في الوورد تريبيون). والخطأ الثاني، اصدار حكم على الاسلام بأنه وحده دين عنف وان (المتطرفين، المتشددين) يوجدون في الاسلام فقط، ويغضون الطرف عما قامت به محاكم التفتيش من جرائم بشعة بأمر الكنيسة، وما قامت به منظمة كوكلوكس كلان التي رفعت الصليب المحروق رمزاً لها، وعمليات القتل البشعة التي جرت في امريكا واستراليا على أيدي متطرفين مسيحيين.. وهذا ناجم عن حقيقة سيكولوجية هي ان جميع المؤمنين بالأديان متعصبون لأديانهم.

الفكرة الثانية التي أعادت شارلي احياءها في العقل الاوربي هي ان الاسلام مهدد للديمقراطية.. التي روجت لها اجهزة الاعلام الغربية بعد ثورة خميني الاسلامية (1979) واوحت بفكرة ان جذور العنف تكمن في هذا الدين تحديداً. وعمدت اجهزة الاعلام الامريكية في حينها، "وتعاملت بحذر في واقعة شارلي"، الى تشكيل صورة عن المسلم كناقل للنفط او كارهابي بحسب تعبير(ادوارد سعيد)، وان الاسلام دين تطرّف وارهاب على حدّ وصف (اسبوزيتو) مدير مركز التفاهم الاسلامي- المسيحي، وان هذا الاسلوب يفضي الى تحريض المسيحيين ضد الاسلام والمسلمين، والعكس صحيح بحسب باحثين امريكيين (امكتبور وآرمسترونغ).

وحقيقة سيكولوجية اخرى لم يدركها العقل الاوربي هي ان اللاوعي الجمعي يلعب الدور الأكبر في الجماهير المسلمة حين تعيش ازمة.. وان معظم محتوى هذا اللاوعي هو معتقدات دينية تعمل في اوقات الأزمة على تولي العقل الانفعالي ادارة السلوك الجمعي فتندفع الجماهير نحو التظاهر لأثبات وجود (الأنا)، يتطور الى احتجاج واستفزاز الطرف الآخر.. ينتهي بالمواجهة والعدوان والعنف والانتقام، لأن العقل الانفعالي لهذه الجماهير يعطّل لديها العقل المنطقي.. فيكون الانتقام بلا حدود.. ينجم عنها ان العقل الجمعي الاوربي سيختزل الاسلام الى خصم لدود! وتفعيل سيكولوجيا الرهاب من الاسلام (اسلاموفوبيا).

ومن بين اخطر (المسكوت عنه) الذي اعلنته شارلي، ان المسيحية تنظر الى (محمد) على انه قائد عسكري او مصلح اجتماعي وليس نبياً. هذا يعني ان جبهة

خطيرة فتحتها واقعة شارلي هي المعركة بين (نبيين). فالاسلام يعترف بأن عيسى نبي، فيما الدين المسيحي لا يعترف بمحمد نبياً، ما يعني ان المتشددين من المسلمين سيعمدون الى انتزاع اعتراف المسيحين بأن محمد هو خاتم الانبياء.. وهذا سيجر الى جبهة صراع أوسع تكون بين العالم الاوربي المسيحي والعالم الاسيوي المسلم.. وقد بدأت بوادرها فعلاً بموقف الحكومات الاوربية من المسلمين فيها، ومن العرب بشكل عام. فمع ان العالم الاوربي دفع تضحيات غالية ليصل الى ما وصلت اليه الحضارة الاوربية فان شعوبها لم تتخلص من شحنة التمييز العنصري لدرجة ان لايزك شهدت تظاهرات في(2015/1/20) تصف المهاجرين المسلمين بانهم (حيوانات) فضلاً عن ان مسلمين في دول اوربية يعيشون بأسفل السلم الاجتماعي.

الخطأ القاتل الذي ارتكبته صحيفة (شارلي ايبدو) هي انها سخرت من اشخاص يعدّهم الناس انبياء. لم تدرك ان السخرية من شخص لن تفيد شيئاً في تقدم البشرية او انضاج الفكر، تماماً كما لو انك تنتقد الافلاطونية او الماركسية كفكر وتنتقد افلاطون وماركس كاشخاص. لو انها انطلقت من حقيقة ان في كل الاديان معتقدات تبدو لآخرين سخافات او أوهاماً، وكانت موضوعية.. لا تركز على معتقدات دين دون آخر.. لكانت موفقة في انضاج الفكر البشري والفكر الديني ايضاً.. ولكانت موفقة اكثر لو انتبهت ان تاريخ الاسلام ظهرت فيه حركات اتهمت بالالحاد والزندقة.. اخوان الصفا مثلاً.. الذين درسوا كبار فلاسفة الاغريق وبثوا افكارهم سرّا بين الناس، فضلاً عن المفكرين الذين أحرقت كتبهم واضطهدوا أو اعدموا. ويبدو ان الصحيفة كانت استعانت بمسلمين علمانيين أو ملحدين اضطهدتهم انظمتهم الاسلامية.

والخطأ التقويمي الذي وقع فيه من يسخرون من الانبياء، انهم يطبقون عليهم معايير مرحلة فكرية متقدمة على مرحلة فكرية سابقة مضى عليه اكثر من ألف عام.. ما يعني انه لا يصح منهجياً ولا موضوعياً اصدار حكم على موقف أو فكرة أو شخص بالمعيار المستخدم في غير زمنه.

ان كل الاديان فيها معتقدات تبدو لآخرين سخافات، ولك ان تسخر من افكار أو نصوص أو تعاليم تنسب لهذا الدين أو ذاك بهدف ممارسة دورك

الايجابي في تنوير الفكر البشري. ولكن علينا ان ننظر الى الانبياء بأن جميعهم يعدّون مبدعين، اذا فهمنا الابداع بأنه اضافة جديدة للمعرفة المتراكمة عبر تاريخ البشرية، او القدرة على ايجاد حلّ لمشكلة بطريقة جديدة وغير مالوفة، او انتاج نظرية جديدة او فكرة تحظى بالاهمية والقبول.. ولا اظن ان احداً في التاريخ حظي بقبول الناس كما حظي به ثلاثة اشهر انبياء.. موسى وعيسى ومحمد، بدليل ان لهم اتباع يعدون بالملايين والمليارات مع ان اقربهم مضى عليه اكثر من (1400) سنة.. ما يعني انهم مبدعون ينبغي عدم السخرية منهم كأشخاص. وبمفارقة نصوغها بتساؤل: اننا نعدّ شكسبير مبدعاً لأن خياله خلق ابطالاً اثاروا اعجابنا، فلماذا، بالمعيار الأدبي في الأقل وحتى المنطق الالحادي، لا نعدّ موسى أو عيسى أو محمداً، مبدعاً مع ان خيال كلّ واحد منهم قد خلق (إلهاً) أثار ليس اعجاب الناس.. بل عبادته!

في عام 1993 توقع هنتينغتون ان حروب المستقبل ستكون ثقافية وبأن مرحلة ما بعد الحرب الباردة ستكون مرحلة صراع الحضارات. ما كان في حسابات الرجل ان تحدث واقعة شارلي لتحول الصراع من حضارة اوربية ضد حضارة آسيوية الى عالم متعدد الانقسامات في جبهات متضادة واخرى متداخلة: العالم الأوربي مقابل العالم الآسيوي، المسيحيون مقابل المسلمين، المؤمنون الموجودون في كل الأديان وكل الحضارات مقابل الملحدين الموجودين في كل الأديان وكل الحضارات.. في حرب اشعلتها شارلي.. قد يسجلها التاريخ باسم (حرب الانبياء).

القسم الثالث

وجهات نظر في الشخصية العراقية

شكر وامتنان

حرصت ان تكون في هذا الكتاب وجهات نظر متنوعة في الشخصية العراقية.. فاخترت اربعة من المفكرين الكبار والكتّاب.. اثنان يمثلان جيل الكبار هما استاذ الاقتصاد الدكتور كاظم حبيب واستاذ علم الاجتماع الدكتور معن خليل العمر، وواحدا يمثل جيل الوسط هو الدكتور فجر جودة النعيمي، وواحدًا يمثل جيل الشباب هو التدريسي علي الرحيم صالح.

الأولى للدكتور كاظم.. دراسة معمقة للعلاقة الجدلية بين الاقتصاد والفرد تلقي

الضوء على ما فعلته الاحداث الاقتصادية والسياسية في تشكيل الشخصية العراقية. والثانية.. يتحدث فيها الدكتور معن عن سمات الشخصية العراقية وكيف جعلتها التحولات الاجتماعية شخصية غائية وغير راشدة. والثالثة.. دراسة عن الاحباط الاجتماعي يركز فيها الدكتور فجر على ما فعله ويفعله الاحباط في الشباب العراقي بشكل خاص. والرابعة.. دراسة يحلل فيها التدريسي علي.. الشخصية العراقية في العالم الافتراضي.. عالم الانترنت وشباكات التواصل الاجتماعي يضيء بها مسارات جديدة في الشخصية العراقية.

جزيل الشكر والامتنان لكم أيها الاساتذة الافاضل على استجابتكم ومساهمتكم في اغناء هذا المؤلف بوجهات نظر تزيدنا معرفة بالشخصية العراقية التي لها الدور الرئيس في تحديد مستقبل العراق واهله.

العلاقة الجدلية بين الاقتصاد وشخصية الفرد: العراق انموذجاً

أ. د. كاظم حبيب

"إنه لا يكفي أن تصف موج البحر، وظهور السفن، حين تريد أن تتكلم عن حياة البحر.. لا بد لك أن تفهم ما في القاع.. قاع البحر المليء بالغرائب والتيارات والوحوش، وقاع السفينة حيث يجلس عبيد وملاحون إلى المجاديف أياماً كاملةً، يدفعون بسواعدهم بضائع تحملها السفن، وثروات وركاباً.. وينزفون عرقاً، وتتمزق أجسامهم تحت السياط.. أجل، ينبغي أن تعطيني صورة كاملة، عندما تريد أن تقنعني بأمر من الأمور".

من مقدمة أبن خلدون

(1)

يتحكم أسلوب الإنتاج السائد في أي بلد من البلدان بالعلاقة الجدلية التي تنشأ بين الاقتصاد والفرد في المجتمع، كما تتحكم بدوره ومكانته وتأثيره ووضعه النفسي وأسلوب عيشه ونوعية حياته، أو باختصار شديد بشخصيته في المجتمع. كما إنها تجسد في المحصلة النهائية طبيعة العلاقة بين الاقتصاد والمجتمع بطبقاته وفئاته الاجتماعية كافة. وأسلوب الإنتاج السائد ببلد ما يكشف عن العلاقة القائمة بين الإنسان وملكية وسائل الإنتاج ومن ثم علاقة هذا الإنسان أو ذاك بحصيلة عملية الإنتاج وسبل توزيع الثروة المنتجة في المجتمع. وفي المجتمع الذي

تسوده علاقات الإنتاج الرأسمالية تنشأ علاقة بين طرفين حرّين ومستقلين، بين مالك وسائل الإنتاج، سواء أكان فرداً أم شركة أم الدولة ذاتها، من جهة، وبين الإنسان المالك لقوة عمله الفكرية والجسدية من جهة أخرى. وإذا كان الأول يحتاج إلى قوة العمل لتشغيل رؤوس أمواله، فأن العامل بحاجة إلى بيع قوة عمله ومستعد لذلك مقابل أجر يتقاضاه ليستطيع به العيش مع أفراد عائلته. وهنا نجد حالة اللزومية للطرفين، حيث يتم بيع محدد لقوة عمل العامل المجبر على ذلك لتأمين لقمة عيشه ما دام هناك من هو مجبر على شرائها لتشغيل رأس ماله. وعلى هذا الأساس وفي ضوء هذه العلاقة يتم توزيع الثروة المنتجة في هذا البلد أو ذاك بين هذين القطبين: العمل ورأس المال أو العامل والرأسمالي. أي إن طبيعة علاقات الإنتاج ومستوى تطورها وتطور القوى المنتجة والوعي الفردي والاجتماعي والروح النضالية للشغيلة هي التي تقرر شكل توزيع الدخل القومي المنتج سنوياً ودرجة الاستغلال التي يتعرض لها المنتج بفعل هذه العلاقات القائمة على الملكية الفردية أو الخاصة لوسائل الإنتاج. إنها علاقات تجسد واقع ومستوى التناقض القائم بين التملك الفردي لوسائل الإنتاج وبين الطابع الاجتماعي للقوى المنتجة، للعملية الإنتاجية والإنتاج.

وإذ يعتبر الإنسان من حيث المبدأ أثمن رأس مال، باعتباره المنتج الفعلي للخيرات المادية والروحية والخدمات الضرورية لعيش الفرد والمجتمع وتطورهما، فإن الاقتصاد وبنيته الداخلية ومستوى تطوره والعلاقات السائدة فيه تشكل عصب الحياة وتجسد العلاقة الجدلية بين الاقتصاد والإنسان. إذ إن موقع هذا الإنسان أو ذاك من ملكية وسائل الإنتاج، وبالتالي من الإنتاج، ومن مجمل عملية إعادة الإنتاج، أو العملية الاقتصادية، هي التي تحدد دوره ومكانته وتكشف عن طبيعة ومضمون تلك العلاقة. كما إن مستوى تطور القوى المنتجة المادية والبشرية بمقدوره أن يكشف عن مستوى وعي الإنسان بطبيعة تلك العلاقات الإنتاجية التي يعيش في ظلها وعلى أساسها يمارس نشاطه الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والبيئي في آن واحد وعن دورها في تحديد وضعه العام ومستوى ونوعية حياته ومعيشته وأوضاعه النفسية والعصبية والصحية. فمستوى وعي الإنسان يمنحه أو

يحرمه القدرة على فهم الأوضاع المعيشية والنفسية التي يعيش في ظلها أو تحت وطأتها. ومثل هذه الحالة التي تحدد مستوى وعي الفرد تنطبق إلى أبعد الحدود على الوعي الاجتماعي الجمعي لمجموعة من البشر أو للمجتمع بأسره. ويمكن أن يسري هذا التحليل للعلاقات القائمة في المجتمعات التي تسودها علاقات إقطاعية أو شبه إقطاعية في ملكية الأرض باعتبارها الوسيلة الأساسية للإنتاج الزراعي، أي العلاقة بين الإقطاعي مالك الأرض أو مستغلها وبين الفلاح المنتج للمحاصيل والغلل الزراعية. وفي هذا العلاقة يسيطر المالك للأرض أو مستغلها على القسم الأعظم من المحاصيل والمنتجات الزراعية السنوية ولا يبقى للفلاح إلا النذر اليسير الذي يحاول أن يسد رمقه ورمق أفراد عائلته ويعاني من شظف العيش المرير.

(2)

ويمكن أن تتجلى هذه العلاقات بوضوح من خلال البحث العلمي والموضوعي لواقع العلاقة بين الإنسان والاقتصاد بالعراق خلال الفترة الواقعة بين سقوط الدولة العثمانية في العام 1918 وإنهاء احتلالها للعراق ووقوع البلد تحت الهيمنة البريطانية منذ العام 1917 وتشكيل الدولة الوطنية الحديثة في العام 1921 حتى الوقت الحاضر. وإذا كان الإنسان في ظل الدولة العثمانية يشكل جزءاً من رعية لا يمتلك حقوق المواطنة ولا يتمتع بالحريات العامة وخاضع لقرارات السلطان والوالي والقضاة والجندرمة العثمانية، التي امتدت قرابة أربعة قرون عجاف، قاسية ومريرة، فإنها كانت تجسد في ذات الوقت استمرار وجود وفعل علاقات الإنتاج ذات الطابع والمضمون الأبوي والمتشابكة والمتحولة تدريجاً وعمليا صوب العلاقات الإنتاجية شبه الإقطاعية التي سمحت لشيوخ العشائر والعائلات الميسورة المتنفذة والتجار الكبار الهيمنة الواسعة على الأراضي الزراعية المملوكة للدولة واستغلال رجال ونساء العشائر في الإنتاج الزراعي ومصادرة القسم الأعظم من المحاصيل والمنتجات الزراعية السنوية. وكان السلاطين والولاة في الدولة العثمانية يشاركون شيوخ العشائر بانتزاع الجزء الأساسي والكبير من الريع المنتج أو المتحقق في الزراعة من قبل الفلاحين ويستخدموه لصالحهم ويتركوا

الفلاح يعيش في ظل العلل الثلاث المعروفة في بلدان العالم الثالث: الفقر والجهل والمرض. وكانت معاناة الإنسان الفلاح شبه القِن شديدة الوطأة على حياته وحياة أفراد عائلته، والتي كانت تتجلى في أوضاعه الصحية والنفسية والعصبية ومحاولاته في الهروب من الريف إلى المدينة ومطاردة القضاء والجندرمة له ولأفراد عائلته لإعادته إلى الريف والزراعة وإلى حالة شبه قنانة بذريعة مديونيته لشيخ العشيرة أو مستغل الأرض الزراعية. وقد خلق التداخل بين شيخ العشيرة واستغلال الأرض الزراعية من قبله حالة أشبه ما تكون بين علاقتي الأبوية والقنانة التي كانت الأولى تغطي على الثانية، أي على الاستغلال البشع للفلاحين وعائلاتهم وتشويه وعيهم بما كان يحصل لهم من استغلال مستمر طوال قرون مديدة.

(3)

وفي ظل الحكم الملكي أصبح للعراق دستور ديمقراطي عام وحقوق مواطنة وحريات عامة من الناحية النظرية والدستورية، ولكنها لم تكن كذلك من الناحية العملية. ومع ذلك فالإنسان لم يعد جزءاً من رعية السلطان بل أصبح مواطناً في دولة تسعى لتكون مدنية، رغم ما صاحب نشوء وتطور هذه الدولة حتى نهاية العهد الملكي من تشويه للدستور وتزوير للانتخابات العامة وفرض إرادة المحتل في الاتفاقيات والعقود النفطية التي وقعت في العام 1924 ومن ثم تكريس العلاقات الإنتاجية شبه الإقطاعية على وفق قوانين الخبير البريطاني بشؤون الأرض وتجربته العملية بالهند "أرنست دواسن" التي صدرت في العام 1932 وما بعدها من القرن الماضي، حيث جرى تمليك مساحات واسعة من الأراضي الزراعية العائدة للدولة بأسماء شيوخ العشائر وكبار التجار والعائلات الحاكمة المتنفذة بالبلاد أو منح حقوق التصرف بأراضي الدولة لهم. وفيها حرمت جمهرة واسعة جداً من الفلاحين من أبناء العشائر من حقوق الملكية وتحولوا إلى فلاحين شبه أقنان يعملون لصالح الملاك أو مستغل الأرض الذي تميز بالجشع والإفراط في استغلال الفلاح مما جعلهم يعيشون في بؤس شديد وفاقة اجتماعية ويهربون هم وأفراد عائلاتهم بأعداد كبيرة من الريف إلى المدينة بأمل الحصول على عمل وعيش أكثر إنسانية. وغالباً ما كانوا يتعرضون للاستغلال

البشع والبطالة والعيش على هامش الحياة الاقتصادية بالمدن، إضافة إلى الحرمان من الحقوق ومن العيش الكريم مما أصبح الكثير منهم يعيش حياة رثة وأشباه بروليتاريا معدمة وعرضة للابتزاز والاستغلال البشع أو عاشوا حياة قصيرة تحت وطأة الأمراض النفسية والعصبية والصحية وفي أكواخ وبيوت لا تصلح لحياة البشر.

(4)

كانت الدولة العراقية حتى نهاية الحرب العالمية الثانية تعتمد بشكل خاص على نشاط وعمل جمهرة الفلاحين الفقراء والمعدمين الواسعة في الزراعة وعلى الريع المنتج في تمشية شؤون الدولة والمجتمع وكانت النسبة الأساسية من دخلها القومي يتأتى من الزراعة وتصدير التمور مثلاً، ومن الصناعات الحرفية المتخلفة من حيث تقنيات وسائل الإنتاج، وكان دور النفط ضعيفاً منذ بدء استخراجه في العام 1933. ولكن منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، وبشكل أخص منذ العام 1951/1950، حيث تم التوقيع على اتفاقية مناصفة توزيع عائدات النفط الخام بين العراق وشركات النفط الأجنبية، بدأ العراق يتحول عملياً وبسرعة إلى دولة نفطية ريعية ويتراجع دور الزراعة في تكوين الدخل القومي، كما كانت المشاريع الصناعية الحديثة والصناعة الحرفية تساهم بدور محدود في ذلك. فماذا يعني أن تكون الدولة ريعية نفطية؟ هذا يعني وباختصار شديد إن الدولة الريعية تعتمد في تكوين دخلها القومي على نسبة عالية من الإيرادات المالية المتأتية من اقتصاد النفط الخام، اي من استخراج وتصدير النفط الخام، وبالتالي فهي دولة يعتمد اقتصادها على الخارج في تكوين نسبة عالية من الدخل القومي السنوي، في حين لا تلعب القطاعات الاقتصادية الأخرى دوراً مهماً أو كبيراً في تكوين هذا الدخل. ولهذه الحقيقة عواقب سلبية كبيرة على الفرد والمجتمع.

يشير الكاتب الإيراني المعروف حسين مهداوي إلى مسألتين سلبيتين رئيستين بالنسبة للإنسان والمجتمع هما:

"- أنّ الدولة الريعيّة لا تحصل على مواردها من الضرائب التي تفرضها على مواطنيها، وبالتالي فهي لا تخضع إلى محاسبة هؤلاء، فتصبح "مستقلّة سياسيّاً" انطلاقاً من "استقلالها الضريبي".

ـــ والثانية أنّ هذه الدولة تعتمد سياسات توزيعيّة تؤدي إلى إخراج السكان من الحيّز السياسي وبالتالي من أية مطالبة بالديموقراطيّة".

ولكن هذه الدولة الريعية التي تستقل عن إرادة شعبها ومصالحه ويعجز الفرد والمجتمع عن مطالبتها بالحريات العامة والديمقراطية وحقوق الإنسان والاستجابة لمصالحها في التنمية والتقدم الاجتماعي، تتحول عملياً إلى دولة استبدادية، لأنها تعتقد جازمة وقادرة على شراء إرادة الإنسان وسكوته أو حتى صوته إن مارست الانتخابات العامة بجزء صغير من الريع السنوي المتحقق للدولة من النفط الخام لتقدمه للمواطن دون أن يمارس دوره في دفع الضرائب لتمويل الميزانية الاعتيادية أو الميزانية العامة، وبالتالي لا تجد من حقه أن يحاسبها على ما تفعله من ريع لم يشارك في إنتاجه! ولكن هذه الدولة التي ترى نفسها مستقلة عن مواطنيها، تكون في الوقت ذاته مكشوفة على الخارج وخاضعة لاستيراداته النفطية. وفي هذا الواقع تبرز التبعية الفعلية لاقتصاد العراق الريعي النفطي للاقتصاد الدولي. إن مشكلة العراق لا تبرز في كونه اقتصاداً ريعياً يعتمد على إيرادات النفط الخام فحسب، بل في بنية اقتصاده المتخلفة والمشوهة ومن ثم في البنية المشوهة للبنية الطبقية للمجتمع العراقي. وبمرور العقود المنصرمة تفاقم الطابع الريعي للدولة وتعمقت تبعيته الاقتصادية لاقتصاد النفط الخام والانكشاف التام على الخارج، والذي برز بوضوح شديد في فترة الحروب والحصار الاقتصادي الدولي. ومثل هذا الاقتصاد يعجز عن تحقيق التنمية الإنتاجية، وإقامة المشاريع الصناعية وتحديث الزراعية وتأمين فرص عمل جديدة للقوى العاملة التي تدخل سوق العمل سنوياً بسبب طبيعته الريعية وسلوكيات الفئات الحاكمة الناشئة عن تلك الريعية في طبيعة الدولة واقتصادها، وبالتالي فهم يدفعون بالكثير من القوى العاملة، والخريجين بشكل خاص، صوب مؤسسات وأجهزة الدولة الحكومية للعمل كموظفين ومستخدمين ويدفعون لهم رواتب ويزيدون بالتالي البطالة المقنعة فيها ويستنزفون جزءاً مهماً من الدخل القومي دون فائدة فعلية للمجتمع والاقتصاد الوطني.

(5)

على امتداد قرون كثيرة تعرض الشخصية العراقية للاضطهاد والقمع والاستلاب من جانب النظم السياسية الحاكمة والتي تفاقمت منذ القرن الحادي عشر الميلادي ومن ثم في أعقاب سقوط بغداد في العام 1258م. وكان التعامل اللاإنساني مع سكان العراق حتى قبل ذاك وفي العهد الأموي حيث وقف الحاكم والمستبد بأمره الحجاج بن يوسف الثقفي في الكوفة يخاطب الرعية بقوله: "والله إني أرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها، وإني لصاحبها، وإني لأرى الدم يترقرق بين العمائم واللحى"، وكذا الحال في العهد العباسي ومن ثم العثماني، قد أدى إلى نشوء شخصية عراقية ذات صفات سلبية بشكل خاص، إلا إنه احتفظ ببعض سماته الإيجابية أيضاً. فعلى سبيل المثال لا الحصر كان القلق والخوف من الحاكم والشك فيه وفي سياساته وإجراءاته وعدم احترام قوانينه رغم خشيته من الحكم وبروز ظاهرة الباطنية أو ما يطلق عليها بالتقية والتي تجسد من ناحية أخرى انتهازية و"طبطبة" على الكتف أو "مسح الجوخ" المقرف حقاً، كما يعبر عنه العراقيون والعراقيات، وسلوك خشن وقسوة وعنف في مواجهة الشخص أو الرأي الآخر، وسواء أكان بالكلمة أم بالاعتداء أو باستخدام السلاح. وإذا كانت هذه وغيرها سمات سلبية في الشخصية العراقية تشكلت عبر الزمن وبدور النظم السياسية الحاكمة والحكام، فقد كان الشك والرؤية النقدية وقراءة ما بين السطور والقدح الفكري والاستعداد للمواجهة حين ينفذ الصبر، بعض السمات الإيجابية التي يشترك بها العراقيون والعراقيات. إنها نتاج الواقع الاقتصادي والاجتماعي والسياسات الذي مرَّ به العراق على امتداد القرون المنصرمة. ويمكن أن نجد تجليات ذلك حتى في الملحمة الرائعة لگلگامش، التي عمرها أكثر من أربعة آلاف سنة، حيث يصف الشاعر الرائع أو الشاعرة الرائعة السلوك الاستبدادي لگلگامش مع شعبه. وهو تعبير عن طبيعة العلاقات الاقتصادية والاجتماعية التي سادت في تلك المرحلة من تاريخ العراق والتي تجلت فيما بعد بعدد كبير من عقوبات الموت وعقوبات قاسية أخرى تضمنتها الشريعة التي كتبت في مسلة حمورابي واحتوت على 300 مادة، (1792-1750ق.م). وعلينا أن نعرف بأن القوانين التي تصدر عن النظم الحاكمة تعبر عن واقع فكري معين وناشئ بدوره عن واقع اقتصادي واجتماعي معين قائم في هذا البلد أو ذاك وفي هذه الفترة الزمنية أو تلك.

(6)

في الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية بدأت العلاقات الإنتاجية الرأسمالية في التجارة وفي الصناعة والمصارف والتأمين تتطور بصورة أسرع من فترة الثلاثينات وتزداد الضغوط على الحكومة لاستخدام موارد النفط المالية في الصناعة وتحديث الزراعة وتطوير الحياة التعليمة والثقافية والمدنية في المجتمع. لقد كانت المرحلة الأولى لتكوين الرأسمالي البدائي وتراكمه لصالح التنمية رغم التعثر الشديد في حركة رأس المال الحكومي والخاص والأجنبي. وكان لنضال الشعب في الدفع نحو التغيير دوره البارز في تحقيق جملة من المكاسب المفيدة للمجتمع وخاصة في قطاع الصناعة التحويلية كالغزل والنسيج والسكر والمشروبات الغازية والكحولية والسجاير ومشاريع السمنت وتكرير النفط وزيادة سعة الطاقة الكهربائية ومشاريع مياه الشرب، كما بدأت الفنون الإبداعية والآداب، تأخذ مكانها ودورها في المجتمع وتتسع وتلعب دوراً ملموساً في تطوير الذوق الفني والوعي الاجتماعي لجمهرة واسعة نسبياً من مجتمع المدينة، وخاصة بغداد والبصرة والموصل وبعض المدن الأخرى في حين بقي الريف والكثير من المدن الكبيرة والصغيرة مهمشة وبعيدة عن التقدم الحضاري النسبي الذي بدأت تشهده المدن الثلاث السابقة. وقد سجل هذا الواقع المزيد من التفاوت في مستوى التقدم الاقتصادي والاجتماعي وكذلك في مستوى حياة ومعيشة الأفراد وفي وعي الإنسان الفردي والجمعي. كما شمل هذا التمايز مستوى مشاركة المرأة في الإنتاج والحياة العامة بالمدن وفي ضعف مستوى الوعي لديها أيضاً.

(7)

ومع ذلك فإن ولوج المزيد من الأبناء والبنات في المدارس والتوسع في إنشاء المدارس بمراحلها المختلفة والكليات وإرسال البعثات وارتفاع عدد الدارسين والدارسات، إضافة إلى زيادة عدد الملتحقين بالقوات المسلحة وكليات الضباط، ووجود النقابات والجمعيات والأحزاب، سواء أكانت سرية أم علنية، نشط وعي الإنسان بواقعه وأثر على الموقف من الدولة وسياسات الحكومات المتعاقبة. في

مقابل ذلك استمرت سياسات الحكومات الملكية في تشويهها للدستور وإصدار قوانين مخالفة له وتزوير الانتخابات وعدم الاهتمام بتفاقم البطالة والفقر، وخاصة في المدن الصغيرة وريف البلاد. كما برز موقف شوفيني في مواجهة مطالب الشعب الكردي وحقوقه المشروعة وتهميش دوره في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. وقد دفع كل ذلك وغيره الشعب بكل قومياته إلى مواجهة النظام الحاكم والسعي للتخلص منه والذي قاد إلى مواجهات دامية وسجون ونفي وإسقاط للجنسية. وخلال هذه الفترة تعرض يهود العراق الذين بلغ عددهم في نهاية العقد الخامس من القرن الماضي ما يقرب من 140000 نسمة، إلى تهجير واسع عبر إسقاط جنسية من يبقى خارج العراق لثلاثة شهور ولا يعود للعراق أو من يرغب بإسقاطها في أجواء موبوءة بعد أن تعرض لمجزرة شرسة في فرهود العام 1941 ضد اليهود. وكان جزء مهم من يهود العراق من خيرة المثقفين والاقتصاديين والكتاب والأدباء والفنانين الذي خسرهم العراق. ولم يواجه هذا الموقف الخياني والمزري من اليهود بالاحتجاجات الشعبية المطلوبة من جانب المجتمع، وذلك بسبب الأجواء المناهضة لليهود التي تفاقمت بالعراق في فترة الحكم النازي بألمانيا الهتلرية، وبسبب القضية الفلسطينية ونشوء دولة إسرائيل منذ التقسيم في العام 1947 – 1948، وبسبب نشاط القوى القومية العربية اليمينية وقوى الإسلام السياسي (الأخوان المسلمون) حينذاك.

(8)

إن عوامل كثيرة أدت إلى قيام مظاهرات ووثبات وانتفاضات بين 1945ـــ 1958 والتي قوبلت بالحديد والنار من جانب الحكومات الملكية المتعاقبة، بالرغم من الجو الديمقراطي الذي أشاعه الانتصار على الفاشية في العام 1945، ولكن بدء الحرب الباردة بين المعسكرين الاشتراكي والرأسمالي في نهاية العقد الخامس وبداية العقد السادس قد أدى بالعراق إلى انطلاق ثورة تموز 1958 وإسقاط النظام الملكي والذي تجلى في مجرى الأيام الأولى للثورة واقع كراهية الشعب وحقده وعنفه وقسوته على قادة العهد الملكي بسبب ما تحمله قبل ذاك من سياسات وإجراءات غير عادلة

وظالمة والتي مع ذلك لم تكن مبررة لما وقع، وبشكل خاص للعائلة المالكة وبعض المسؤولين الكبار. إلا إن إدانة ما وقع شيء، وما حصل شيء آخر، إذ عبر بشكل صارخ عن الوضع النفسي المعقد والمركب للإنسان العراقي الاعتيادي ومضمون السلوكيات التي تبلورت وتكرست عبر السنين في الفرد العراقي، والتي يحسن علم النفس الاجتماعي تحليلها واستخلاص الدروس والمعالجات منها، وهي في الوقت ذاته تعبر عن ضعف الوعي الحضاري بالعراق بسبب تلك الانقطاعات الحضارية الطويلة التي مرَّ بها سكان العراق وما ترسب في الوعي الفردي والجمعي المزيف والمشوه في آن واحد. إذ إن الفترة القصيرة التي عاشها الشعب منذ بدء جهود بناء المجتمع المدني العراقي بين قيام الدولة الحديثة وسقوط الملكية (1921 – 1958م) لم تكن كافية أولاً، كما إن تشويه الحكام لهذه البداية المدنية، بما في ذلك تشويه بنود الدستور في الممارسة العملية اليومية، ثانياً، وإهمال ملموس لحاجات الشعب ومصالحه الأساسية والفقراء منهم على وجه الخصوص ثالثاً، والتخلف عن توفير مستلزمات بناء المجتمع المدني وفئاته الاجتماعية الحاملة له، الطبقة البرجوازية المتوسطة وخاصة الصناعية منها والطبقة العاملة والفئة المثقفة، رابعاً، وممارسة العنف والقسوة والظلم في مواجهة مطالب الشعب وحقوقه الديمقراطية وظروف الفلاحين القاسية تحت نير العلاقات شبه الإقطاعية خامساً، ودور المؤسسات والمرجعيات الدينية غير المتنورة بشكل عام سادساً، كانت الأسباب المباشرة والأساسية لما حصل بالبلاد في أعقاب ثورة تموز 1958 حتى يومنا هذا.

(9)

لم تكن ثورة تموز 1958، التي بدأت بسياسات وإجراءات مهمة ضمن ما يطلق عليه بـ"مهمات الثورة الوطنية الديمقراطية" في مجالات الإصلاح الزراعي والتنمية الصناعية التحويلية وتطوير مشاريع الثروة النفطية واستعادة بعض حقوق العراق في شركات النفط الأجنبية وقانون الأحوال الشخصية والتفاعل مع الشعب والاعتراف ببعض حقوق الشعب الكردي.. الخ، قادرة على استكمال هذه المرحلة بفعل استمرار العسكر في السلطة وعدم وضع دستور دائم وبدء الخلافات بين

القوى السياسية، التي نفذت انتفاضة تموز العسكرية وتحويلها إلى ثورة وطنية ديمقراطية، وبدء تدخل كبير ومؤثر للمرجعيات والمؤسسات الدينية الشيعية منها والسنية في الحياة السياسية العراقية ومشاركتها في تشويه وعي الإنسان وتشويه وجهة التطور بالعراق، مما ساهم في مشاركة واسعة من قوى داخلية ودول اقليمية وعالمية وخاصة الولايات المتحدة وبريطانيا، في التآمر الكثيف لإسقاط الجمهورية الأولى وثورة تموز وحكومتها الوطنية ورأسها الزعيم عبد الكريم قاسم. وقد تحقق ذلك فعلاً في الثامن من شباط/فبراير 1963.

(10)

كان هذا السقوط كارثة كبيرة على افرد والمجتمع بالعراق وعلى دورهما ووعيهما، خاصة وأن النظام السياسي القومي - البعثي اليميني المتطرف الذي أقيم بالعراق، مارس سياسات شوفينية وفاشية في مواجهة قوى المعارضة بما في ذلك القتل والسجن والتعذيب حتى الموت والعمل على غسل الأدمغة بسياسات شوفينية متعفنة وبالية. وعرف العراق في الفترة بين 1963 – 2003 ثلاثة انقلابات عسكرية متتالية وكان آخرها في العام 1968 حيث استقر حكم ونظام حزب البعث العربي الاشتراكي واستمر حتى العام 2003 وأُسقط بحرب عسكرية خارجية تمت بتحالف دولي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية وخارج قرارات الأمم المتحدة ومجلس الأمن الدولي.

وعلى مدى 35 عاماً، دع عنك السنوات التي سبقت ذلك، عاش الشعب العراقي تحت وطأة نظام سياسي استبدادي مطلق يقوده حزب قومي شوفيني وعنصري هو حزب البعث العربي الاشتراكي، وتحت قيادة لعبت دورها المزري والمخزي في تكريس الاتجاهات الفكرية والعملية التي كان لها دورها البارز والسلبي على عقول وأفعال الكثرة الغالبة من المواطنين الذكور بشكل خاص والتي نلخصها فيما يلي:

- كان الهدف المركزي لحزب البعث هو الانفراد الكامل بالسلطة المطلقة ونشر الفكر القومي اليميني المتطرف في المجتمع وفي المدارس والمعاهد

والكليات والجامعات العراقية والهيمنة على وسائل النشر والإعلام بما لا يسمح إلا للفكر البعثي الشوفيني في الانتشار، واعتبار كل الأفكار الأخرى معادية للأمة العربية والدولة العربية الموحدة! وقد حقق ذلك في نهاية العقد الثامن بشكل تام وأصبح البعث وعلى رأسه صدام حسين هو الحاكم المطلق بالبلاد.

- ومن أجل تحقيق هذا الهدف انتهج حزب وحكم البعث سياسة التوسع في استخراج وتصدير النفط الخام ومن ثم تأميم مصالح أغلب شركات النفط الأجنبية، بأمل الحصول على أقصى الموارد المالية الممكنة، وبالتالي عمقت هذه السياسة الطابع الريعي للدولة العراقية واقتصادها وتبعيتها للموارد المالية المتأتية من الخارج. وهي التي وفرت بدورها المستلزمات الفعلية للتحول صوب الدولة الاستبدادية المطلقة وقطع وشائجها الفعلية بالفرد والمجتمع والهيمنة على عقول ومعيشة ومستوى حياة الفرد والفئات الاجتماعية المختلفة. ومن خلال هذه السياسة بدأت عملية مصادرة الحقوق والحريات العامة للأفراد والأحزاب ومنظمات المجتمع المدني وضد الشعب الكردي من جهة، كما برزت على سطح الأحداث الأهداف التوسعية العدوانية للبعث الحاكم صوب الدول المجاورة والتي حصلت فعلاً في حروب النظام الداخلية والخارجية من جهة أخرى.
- وفي مثل هذه النهج توفرت لحكام البعث الفاشيين تشويه وعي الفرد العراقي من خلال زيادة السيولة النقدية وتشديد النزعات الاستهلاكية في العقد الثامن من القرن الماضي والانغماس في تأمين الرغبات الذاتية والروح الانتهازية على حساب المجتمع وتطوره الاقتصادي. لقد شوه الاقتصاد الريعي النفطي ووفر مستلزمات قيام الدولة المستبدة المطلقة التي زيفت وعي الفرد وشوهت قيمه الإنسانية أو غيبتها عنه.
- وقد ساعد كل ذلك على توجه البعث الحاكم صوب عسكرة الاقتصاد والمجتمع، سواء ببناء أكبر ترسانة عسكرية هجومية مستوردة ومتقدمة وحديثة أو إنشاء مصانع لهذا الغرض. وقد تمكن من ذلك بسبب تعاظم

موارد النفط المالية بعد تأميم مصالح شركات النفط الأجنبية، وتوجه صوب إنتاج السلاح الكيماوي والجرثومي وأنتج ذلك، ثم بدأ بالعمل على إنتاج السلاح النووي والذي لم يستكمل ودمر مرتين وفشل بسبب عواقب حرب الخليج الثانية في العام 1991.

- التربية العسكرية لأطفال وطلبة العراق والشبيبة بما ساعد على تشكيل جيش عراقي جرار اقترب من مليون نسمة وجيش شعبي يصل إلى حدود نصف مليون نسمة. وقد اعتبر الحق مرتبط بالقوة العسكرية والحرب هي الوسيلة الوحيدة لانتزاع الحق، فالقوة هي الحق والحق هي القوة!
- ضرب جميع الأحزاب السياسية العراقية وفرض الهجرة إلى جبال كردستان أو الخارج لمن استطاع الإفلات من أيدي أجهزة الأمن والأجهزة الخاصة، وكان النظام يعتمد خمسة أجهزة أمنية يشرف عليها مباشرة.
- لقد توسع العراق بعمليات التصنيع الكيماوي والأغذية والغزل والنسيج والتعدين وتكرير النفط والصناعات العسكرية وتشكلت طبقة عاملة واسعة ولكنها خاضعة لهيمنة حزب البعث ونقاباته التي منع عنها الإضراب والتظاهر والاحتجاج.
- خاض النظام البعثي الصدامي حروباً داخلية وخارجية عديدة دمرت ما كان قد بني قبل ذاك وبعد وصول البعث إلى السلطة من منشآت صناعية وخدمية اجتماعية ومشاريع كهرباء وماء... الخ. وقد تسبب كل ذلك بتحقيق ما أشار إليه جيمس بيكر، وزير خارجية الولايات المتحدة، "سنعيد العراق إلى ما قبل التصنيع".
- ونفذ النظام سياسات عسكرية وفاشية مدمرة لأبناء الشعب العراقي. فقد مارس سياسة الإبادة الجماعية في عمليات ومجازر الأنفال في العام 1988 وكذلك ذات السياسة التدميرية ضد الكرد الفيلية وضد سكان الأهوار وضد عرب الوسط والجنوب الشيعة الذي اتهمهم واعتبرهم ظلماً تبعية إيرانية!

- وإذا كان النظام البعثي لسنوات غير قليلة يتسم بالشوفينية والكراهية للكُرد، فإنه قد برهن فيما بعد أيضاً عن تطرفه المذهبي الطائفي ضد الشيعة التي تفاقمت في فترة الحرب ضد إيران وحكمها الشيعي، مما عرض مئات ألوف الشيعة إلى التهجير القسري والسجن والتعذيب أو زجهم في مقدمة المعارك القتالية ضد إيران ليموتوا في جبهات القتال.
- لقد فرض على العراق حصاراً اقتصادياً دولياً بعد اجتياحه الكويت ورفضه الانسحاب العسكري منها ومن ثم تعرضه لحرب واسعة طرد من الكويت ودمر العراق وقتل عشرات ألوف الجنود وغيرهم في الحرب الأمريكية في العام 1991.

(11)

وإذ كانت كل العوامل السياسية والعسكرية الأخرى لعبت دوراً كبيراً في التأثير المباشر على شخصية الإنسان العراقي وسلوكه الفردي والاجتماعي وأخلاقياته، فأن الحروب بين 1980 – 2003 والحصار الاقتصادي على نحو خاص، الذي دام 13 سنة، كان لهما التأثير المدمر على الحالة النفسية والعصبية والصحية العامة والسلوكية المعقدة والمريضة للإنسان العراقي الفرد ولمجموع المجتمع، كما كان له الدور التدميري للاقتصاد والبيئة العراقية وللعلاقات الإنسانية في المجتمع. لقد مات الكثير من الأطفال والمرضى وكبار السن والحوامل نتيجة نقص التغذية والأدوية والمعالجات الطبية والأوبئة والأسلحة التي استخدمت في تلك الحروب ومنها الأسلحة أو العتاد (الطلقات) المخصب بالإشعة النووية، إضافة إلى ما نشأ عنها من تشوهات خلقية في الولادات الجديدة في المناطق التي تعرضت لتلك الأسلحة وكذلك الكثير من الأمراض السرطانية وغيرها التي لم تكن معروفة بالعراق.

لقد دفع هذا الواقع المريض بالشخصية العراقية إلى النكوص والغوص في الغيبيات والخرافات وأعمال السحر للخروج من واقعها المرور والهروب منه إلى المساجد أو الجوامع والحسينيات مما جعل الكثير من الناس ضحية شيوخ دين مزيفين ومشوهين لفكر الإنسان وحريته وحقوقه ووعيه في آن واحد.

(12)

لقد أُسقط هذا النظام خارجياً بعد أن عجز الشعب وقواه السياسية الوطنية عن إزاحته. وكان الشعب العراق في هذه الفترة يعاني من عوز دائم ومن فوضى قاتلة خاصة وإن قوات الاحتلال التي أسقطت صدام حسين كانت تريد بهذه الحرب نقل المعركة ضد قوى الإسلام السياسي من الولايات المتحدة الأمريكية ومن أوروبا إلى العراق والشرق الأوسط والسماح بنشوء ما أطلقت عليه وزيرة خارجية الولايات المتحدة في عهد المهووس بالحرية الامريكية والنموذج الأمريكي وبالدين ورسالته الإلهية للعالم جورج دبليو بوش الأبن، كوندليزا رايس، بـ "الفوضى الخلاقة!" المدمرة للفرد والمجتمع العراقي فعلياً!

(13)

ولتحقيق الأهداف الأمريكية المعلنة وغير المعلنة أقام التحالف الدولي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية وبالتعاون مع قوى الإسلام السياسي وقيادات القوى الكردية نظاما سياسياً طائفياً يعتمد قاعدة المحاصصة الطائفية والأثنية في توزيع مواقع الحكم ومؤسسات الدولة وساهمت بسن دستور يسمح بذلك عملياً، وبالتالي فتحوا بصورة ممنهجة ومنظمة ومدروسة بعناية كبيرة وهادفة، الأبواب مشرعة أمام الصراع والنزاع والفساد والإرهاب والتهميش والإقصاء والقتل والتدمير على نطاق واسع، إضافة إلى ما تعرض له الشعب في محافظات نينوى والأنبار وصلاح الدين وديالى من اجتياح وقتل وتدمير، وبشكل خاص ما حل بالإيزيديين من سبي واغتصاب للنساء وبيعهن في سوق النخاسة، وكذل ما حصل للمسيحيين والشبك وسكان تلعفر من تهجير قسري وقتل ونهب وسلب واختطاف وكل ما يعاني منه العراق حالياً.

لقد ساعدت الإدارة الأمريكية قوى وأحزاب إسلامية سياسية في الوصول إلى دست الحكم لتمارس حكماً طائفياً رثاً من حيث النهج والسياسية والسلوك الاجتماعي والأهداف، والذي عبر بدوره عن طبيعة هذه الفئات الاجتماعية. وبالتالي حول حكام العراق البلاد كلها إلى رثاثة مريرة ومدمرة.

- وإذا كان النظام البعثي لسنوات غير قليلة يتسم بالشوفينية والكراهية للكُرد، فإنه قد برهن فيما بعد أيضاً عن تطرفه المذهبي الطائفي ضد الشيعة التي تفاقمت في فترة الحرب ضد إيران وحكمها الشيعي، مما عرض مئات ألوف الشيعة إلى التهجير القسري والسجن والتعذيب أو زجهم في مقدمة المعارك القتالية ضد إيران ليموتوا في جبهات القتال.
- لقد فرض على العراق حصاراً اقتصادياً دولياً بعد اجتياحه الكويت ورفضه الانسحاب العسكري منها ومن ثم تعرضه لحرب واسعة طرد من الكويت ودمر العراق وقتل عشرات ألوف الجنود وغيرهم في الحرب الأمريكية في العام 1991.

(11)

وإذ كانت كل العوامل السياسية والعسكرية الأخرى لعبت دوراً كبيراً في التأثير المباشر على شخصية الإنسان العراقي وسلوكه الفردي والاجتماعي وأخلاقياته، فأن الحروب بين 1980 – 2003 والحصار الاقتصادي على نحو خاص، الذي دام 13 سنة، كان لهما التأثير المدمر على الحالة النفسية والعصبية والصحية العامة والسلوكية المعقدة والمريضة للإنسان العراقي الفرد ولمجموع المجتمع، كما كان له الدور التدميري للاقتصاد والبيئة العراقية وللعلاقات الإنسانية في المجتمع. لقد مات الكثير من الأطفال والمرضى وكبار السن والحوامل نتيجة نقص التغذية والأدوية والمعالجات الطبية والأوبئة والأسلحة التي استخدمت في تلك الحروب ومنها الأسلحة أو العتاد (الطلقات) المخضب بالإشعة النووية، إضافة إلى ما نشأ عنها من تشوهات خلقية في الولادات الجديدة في المناطق التي تعرضت لتلك الأسلحة وكذلك الكثير من الأمراض السرطانية وغيرها التي لم تكن معروفة بالعراق.

لقد دفع هذا الواقع المريض بالشخصية العراقية إلى النكوص والغوص في الغيبيات والخرافات وأعمال السحر للخروج من واقعها المرور والهروب منه إلى المساجد أو الجوامع والحسينيات مما جعل الكثير من الناس ضحية شيوخ دين مزيفين ومشوهين لفكر الإنسان وحريته وحقوقه ووعيه في آن واحد.

(12)

لقد أُسقط هذا النظام خارجياً بعد أن عجز الشعب وقواه السياسية الوطنية عن إزاحته. وكان الشعب العراق في هذه الفترة يعاني من عوز دائم ومن فوضى قاتلة خاصة وإن قوات الاحتلال التي أسقطت صدام حسين كانت تريد بهذه الحرب نقل المعركة ضد قوى الإسلام السياسي من الولايات المتحدة الأمريكية ومن أوروبا إلى العراق والشرق الأوسط والسماح بنشوء ما أطلقت عليه وزيرة خارجية الولايات المتحدة في عهد المهووس بالحرية الامريكية والنموذج الأمريكي وبالدين ورسالته الإلهية للعالم جورج دبليو بوش الأبن، كوندليزا رايس، بـ "الفوضى الخلاقة!" المدمرة للفرد والمجتمع العراقي فعلياً!

(13)

ولتحقيق الأهداف الأمريكية المعلنة وغير المعلنة أقام التحالف الدولي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية وبالتعاون مع قوى الإسلام السياسي وقيادات القوى الكردية نظاما سياسياً طائفياً يعتمد قاعدة المحاصصة الطائفية والأثنية في توزيع مواقع الحكم ومؤسسات الدولة وساهمت بسن دستور يسمح بذلك عملياً، وبالتالي فتحوا بصورة ممنهجة ومنظمة ومدروسة بعناية كبيرة وهادفة، الأبواب مشرعة أمام الصراع والنزاع والفساد والإرهاب والتهميش والإقصاء والقتل والتدمير على نطاق واسع، إضافة إلى ما تعرض له الشعب في محافظات نينوى والأنبار وصلاح الدين وديالى من اجتياح وقتل وتدمير، وبشكل خاص ما حل بالإيزيديين من سبي واغتصاب للنساء وبيعهن في سوق النخاسة، وكذل ما حصل للمسيحيين والشبك وسكان تلعفر من تهجير قسري وقتل ونهب وسلب واختطاف وكل ما يعاني منه العراق حالياً.

لقد ساعدت الإدارة الأمريكية قوى وأحزاب إسلامية سياسية في الوصول إلى دست الحكم لتمارس حكماً طائفياً رثاً من حيث النهج والسياسية والسلوك الاجتماعي والأهداف، والذي عبر بدوره عن طبيعة هذه الفئات الاجتماعية. وبالتالي حول حكام العراق البلاد كلها إلى رثاثة مريرة ومدمرة.

(14)

لقد برز المسعى المركزي للقوى الحاكمة بالعراق وتبلور في عدد من المسائل المفتتة لوحدة الشعب العراقي وتجاوز إقامة دولة مدنية ديمقراطية اتحادية/منها بشكل خاص نذكر:

- تأمين المزيد من موارد النفط المالية من توقيع المزيد من العقود مع الشركات الأجنبية لضمان زيادة استخراج وتصدير النفط الخام، وبالتالي تعميق السمات الأساسية للدولة الريعية النفطية والاقتصاد الريعي وكل ما يعني ذلك من عواقب سلبية مدمرة للفرد والمجتمع، والذي يوفر بدوره أرضية الاستبداد ومصادرة الحقوق والحريات العامة وعدم الاعتماد على الضرائب في دعم ميزانية الدولة الاعتيادية والعامة، بل الاعتماد على ما يرد من الخارج من عوائد تصدير النفط الخام، وبالتالي تكون الدولة والحكومات المتعاقبة في حل من الشعب ومستقلة عنه، ولكنها في ذات الوقت تابعة للخارج وتشكل جزءاً من عملية إعادة إنتاج مشوهة تتم بشكل تبعي في خارج الاقتصاد العراق.
- تكريس حكم طائفي سياسي بالعراق وتوزيع الحكم على أسس المحاصصة الطائفية والأثنية بين العرب والكُرد وبين السنة والشيعة وممارسة التمييز ضد أتباع القوميات والديانات الأخرى بالعراق وتهميشها بل حتى ممارسة الإقصاء والتهجير عليها.
- تكريس الصراع والعداء الطائفي بأمل تكريس الحكم بأيدي الطائفيين من الشيعة والسنة مع تهميش نسبي لدور السنة وتهميش شديد لأتباع الديانات الأخرى.
- وكان هذا يعني نقل الصراع والنزاع بين الأحزاب الإسلامية السياسية أو حتى بين العرب والكُرد إلى المجتمع العراقي وإلى الفرد الذي غاص في مستنقع الصراع الطائفي ونسى مصالحه وما تمارسه الدولة من سياسات قاهرة وظالمة ومدمرة له وللمجتمع. وكان الفساد المالي ولإداري طريقاً للوصول إلى المريدين وإلى هذه الحصيلة المُرَّة.

- وهنا لعبت غالبية المؤسسات والمرجعيات الدينية دورها البارز في تعميق هذا الصراع وفي تشويه وعي الإنسان العراقي وتزييفه وإبعاده عن مواجهة الأوضاع المزرية ودفعه للغوص في الغيبيات وفي الحسينيات والعزاءات واللطميات والمسيرات إلى كربلاء بحيث ينسى الإنسان مصائبه وعواقب الإرهاب والفساد وتشويه قدرته على استيعاب ما يجري معه وما يراد له ويعجز عن مقاومته.

(15)

والسؤال المهم الذي يستوجب الإجابة عنه هو: ما هي السمات التي تميز الفئة الاجتماعية الرثة التي وفرت مستلزمات ونشرت الرثاثة بالبلاد وبين أفراد المجتمع الذي عانى الأمرين من الحكم السابق وغرق في بحر من الإرهاب والفساد والغيبيات وساهم بحيوية في تشويه الفرد العراقي ووعيه؟ لا بد ابتداءً من الإشارة إلى أهمية وضرورة التمييز بين الفئات الفقيرة الهامشية في المجتمع والفئة الرثة الجديدة التي وجدت أيضاً في فترة حكم البعث، ولكنها توسعت وأصبحت المهيمنة حالياً، فهما لا يعنيان بشكل أوتوماتيكي شيئاً واحداً، كما إنهما ليسا مترادفين، ولكنهما يلتقيان ببعض السمات المشتركة وأهمها، موقعهما من الإنتاج ومن الملكية لوسائل الإنتاج وفي بعض السلوكيات الاجتماعية. كما يمكن أن يكون جزء من الفئة الهامشية تدخل ضمن الفئة الرثة الحاكمة بالعراق. وهذه الفئة الرثة لا علاقة لها بالإنتاج المادي وليست راغبة فيه، وهي غير مالكة حتى الآن لوسائل الإنتاج، رغم ملكيتها للأموال التي حصلت عليها من السحت الحرام، ولكنها تهيمن في الوقت ذاته على الاقتصاد الوطني من خلال موقعها في الدولة والحكم وفي الأحزاب السياسية المهيمنة حالياً على الساحة السياسية العراقية والحكومة ومجلس النواب والقضاء العراقي. وهي تهيمن على موارد البلاد، وخاصة النفط الخام وعوائده المالية المتأتية من التصدير السنوي للنفط الخام، والذي يشكل أكثر من 97% من صادرات العراق، ونسبة عالية من الناتج القومي الإجمالي التي تتراوح بين 55—60% وأكثر من 95% من الميزانية الاتحادية. وهذه الفئة الاجتماعية الرثة توجه الموارد المالية صوب مصالحها

ومصالح حلفائها في المنطقة وبعيداً كل البعد عن مصالح الشعب والاقتصاد الوطني والتنمية الاقتصادية، وبشكل خاص التنمية الصناعية أو حتى استخدام النفط في التصفية وفي الصناعة التحويلية أو في تطوير البنية التحتية، بما في ذلك الطاقة الكهربائية ونظافة المدن والبناء وفتح وتبليط الشوارع.. الخ. وهي فئة نهابة سلّابة للثروة الوطنية ويسود بالبلاد في ظل حكمها الفساد المالي والإداري بكل صوره وأبعاده وعواقبه على الاقتصاد والمجتمع وضد حقوق الإنسان، كما أنها تنشر الخراب والبؤس والفاقة الفكرية والسياسية والاجتماعية بالمدن العراقية، وهي التي تنظم وتقود المليشيات المسلحة الطائفية والمتطرفة، سواء أكان ذلك بصورة سرية أم علنية. إنها الرثاثة التي تنشرها الفئة الرثة في المدن وفي عموم البلاد. ويزيدها سوءاً انتشار الإرهاب الدموي المنطلق من ذات المواقع الفكرية والسياسية، وبممارسات سادية وقسوة مرضيتين وبصورة أكثر دموية وتخريباً وتدميراً. إن هذه الفئات تتسبب في بقاء الجهل العام والفاقة الفكرية والاجتماعية والسياسية، وتصيب الفرد والمجتمع بعللها وأوضاعها النفسية والعصبية المعقدة التي يفقد الإنسان الكثير من سماته الطيبة والحيوية ويتجلى ذلك في الموقف من العمل والإنتاج ومن القيم الإنسانية والحضارية الحديثة ولا تتناغم مع حضارة القرن الحادي والعشرين وما توصل إليه الإنسان من ثورة علمية وثقافية وتقنية ومعلوماتية.

(16)

إن الإنسان في ظل نظام سياسي رث ودولة ريعية نفطية مشوهة، في مجتمع تسوده العشائرية والمؤسسات الدينية والأحزاب الإسلامية السياسية ذات الوجهة الطائفية والتمييزية المهمِشة لمفهوم المواطنة الحرة والمتساوية في الحقوق والواجبات، في مجتمع خال من الصناعة الحديثة والزراعة المتطورة والخدمات الاجتماعية المهمة لحياة الفرد والمجتمع، في اقتصاد ريعي نفطي مشوه ومكشوف على الخارج وتابع، لم يعد يشكل الإنسان فيه أثمن رأسمال، بل المال المتحقق من السحت الحرام هو الفاعل والمؤثر والمتراكم لدى الفئات الرثة والفاسدة الحاكمة، على حياة الإنسان الفرد والمجتمع.

من هنا يمكن تأكيد طبيعة الدور الذي تمارسه السياسة الاقتصادية والعلاقات الاقتصادية على الإنسان العراقي وعلى المجتمع عموماً. إذ يمكن أن تقود إما إلى تهميش دوره ومكانته وتشويه قيمه الإنسانية والحضارية وتزييف وعيه الاجتماعي وتكريس روح اللامبالاة إزاء ما يحصل بالبلاد وتنشيط الروح الفردية والمصالح الانتهازية الضيقة واستخدام المناكب في التدافع على المصالح والمغانم الفردية أولاً، وإما أن يرفع من مستوى وعي الإنسان وثقافته وإدراك واقعه وتبني القيم الإنسانية والحضارية وتطوير روح المبادرة والإبداع المسؤولية وحب العمل والمشاركة في تحمل أعباء تقدم وازدهار الفرد والمجتمع ثانياً.

إلا إن السياسة الاقتصادية المنتهجة بالعراق منذ إسقاط الدكتاتورية البعثية الغاشمة حتى الآن قادت الفرد والمجتمع وعموم البلاد إلى الحالة المزرية الراهنة. وستكون عملية التغيير معقدة جداً ومليئة بالتضحيات الجسيمة، ولكن لا محالة من ذلك ولا خيار آخر. وهذا يستوجب وعي أفراد المجتمع وإدراكهم المستنقع السياسي الطائفي الذي دفعوا إليه وحطوا في قاعه والعواقب المترتبة على ذلك وعنه. عندها يمكن للشخصية العراقية أن تستجيب وتعمل من أجل التغيير الديمقراطي بالبلاد.

المصادر

د. صالح حسن ياسر، جذور الاستعصاء الديمقراطي في الدولة الريعية (1-7). موقع الحزب الشيوعي العراقي، 29 مايو 2014.

د. كامل العضاض، هيكلية الإقتصاد العراقي والمسألة الريعية، عوائق أمام تحقيق تنمية مستدامة" شبكة الاقتصاديين العراقيين، 2013/4/13.

د. كاظم حبيب، لمحات من عراق القرن العشرين (11 مجلداً، المجل الثاني: العراق منذ الاحتلال العثماني حتى بداية نشوء الدولة العراقية الحديثة، دار اراس للطباعة والنشر، اربيل - إقليم كردستان العراق، 2013.

المصدر السابق نفسه، المجلد الرابع: العراق الملكي، الجزء الأول الفترة بين تأسيس الدولة العراقية ونهاية الحرب العالمية الثانية، ص 135-204.

نخبة من الباحثين العراقيين حضارة العراق، 13 مجلد، القانون والأحوال الشخصية، رضا جواد الهاشمي، المجل الثاني. بغداد 1985، ص 63-108.

المصدر السابق نفسه.

د. كاظم حبيب، يهود العراق والمواطنة المنتزعة، دار المتوسط، بيروت 2015.

السمات العامة للشخصية العراقية

أ. د. معن خليل العمر

أستاذ علم الاجتماع

لم تتطبع الشخصية الاجتماعية العراقية بطابع واحد أو نمط واحد بل بعدة اطباع وانماط عبر تفاعلها وتأثرها الاحادي ذا المسار المتأثر فقط دون التأثير على الاحداث السياسية والاقتصادية والتاريخية فأمست كالنسق النباتي الذي يتغذى على الماء والهواء واشعة الشمس فينمو حسب ما تقدم له الطبيعة له من اساسيات غذائية أي غائي في نموه Teleological. والشخصية العراقية كذلك غائية تنمو وتتشكل حسب ما تؤثر فيها الاحداث الأسرية والسياسية والاقتصادية والدينية لكنها لا تؤثر في كل الاحداث، أي تأثير أحادي الجانب فقط.

فالتحولات الاجتماعية التي حدثت في المجتمع العراقي بعد استقلاله السياسي اي بعد 1922 نقلته من الحالة البدوية والريفية الى الحضرية، فنقلت شخصيته من التقليدي الى الحداثي فأضحت شخصية حدية Marginal Personality أي تعيش بين حدين من نمطين ومستويين معاشيين هما: المستوى الريفي والمستوى الحضري. تكمن في المستوى الأول البواقي القيمية Residue أو الرواسب القيمية التي تزرعها من قبل التنشئة الأسرية والقبلية والدينية نمت مع نموها البيولوجي والاجتماعي وعند تحولها الى نمط العيش الحضري وتعرضها لمؤثرات الحداثة والحضرية مثل التعليم والانفتاح على الثقافات الاخرى والتقدم التكنولوجي في التواصل الاجتماعي والمأكل والتنقل والعمارة السكنية وسواها، اكتسبت العديد من المعايير الاجتماعية الحضرية مثل العلاقات السطحية والظرفية والاستهلاك المظهري والنفاق الاجتماعي

والزواج الخارجي أي من غير الاقارب والحب الرومانسي والتنشئة المدرسية وتـأثير جماعة الاصدقاء من الاقران Peer group وليس من الاقارب والعمل في مؤسسات حكومية تنهج بالمنهج البيروقراطي وسواها. بات هذه الشخصية الحدّية يطلق عليها بالشخصية المزدوجة وفي منطق ابن الوردي (علي) بالشخصية المتناشزه التي تطبعت بعدم الانسجام الاجتماعي Social disharmony وهذه حالة طبيعية تحصل لكل شخصية اجتماعية يتنقل مجتمعها المحلي من مرحلة تطورية الى اخرى وليست بمثلبة شخصية إذ انها تتصرف امام الناس حسب ما تمليه عليها الضوابط الحضرية الحداثية الجديدة التي اكتسبها من بيئته الجديدة التي لم تترسخ بعد في قاع ضميره الاجتماعي، إلا ان في حياته الشخصية والأسرية تفعل البواقي او الرواسب البدوية والريفية فعلها في توجيه سلوكه وتفكيره.

هذه الحالة المتناشزة جعلت من الشخصية العراقية ان تكون غير عقلانية او غير رشيدة في تفكيرها Irrational وسلوكها بل معيارية قيميه وهذا يعني ما تقوله من مرئيات ونظريات وأفكار غير ما تقوم به من تصرفات وسلوكيات أي متناقضة بعضها مع بعض وذلك راجع الى تأثير الرواسب الباقية والمستكنه في ضمير الفرد العراقي الموروثة من ثقافته الاجتماعية التي وصلت اليه عبر التنشئة الاجتماعية الأسرية والدينية والقبلية والجيرة وسواها.

هذا النمط من الشخصية العراقية (المتناشزه) استمرت معه منذ منتصف القرن الماضي ولغاية الاحتلال الأمريكي للعراق عام 2003.

كان هذا الطابع العام على الشخصية العراقية الذي طبعها بطابع التناشز الاجتماعي او الازدواجية النمطية المتنافرة بين التفكير والسلوك، اما الطابع العام الثاني الذي طبع الشخصية العراقية فهو عدم امتلاكها للذات الوطنية العراقية Identity بل للذت الفئوية اللاوطنية بمعنى انها لا تمتلك الهوية الوطنية العراقية بل الهوية العائلية او العشائرية أو المناطقية (الاقليمية) والطائفية والعرقية وليس العراقية التي تعكس الروح الوطنية وذلك بسبب حكام الأنظمة السياسية العراقية جميعهم وبدون استثناء (الملكية والجمهورية والعسكرية والشمولية والدكتاتورية والطائفية) على الولاء للحاكم الفرد وأسرته واقاربه وابناء منطقته فقط. هذا التركيز تم ممارسته في المناهج التعليمية

والعسكرية والأمنية والحزبية ودوائر الحكومة وهذا ما يفسر لنا لماذا حدثت الانقلابات والثورات في تاريخ العراق الحديث منذ عام 1932 ولغاية الآن، إذ لو كان هناك حس وشعور وطني للعراق وليس للحاكم لا تحصل انقلابات عسكرية او فئوية او حزبية او الارتماء بأحضان الغازي المحتل او دول الجوار الطامعة بخيرات العراق واسقاط هيبته واعتباره التاريخي والحضاري وارثه الانساني والديني، و لم تحصل التقوقعات القبلية والمذهبية والفئوية والحزبية والاقليمية، و لم تضعف الحكومة العراقية لدرجة الهزال لتتماهى مع العشيرة او الطائفة او الاقليم او التجمع الفئوي او الاستنجاد بالقوى الاجنبية غير العراقية، و لم يقد العراق حكام غير وطنيين بل فئويين يعمدون الى تنشئة الناشئة على الولاء لهم وليس للوطن وهذا ما تم افرازه وانجابه من قبل التعصب والتحيز والتطرف عند الشخصية العراقية وممارسة العنف وعدم تقبل الرأي الآخر واحترام الموقف المعارض والغاء المعارضة. وعبر نصف قرن ونيف من الزمن في ممارسة التماهي مع الحاكم وليس للوطن العراق ادى الى عدم امتلاك العراقي (المثقف والسياسي والعسكري والأمني والرسمي والديني) الهوية الوطنية العراقية التي فسحت له المجال للانغمار في التعصب الفئوي والتحيز للرأي الواحد والغاء الآخر الذي لا يصب في مصبه الضيق والاحادي وغير الراقي وغير العقلاني في اتخاذ الرأي الخاص والعام، وتلجيم الرأي الآخر من اجل تمجيد وتحميد وتجميل صورته الفردية على حساب الصورة العراقية الوطنية. وللأسف لم يستفد أي حاكم عراقي سابق او لاحق من اخطاء الذين سبقوه في الحكم واسباب اقصائه من العراق.

أما أبان الحكم الطائفي بعد عام 2003 فقد برزت الشخصية العراقية الفاقدة لعراقيتها الوطنية فمارست ما تطبعت به من طبائع التعصب والتحيز والتطرف وعدم احترام الرأي الآخر والتشبث بكرسي الحكم، ومارست نفس التنشئة السياسية المميتة والقاتلة للضمير العراقي الوطني لا دعماً للطائفة المذهبية بل دعماً لشخصها النرجسي مستخدماً الإرهاب والعنف والتعصب والتطرف في تعاملها مع غيرها من غير الذين من ملتها.

ولقد ساهم الحكام الطائفيون بترسيخ وتعزيز الهوية الفئوية المميتة والقاتلة و لم يستفيدوا من اخطاء الحكام الذين حكموا من قبلهم وبذا بقيت الشخصية العراقية

فاقدة الهوية الوطنية فاقمت بسلوكيتها المتعصبة والاحادية الرؤية مبتعدة عن العقلانية الرشيدة في تفكيرها وهذا ما جرّها الى ان تكون (الشخصية العراقية) خانعة وخائفة من الحاكم ومن المجهول الذي يتنظرها. وهذا ما يؤيد قولنا في بداية تحليلنا لها بأنها شخصية غائية نسقية تنمو مع مجريات الاحداث التي تحيط بها وتؤثر فيها، فالخلل والعيب ليس فيها بالدرجة الاساس انما بالبيئة المحيطة بها (الحاكم ونظام حكمه) التي تتحكم فيها ليس إلا.

ولا جرم من الإشارة الى ان وجود حكام غير وطنيين (فئويين وطائفيين) استولدوا امراضاً باثولوجيه في الجسد الاجتماعي العراقي التي بدورها نقلت جراثيمها الى شخصيات الافراد الذين يعيشون في هذا الجسد. فلما جاء الحكم الطائفي – المذهبي الى العراق وحكم لمدة عقد من الزمن سبب اربعة امراض حرجة وخطيرة في المجتمع العراقي الحديث (المعاصر):

1. التعصب الطائفي.
2. الإرهاب السياسي.
3. الفساد الاخلاقي والمؤسسي.
4. العنف السلوكي.

هذه الامراض لوثت الشخصية العراقية المعاصرة وهي تعيش في القرن الحادي والعشرين عصر الالكترونيات وثورة المعلومات والاتصالات، فباتت (الشخصية العراقية) تعاني من التهابات مزمنة سببها فايروس الفساد الاخلاقي والمؤسسي فسببت فقدان الهوية الوطنية العراقية التي سرقها حكام العراق عبر الزمن ولغاية الآن.

هذا الفقدان الوطني بلورة حالة اللا معيارية (الأنومي في لغة علم الاجتماع) أي انعدام الضوابط الاخلاقية والثقة التي سببت اختلالاً في نظام العيش العراقي وانهيار المنظومة المعيارية الاجتماعية التي تتحكم في سلوك العراقيين، فباتت المعايير القيمية التي كانت تمجد الحلال تحولت الى تمجيد الحرام، وما كانت تحبذ الشفافية والنزاهة اضحت تزدري بها وبعد ما كانت تشجع على الموضوعية والحيادية تحولت الى السخرية منها وما كان يُعد امانةً وشهامةً وإباءً وشمماً امسى وضاعة،

وهكذا عندما يسود الفساد كافة الانماط والانساق الاجتماعية تضحى الشخصية العراقية متطبعة ومتأثرة بها عندها باتت الشخصية العراقية المعاصرة تمارس الفساد بكل اشكاله بدون حياء وخجل لأن اللا معيارية اضحت معياراً محبباً وهذا مرضاً اصاب الشخصية العراقية الحديثة بسبب الحكم الطائفي غير الوطني العراقي مدعوماً بالإرهاب والعنف المتعصب والمتحيز فزاد مرضاً اجتماعياً واخلاقياً الى الامراض الذاتية للشخصية العراقية وهذا ما يجعلنا القول بأن السبب لا يكمن في الفرد العراقي ذاته بل في حكامه النرجسيين والأفاقين وغير الوطنيين عراقياً والمتعطشين للسلطة والمال، فكانوا السبب الرئيس في إصابة الشخصية العراقية المعاصرة بهذه الامراض المزمنة.

السمة الاجتماعية الاخرى التي نجمت عن الامراض الاجتماعية التي جلبها حكام العراق الطائفين والفئويين عبر نصف قرن من الزمن هو الاستلاب او الاغتراب Alienation أي شعورها بالعجز والقهر على تسيير مجريات الامور الخاصة بها بسبب فعل الاحداث الشاذة وغير العراقية الوطنية وعدم قدرتها على السماح للشخصية العراقية بالتأثير فيها مما ادى الى استلابها لحكم المتسلطين عليها وعدم قدرتها على حكم نفسها بنفسها لا تمثلها حكومة عراقية وطنية تجمع كل الاطياف النوعية والكمية العراقية (عرقياً ودينياً ومذهبياً وحزبياً).

ولا جناح من الإشارة الى احدى الطبائع التي طبعت الشخصية العراقية هو نفاقها الاجتماعي والسياسي الذي تبلور من خلال استبدادية حكام العراق جميعاً (الطائفي والشمولي والدكتاتوري والعسكري والقبلي) الذين سلطوا سلطانهم على مراقبة ومحاسبة كل عراقي لم يكن من بطانتهم او حاشيتهم، فالخوف والرهاب الممارس عليها جعلها منافقة ولما كانت تنشئتها السياسية والاجتماعية والمدرسية والاعلامية والدينية غير وطنية عراقياً اضحت منافقة وخائفة من السجن والتصفية الجسدية والعنف الحكومي وجرائمها اللاوطنية وهنا اجتمع في الشخصية العراقية المعاصرة بالسمات الاتية:

1. النفاق الاجتماعي.
2. التعصب والتحيز والتطرف الفئوي الطائفي والقبلي والحزبي.

3. عدم وطنيتها وولائها للعراق كوطن بل للحاكم الذي يحكم العراق.
4. التناشز الاجتماعي.
5. اللامعيارية (فاقدة المعايير القيمية) بعدما كانت معيارية ومتمسكة بها على الرغم من تحضرها وتحديثها.
6. الاستلاب او الاغتراب النفسي والاجتماعي.

على الجملة فإن الشخصية العراقية بقيت وما زالت شخصية نسقية (غائية) تبحث عن هويتها الوطنية العراقية إلا ان الفواعل الوطنية لم تبرز على سطح التربة العراقية لحد الآن، غير انها سوف تأتي لتروي هذا النسق الذي لا بد ان يبقى ليعيش في تربة وطنية عراقية لا اجنبية ولا عميلة ولا طائفية ولا عرقية لأن المجتمع العراقي متنوع الأعراق والاديان والملل والنحل. ولكي يبقى على قيد الحياة يتطلب وجود هوية وطنية عراقية تحتضن كل هذا التنوع الذي ورثه العراق عبر مدنياته وأديانه واعراقه الإنسانية الأصيلة والبقاء في الأخير للتنوع وليس للتفرد، للاحتضان وليس للتشتت، للحرية وليس للعبودية.. لأن الفرد العراقي ولد حراً ليعيش حراً لكن الحكام غير الوطنيين عراقياً جعلوا عيشه مقهوراً وملجوماً ومتعصباً ومتحيزاً ومنافقاً.

الإحباط الاجتماعي:
مع إشارة خاصة للشباب العراقي

د. فجر جودة النعيمي
مدرس|قسم الاجتماع
كلية الآداب|جامعة بغداد

مقدمة Introduction

حواجز كونكريتية، اسلاك شائكة، نقاط تفتيش، نظام مروري معطل الى اشعار آخر، مظاهر مسلحة عند مفترق الطرق والجسور والساحات العامة، في الازقة وقرب المدارس والمساجد والكنائس والاسواق. مئات القنوات الفضائية التي تسعى جميعا لتعميق التخندق الطائفي بين الاخوة الذين كانوا حتى امس القريب يأكلون في صحن واحد. عتاة جاءوا من خلف الحدود ليقدموا لنا درساً في الارهاب الديني والعرقي واالطائفي في جلباب الرحمة وفي ايديهم اسلحة لا تنالها الدول بدعم من الاخوة الاعداء الذين باعوا الدم والضمير، دولة مكبلة بقوانين مدن الطوائف التي ستضعنا ليس فقط خارج التاريخ بل خارج الجغرافية ايضا ولعلنا سنتحول عما قريب الى كائنات منقرضة.

هذه الصورة البائسة المحبطة هي اخطر امراضنا الاجتماعية المتوطنة، لها جذور موغلة في القدم تعود الى السومريين والبابليين والاشوريين الذين كانوا يشعرون بالتهديد الدائم من الالهة التي تغير اتجاهاتها نحوهم لمجرد الهوى او عندما تشعر الالهة ان الملوك لا يؤدون ما عليهم من التزامات تجاه الكهنة وبغايا المعابد او ينحازون لاناث

الالهة دون غيرها، وفيما عدا ذلك فان الالهة لاتكترث عندما يبطش الملوك بمواطنيهم او يفرضون عليهم الضرائب الثقيلة او يتعاملون معهم كالبهائم. ثم توالت موجات الاحساس بالقهر والذل والانكسار وبالتالي الاحباط على نطاق واسع عبر القرون كان للناس فيها مكانة اقل من مكانة الاقنان في عصور الاقطاع. حالة احباط عابرة للقرون انتهت بجيش الانكشارية الذي لم يمارس الاقصاء فقط بل الاخصاء ايضا.

المشكلة The Problem

يبدو اننا سندخل في نزاع غير محسوب النتائج مع علم النفس الذي يحتكر مفهوم "الاحباط" ويعتبره من ممتلكاته الخاصة التي لا يتنازل عنها بسهولة، واذا فشلت كل الوساطات لتقريب البعيد، عندئذ سيكون من حقنا ان نمارس سياسة السطو على احفاد ماكدوكال وبافلوف وفرويد.

ومهما كانت دفاعات اهل علم النفس متينة فان الاحباط المتحول جبراً من الفرد الى الجماعة سينتقل بالضرورة الى ميدان علم الاجتماع الذي سيكفل له الملاذ الامن ويجعله من المقربين المعول عليهم في تحليل وتفسير العديد من المظاهر ذات العلاقة، فهل نستطيع ان نصنع جسراً عابراً للقارات بين علمي النفس والاجتماع لكي لا نضطر ان نجعل الخصومة العابرة حربا مفتوحة من اجل مفهوم نحتاجه معاً لتفسير سلوكنا افراداً وجماعات.

واذا كنا سنقف على ارض مشتركة من دون حساسيات مكلفة ومن دون نزوع نرجسي، استحواذي، احتكاري، فان عملية تكامل رائعة ستخلق لنا عالماً اكثر شمولية في التحليل والتفسير. وعلى افتراض اننا ولدنا من رحم واحدة وان اواصر الدم وعوامل الكينونة والديمومة ستكفل لنا التقارب اكثر من التباعد، فاننا سنفترض معاً الفرضية التالية:

"ان الاحباط ليس حالة فردية بالمعنى الشخصاني وانما ليست اجتماعية بمعنى حاصل جمع مدركات الافراد"

هذه الفرضية تعني ان الاحباط يمكن ان يكون فردياً عندما يواجه الفرد مازقا في تحقيق هدف واجتماعياً عندما تكون الاهداف المشتركة للجماعة مغلقة الابواب،

وهنا يجب ان نعترف ان ظروف الحياة المعقدة وخصوصاً في مجتمع تتوالد فيه الازمات مثلما تتوالد السلاحف فان مثل هذه الظروف الضاغطة بشدة تضعنا حتماً تحت وطأة التوتر، ومع ان لدينا مخارج كثيرة لتخطي المشكلات المسببة للتوتر الا ان دوافعنا لا يمكن اشباعها بسهولة دائما، فهناك عقبات ينبغي تخطيها وعجز يتعين تجاوزه وخيارات يجب ان تحسم. وفي مثل هذه الظروف فان مطالبنا حتى المتواضعة منها تحتاج الى وقت طويل لتحقيقها، وهذا التأخيرقد يقود الى الاحباط.

ولان الشباب اكثر شرائح المجتمع كماً ونوعاً فان الاحباط الذي يتهددهم يأخذ بعداً تدميرياً اكبر عندما يتحول من حالة عابرة الى خيبة امل ومن حالة مؤقتة الى ظاهرة مستديمة ميؤوس من اصلاحها، وفي اجواء كهذه يستشعر الاحباط كاملاً بمرارة تفوق التصور وتترك ندوباً حادة على النفوس المزحومة بالقلق والخوف والانتظار.

الهدف Aim

تهدف هذه الورقة الى الوقوف على الاسباب الظاهرة للاحباط لدى الشباب، والنتائج المترتبة عليها في مجتمعنا العراقي الذي تتناسل فيه الازمات كما تتناسل جراذان الحقول وتتراكم فيه العوامل المسببة للاحباط كما تتراكم الغيوم في الشتاءات الباردة فتقود الى نتائج من شانها احداث شلل تام يهدد بناء المجتمع ككل.

طبيعة الإحباط Frustration Nature

الاحباط هو الحالة التي تكون فيها الطريق المباشرة نحو الهدف مسدودة او بطيئة او يتخللها عائق عارض. علماء النفس يصفون الاحباط على انه النتيجة المباشرة للعجز عن تحقيق الهدف، والاحباط حالة عاطفية غير مريحة. وللاحباط عوامل داخلية، كفقدان الثقة بالنفس او الخوف من موقف اجتماعي او التناشز المعرفي. وعوامل خارجية لا سلطة للفرد عليها (وهي ما تهمنا في هذه الدراسة) مثل اغلاق طريق او مهمة صعبة او تاخير مقصود بسبب الروتين وغياب النظام (Gergen& Gergen 1981)

النتائج المباشرة للاحباط Direct Frustration Consequences

للاحباط نتائج آنية واخرى مؤجلة، فعندما يكون الطريق لتحقيق الهدف مغلقا فربما يكون رد الفعل آنياً، وربما يتبلور اتجاه طويل الامد نحو عدم الاستقرار النفسي وربما يقود الى المخاطرة او العدوانية في السلوك، وهذه نتائج قد تستمر طويلاً وربما تلازم بناء الشخصية.

ففي تجربة اجراها عالم النفس هلكارد (1962) Hilgard على اطفال بمرحلة الرياض وضعوا في غرفة تحتوي على مجموعة كبيرة من الالعاب الناقصة. بدأ بعض الاطفال يلعبون بحماس وسعادة ثم أخذوا يعوضون الاجزاء المفقودة من الالعاب بحركات تخيلية، استخدموا فيها الورق بدل الماء ليحركوا عليها الزوارق، استخدموا الاصوات الهامسة واصابع اليد بدل اسلاك التلفون ونغماته. مجموعة اخرى من الاطفال تصرفوا بطريقة مختلفة كلياً رغم انهم كانوا من نفس الفئة العمرية ومن خلفيات اجتماعية - اقتصادية متشابهة، ولكنهم لم يتمكنوا من اللعب بطريقة بناءة كما فعل نظراؤهم في المجموعة الاولى، اذ تعاملوا مع الالعاب بطريقة خشنة. ثم عمدوا الى القفز على الالعاب وتكسيرها، ومنهم من استلقى على الارض محدقا في السقف دون اكتراث لما يدور حوله. والسبب يعود الى ان المجموعة الثانية التي اظهرت "علامات الاحباط" كانت قد ادخلت في نهاية التجربة وانها وضعت في موقف قصدي لاستثارة الاحباط، حيث ترافق مع دخولهم ان رفعت ستارة كانت تفصل غرفتهم عن الغرفة المجاورة التي كانت تعج بالالعاب الكاملة، كانت تحتوي على مناضد مع الكراسي، تلفونات باسلاك وانغام، بركة فيها ماء لتحريك الزوارق. وعندما لوحظ ان اطفال المجموعة الثانية بدا عليهم الاستياء حالوا بينهم وبين الغرفة المجاورة بان اعادوا اسدال الستارة مرة اخرى لذلك كان تصرفهم بطريقة "محبطة".

هذه التجربة اوضحت النتائج الانية للاحباط، فاذا اخذنا هذه التجربة على الحالة العراقية، سوف نكتشف عناصر الاحباط، خيبة الامل، وفقدان الرؤية الواضحة لما ستؤول اليه الامور. فالعراقي بسبب وسائل التواصل الاجتماعي بات بمقدوره ان يقارن غرفته (البلد) بالغرف المجاورة (البلدان المجاورة) وربما بالغرف

الابعد، فلا يرى فيها وضعاً امنياً متردياً بدون امل في تحسنه، كما لا يجد عوائق كونكريتية تغلق الشوارع، ولا زحامات شديدة قد تتطلب منه الانتظار ساعات لكي يقطع شارعا طوله مئة متر، وليس هناك تيار كهربائي ينقطع على الدوام، بينما يجد في الغرفة المجاورة اماكن ترفيه وبيئة نظيفة وشوارع معبدة ونظام مروري عمل الكترونياً وتعامل انساني في دوائر الدولة، وتنظيم دقيق للتجارة والصناعة وطرز البناء، كل هذه المظاهر تبعث على الاحباط. ولولا اننا تعلمنا الصدمات وتعايشنا معها لقادتنا الحالة ليس الى الاحباط بل الى الجنون، وعلى كل حال فأن علامات الاحباط هذه قادت الناس لان يثوروا ضد بعضهم البعض لابسط الاسباب، يحتالون على بعضهم، يحلفون اغلظ الايمان كذبا او حتى ان البعض يبيعون ضمائرهم بأرخص الاثمان، وهذه الحالة تسمى في علم النفس "الحالة التدميرية للاحباط" وتتمثل بالاعتداء بطريقة عدوانية، رمي الازبال في الشوارع والاماكن العامة، تدمير محولات الطاقة الكهربائية وسرقة الاسلاك واعمدة التلغراف وتكسير علامات السيروالاعتداء اللفظي على رموز السلطة المسببة للاحباط، عدم الاهتمام بنوعية الدواء والبضائع بشكل عام، وكلما ازدادت حدة الاحباط كلما ازدادت القوة التدميرية للافراد تجاه الرموز المسببة للاحباط متمثلة بالممتلكات العامة والمال العام ورموز السلطة.

العدوان المباشر Direct Aggression

العدوان المباشر هو احدى نتائج الاحباط، والعدوان يأخذ اشكالاً متنوعة منها ما هو لفظي، كما في الهياج في الشارع عند احتكاك سيارة باخرى، حيث يحتدم الصراع اللفظي بطريق الاستثارة العاطفية من خلال السباب والشتائم، وقد يتطور الى التشابك بالايدي او احياناً بالاسلحة. وما لم تتوفر عناصر الاحباط التي تستثير حالة التوتر لدى الافراد، فانهم غالباً لا يلجأون للتقاتل المميت من اجل شئ تافه Pennington (1993). لانهم عندئذ سيفكرون بالقانون والنظام، اما اذا فقدت هذه فان الفرد عندها سيتكأ على العشيرة التي اخذت دور الدولة وهي كفيلة بحمايته.

وقد ياخذ العدوان اشكالاً رمزية مثل حركات اليد ونبرة الصوت او ياخذ شكل النكتة والشائعة والطرفة وافلام الفديو الساخرة، فمثلاً يتردد في الشارع هذه الايام ان رواتب الموظفينستكون كل اربعين يوما بدل ثلاثين وهذه الشائعة مكملة لشائعة سبقتها تقول ان الرواتب سوف تتقلص وكلاهما تستهدفان اثارة التوتر وعدم الاستقرار النفسي لدى شريحة مهمة من شرائح المجتمع وتنعكس على مفاصل النشاط الاقتصادي والاجتماعي بكامله. اختفت هذه الشائعة مباشرة بعد ان خرج رئيس الوزراء في التلفزيون وتحدث عن مشكلة الرواتب. ولولا ذلك لاستفحلت الشائعة وتركت آثاراً لا تحمد عقباها.

كما ان بعض الافعال تعبر رمزياً عن الاحباط كقول احدهم "ان قراراً سيصدر قريبا يكون بمقتضاه من حق الرجل تبديل زوجته كل اربع سنين بدل البقاء معها الى الابد" وليس المقصود بهذا المرأة بذاتها بل لعله ترميز للحكومة او احد مصادر القوة فيها وهذه تسمى في علم النفس العدوانية المزاحة displaced aggression حيث ان الفرد المحبط لا يستطيع ان يوجه عدوانيته مباشرة نحو مصدر الاحباط، اما لانها بمنأى اوغير ملموسة ولهذا يشعر الفرد بالغضب ويوجه عدوانيته نحو هدف اخر يشير له رمزيا، واحياناً المصدر المثير للاحباط ذو سلطة او نفوذ سياسي او اجتماعي لذلك فان مهاجمته بشكل مباشر تعتبر خطراً، وعندما تحول الظروف دون الهجوم المباشر على المصدر المسبب للاحباط فان النتيجة هي التحول نحو الرمزية التي تغلف العدوانية بتعابيرذات دلالة وحسب، وهي ما نسميها "العدوانية المزاحة".

لقد أجرى علماء النفس الغربيون تجاربهم على الحيوانات وصارت معظم تطبيقاتها على الشعوب الاقل تحضرا ومنها نحن، فمثلاً "العدوانية المزاحة" كما يقول احد علماء النفس يمكن اثباتها تجريبياً على الحيوانات وعلى البشر، ومن ذلك ان تجربة اجريت على جرذ قام العالم بتشجيعه على مهاجمة جرذ آخر والا تعرض لصدمة كهربائية، فاذا هاجم الجرذ الآخر اعطي مكافأة بان يتوقف عنه التيار الكهربائي واذا توقف عن مهاجمته تعرض لصدمة كهربائية، وعندما اختفى الجرذ الآخر "الضحية" فان الجرذ الذي تدرب على العدوان وجه عدوانه نحو هدف آخر "دمية على شكل جرذ وضعت جانباً" (Hilgard 1962). ومثل هذه التجربة كان لها تطبيقات في

العراق حيث يعطى شخص محبط ومحتاج مئة دولار ومهمته ان يركن سيارة مفخخة في مكان مزدحم، سوق، عرس، مأتم، مسجد، حسينية، وبعد المكافاة التي يستلمها في مهمة سهلة يكلف بمهام اكبر وبمكافاة اكبر. واذا انتهت مهمته فانه على استعداد لان يوجه عدوانيته نحو اهداف بريئة بمكافاة أو بدون مكافأة.

اللامبالاة Apathy

احدى الملامح المحيرة للسلوك الانساني، هي النزعة الى السلوك المعاكس تماماً – في المواقف المتشابهة، فبينما تكون الاستجابة الطبيعية للاحباط بعدوان فعال، هناك من يتصرف على العكس، لامبالاة، عدم اهتمام، انسحابية، خمول او تكاسل، اهمال. فعندما تكون المقاومة عديمة الجدوى، فان الشخص المحبط ربما يكون حزين او متجهم بدل ان يكون غاضب او متحدي، واللامبالاة غالباً تشير الى النزعة العدوانية المثبطة، ولكن يمكن التعبير عنها بشكل غير مباشر، (Hogg &Vaughan 2005) ومن الامثلة الواضحة في حياتنا اليومية ان الاغلبية الشعبية صامتة، كل يقول "لادخل لي" "الامرلا يعنيني" وكأن الذي يحدث في بلادنا يحدث في كوكب آخر، اما لانهم استيأسوا من الاصلاح او لانهم يدركون ان صدى اصواتهم لاتصل الى آذان المسؤولين عن الاحباط، فأراحوا واستراحوا باللامبالاة، ولكنك غالباً تستطيع ان تقرأ الحزن والقلق والخوف على وجوههم.

النمطية (الرتابة) Stereotypy

من النتائج الاخرى للاحباط، النمطية في السلوك، وهذه تعني الميل الى التمويه أو التعمية blinding "يعطيك الاذن الطرشة، أو العين العمية" بينما يستمر سلوكهم ثابتاً متكرراً، وحل المشكلات لديهم اعتيادي مع المرونة اللازمة، ويقوم هؤلاء عادة بتسديد ضرباتهم باتجاه آخر عندما يكون الطريق الطبيعي لتحقيق الهدف مغلق (Gergen & Gergen 1981)، وعندما يتكرر الاحباط ويربك الشخص، خصوصا عندما يحدث الاحباط نتيجة عقوبة، فان بعض المرونة سوف تفتقد، ولكن الشخص يعود بعد حين الى نفس السلوك الرتيب عديم الجدوى مرة

واخرى، وعندما يتبنى الفرد السلوك الرتيب يصبح من الصعب تغييره. لقد اجريت تجارب بهذا الخصوص على الفئران ثم قالوا ان لها ما يماثلها عند الانسان، فمثلاً مص الاصابع في الطفولة والتأتأة ربما تصبح اكثر ثباتاً بسبب العقوبة والاحباط المتأتي من الجهود المبذولة للتخلص منها، وقد تفسر بعض الصعوبات في تعلم الريضيات والقراءة والتلفظ عند بعض الاطفال اللامعين كنتيجة للاخطاء الرتيبة في فترة احباط مبكرة، كما يمكن ملاحظة الاحباط على استجابات الناس في الاسواق وفي وسائط النقل العامة عندما تمزح مع احدهم فيشيح بوجهه عنك او يعطيك الاذن الطرشة، وهكذا ايضاً تجرى التجارب على الفئران ثم ترسل الينا للتطبيق، حيث تجد ان سلوك كثير من الناس لدينا رتيب وآراؤهم جامدة ومتكررة بطريقة تبعث على السأم والاحباط.

الانحدار Regression

الانحدار هو العودة الى السلوك البدائي، سلوك مماثل لسلوك الاطفال، وهناك تفسيران للانحدار، الاول، هو ان الانسان وسط عدم الشعور بالامن يسعى للعودة الى فترة الماضي الامن، وهذا السلوك يسمى السلوك المنتكس Retrogressive، والفرد فيه يعود ليتصرف وكانه في الثانية أو الثالثة من عمره. أما التفسير الثاني فان السلوك الطفولي ينتج عن الاحباط، وهو سلوك اكثر بدائية في نوعه، انه ليس العودة الى السلوك الطفولي القديم، وهو مناقض تماماً للسلوك المنتكس ويطلق عليه "السلوك البدائي primitivation". وفي ذلك يفقد الانسان سلوكه المتحضر، وقد يلجأ الى استخدام قبضة اليد في مناقشة عادية حتى لو لم يكن قد استخدم يده ابداً في حياته. كلا شكلي الانحدار ربما تستخدم عندما يتعرض الانسان للاحباط (Hogg& Vaughan 2005).

المشكلة الاساسية للنتائج المباشرة للاحباط، ان الفرد ذاته يسعى لمقاومة الاحباط، فهو ليس المشكلة فقط ولكنه الباحث عن الحل ايضاً، فإذا وجد الحل فإن الاحباط سيزول، ولكن بعض أشكال الاحباط المرافقة للمشكلات الشخصية قد تدوم طويلاً، والاحباط عندئذ يصبح عادة، حينئذ ستكون الشخصية على

الاغلب عدوانية، تعيش في احلام، ذات طبيعة شكاكة، وهذه المظاهر يستخدمها الفرد لمواجهة الاحباط الذي تاصل فيه (Seeman 1981).

رد الفعل على الإحباط طويل الأمد
Reaction to Prolonged Frustration

الدراسات التي اجريت على المعتقلين في معسكرات الاسر "سجنا الحرب" اكدت ان اللامبالاة او بمعناها الواسع "الكآبة" هي استجابة طبيعية للاحباط والظروف المؤلمة التي لا أمل معها للهروب أو التخلص من الاسر. ففي مواجهة الحرمان المستمر، التعذيب والتهديد بالموت، فان عدد كبير من السجناء "الاسرى" يصبحون منطوين على أنفسهم، بلا عواطف، ويتعاملون بلامبالاة مع ما يدور حولهم. وفي مقابلات مع الجنود الامريكان الذين تخلصوا من معسكرات الاعتقال بعد الحرب الكورية - الامريكية أظهر معظمهم انهم عاشوا تللك الاجواء "عزلة، انطواء، لامبالاة ولا عواطف" في وقت ما اثناء الاعتقال. وفي الحالات الشديدة كان المعتقل ينكمش في فراشه بانتظار الموت، لا يقوم بأي جهد ليأكل أو يهتم بنفسه. ثم أشاروا الى ان هناك طريقتين لانقاذ السجين المشرف على الموت، ايقافه على قدميه وقيامه بأي عمل، ليس مهماً ما هو العمل ومدى تفاهته، وجعله يهتم في بعض المشكلات الحاضرة والمستقبلية.

ان الاهتمام بردود أفعال سجناء الحرب خلال الحرب الكورية قادت الجيش الى تطوير برنامج يهدف الى تهيئة المجندين للتغلب على الاحباط فيما لو وقعوا في الاسر. لقد استخدم هذا البرنامج بنجاح فيما بعد في الحرب الفيتنامية - الامريكية. معرفة كيف يحافظ السجين على قواه العقلية والبدنية تعمل بطريقة فعالة كأن يتبع جدولاً يومياً للتمارين الرياضية أو يستمع لمحاضرات يلقيها سجين آخر، كما ان معرفة كيف ينظم السجناء انفسهم في الاحساس بالمسؤولية، دعم بعظهم البعض ووضع خطة للطوارئ عندما يشعر احدهم انه في حالة عجز تام. هؤلاء الرجال عادوا من الحرب افضل بكثير من اولئك الذين عادوا من الحرب الكورية والذين لم يتعلموا التعامل مع ظروف الاسر (Hilgard 1962).

الواقع اننا أحرار، بلا أصفاد وبلا غرف مظلمة وبدون قضبان، ولكن ظروف الاحباط المتكررة يمكن ان تحُول بيوتنا المشيدة على احدث الطرز والمجهزة بأحدث وأرقى وسائل الترفيه، الى قبور مظلمة تضيق بنا ونضيق بها، كما يمكن ان تتحول الاحباطات الى قضبان وأصفاد غير مرئية لها وقع أليم أشد ايلاماً بكثير من أصفاد السجانين وصفعاتهم.

الشباب العراقي والاحباط

يقول لارسون (Larson 1983) ان الشباب عند اغلب شعوب الارض يلقون عناية خاصة باعتبارهم القوة المنتجة الرئيسية التي تستلزم اعداداً مبرمجاً ليس فقط على المستوى الاكاديمي والتربوي وانما ايضاً على صعيد الصحة البدنية والنفسية، النمو الاجتماعي والعاطفي، التأهيل المهني واكتساب المهارات.

في الدول المتقدمة يطالب الشباب في السنتين الاخيرتين من الدراسة الثانوية القيام باعمال تطوعية يطلق عليها خبرة العمل work experience يقوم الشباب من خلالها بالعمل مجانا لاكثر من 120 ساعة عمل تطوعي في مجالات يرغب فيها الطالب ومن خلالها ايضاً يستطيع ان يتعرف على طبيعة الاعمال التي يمكن ان يمارسها في المستقبل او يتجنبها ان لم يتوافق معها، وهذا شرط من ضمن شروط القبول في الجامعات البريطانية.

الشباب في العراق مدللين الى اقصى الحدود، ليس مطلوباً منهم خبرة عمل كشرط للقبول في الجامعات وليس مطلوباً منهم ان يتقنوا لغتهم العربية كشرط للنجاح، حيث يمكنهم ان يضعوا الفعل مكان الفاعل والمفعول به مكان المفعول فيه، وان يتبادل الفاعل ونائبه الادوار. كما ان الشباب العراقي لا يحتاج ان يكتسب مهارات اثناء وبعد الدراسة الجامعية نظراً لانعدام المؤسسات التي تقوم بتقديم خدمات تطوعية لاكساب الشباب خبرات. وفوق هذا فان النظام الاقتصادي المتهرئ منذ عام 1990 حتى الآن لا يستطيع استيعاب الاعداد المتزايدة للشباب كقوة عمل منتجة، والسبب ان المشاريع الاقتصادية التي كانت تستوعب اعداداً كبيرة من اليد العاملة وخريجي الجامعات والمعاهد لم يعد لها وجود او انها

اندثرت او تفككت بقرار من سيئ الصيت بريمر الذي فتح الباب للنهب "الفرهود" ومن ثم اهمال الدولة للمشاريع الاقتصادية الكبرى التي تحتاج الى اعادة تأهيل لاسباب لايعلمها الا الله وأحفاد بريمر. ومهما يكن فان هناك قوى خارجية وأخرى داخلية تعمل للابقاء على المؤسسات الانتاجية خارج قواعد اللعبة، ياكلها الصدأ لتباع في النهاية بمزادات سماسرة الخردة او تهدى للاخوة الحواسم مجاناً وكل هذا من اجل ان يبقى الشباب خارج سوق العمل ليشكلوا ضغطاً على الدولة والمجتمع. والغاية النهائية لتعطيل المؤسسات الاقتصادية هو لابقاء العراق بلداً مستهلكاً بمعنى ادق مجتمع لاينتج ما يأكل، واذا كانت الدولة في حالة حرب فهذا قطعاً لا يبرر للحكومة ايقاف المشاريع الاقتصادية والاجتماعية والخدمية، فالشعوب التي خاضت حروباً كانت تقاتل بيد وتعمل بالاخرى، وهكذا نجد ان الانكليز مثلاً في الحربين العالميتين كانوا قد استعانوا بقوة عمل المرأة لتحل محل الرجال الذين التحقوا بجبهات القتال، ولم تتوقف الحياة لانهم كانوا في حالة حرب، وكان النمو الاقتصادي قد ازدادت وتيرته اثناء الحرب لاستخدام سياسة تشغيلية قصوى (Giddens 1989).

اكثر من عشرة أجيال من خريجي الجامعات والمعاهد الفنية مازال اكثر من 95% منهم خارج سوق العمل، ومن دواعي الاحباط ان يوضع شباب العراق امام أحد خيارين، اما الانضمام الى القوات الامنية أوالى مجموعات الجريمة المنظمة، انه حصار من اربع جهات. ولسوف نبقى أمة عاجزة مالم يدرك اصحاب القرار ان الحرب على جبهة واحدة لن يقود الى نصر.

مواجهة الاحباط

في مواجهة الاحباط يتعين معرفة متى يمكن التوقف ومن ثم الانعطاف نحو اتجاه جديد. في ادناه بعض المقترحات التي تساعد على تجنب الاحباط:

1. محاولة تحديد مصدر القلق، هل هي خارجية أم داخلية؟
2. هل ان مصدر القلق شئ يمكن تغييره؟ كم هو صعب العمل على تغييره؟ هل هو تحت السيطره أم لا؟

3. إذا كان مصدر الاحباط مما يمكن تغييره أو ازالته، فهل ان الجهد المبذول يستحق المحاولة؟

الاجوبة على هذه الاسئلة تساعد على تحديد فيما اذا كانت محاولة مواجهة الاحباط مجدية او عديمة الجدوى. والاغلب ان عمليات الاحباط التي تحدث خارج ارادة الانسان لا يجدي مواجهتها انما تحتاج مجهودات اصحاب القرار. وعلى اية حال اذا كانت عديمة الجدوى، فان هناك قيمة لقبول الاشياء غير القابلة للتغير خصوصاً على المستوى الفردي. وانه من المفيد ايضاً التمييز بين العوائق الحقيقية والعوائق المتخيلة، حيث اننا احياناً نخلق عوائق متخيلة. كما لو قدمنا على وظيفة وطلبوا منا خبرة لا تقل عن خمس سنين عندها سنصاب بالاحباط ونوقف البحث عن وظيفة بيد ان هذا العائق ليس حقيقياً بما فيه الكفاية ليوقف مجهودنا في البحث، ولو واصلنا البحث لوجدنا حتما بعض الابواب غير المغلقة.

References

- Seeman. M, (1981) "intergroup relations" in Rosenberg. M and Turner. R, (eds) *Social Psychology: Sociological Perspectives*, NY, Basic Book, Inc., Publishers. 379-410.
- Gergen. K. J and Gergen. M. M, (1981) *Social Psychology*, NY, Harcourt Brace Jovanovich, Inc.
- Hogg. M. A and Vaughan. G. M, (2005) *Social Psychology*, 4th ed, Essex, Pearson Education Ltd.
- Pennington. D.C, (1993) *Essential Social Psychology*, London, Edward Arnold.
- Bilton. T, Bonnett. K, Jones. P, Lawson. T, Skinner. D, Stanworth. M and Webester. A, (2002) *Introductory Sociology*, 4th ed. NY, Palgrave MaCMillan.
- Borg. R. W, (1963) *Educational Research: An Introduction*, London, David Mckay.
- Larson. R. W, (1983) "Adolescent's daily experience with Family and Friends: Contrasting Opportunity Systems", *Journal of Marriage and the Family*. 45. 737-50.
- Hilgard. E. R, (1962) *Introduction to Psychology*, NY, Harcourt Brace.
- Giddens. A. (1989) Sociology, London Polity Pres.

الشخصية العراقية

في العالم الافتراضي

م. علي عبد الرحيم صالح

كلية الآداب - جامعة القادسية

- الجذور الإلكترونية للشخصية العراقية:

رغم دخول خدمات الانترنت الى الوطن العربي بداية تسعينيات القرن العشرين، لم يكن غالبية ابناء المجتمع العراقي يفهمون معنى كلمة انترنت او شبكات التواصل الاجتماعي، إذ أن مجموع ما وصل اليه عدد المشتركين في خدمة الانترنت عام 2002 بلغ 25000 عراقياً، أما بعد عام 2006 بدأ عدد المشتركين في خدمات الانترنت يتزايد بصورة كبيرة، إذ سهل الارتفاع المعيشي لدخل العراقيين وظهور شركات الانترنت في اشتراك العديد من العراقيين حيث وصل عدد المشتركين في عام 2010 الى 275 الف مشترك بنسبة 1% من المجموع العام للسكان[1]، إلا ان هذا العدد شهد ارتفاعاً عال عام 2011 في خدمات الانترنت عندما وصل الى 303,7601, مشتركاً عراقياً، لذا يمكن القول ان الشخصية العراقية بدأت تتأثر وتتفاعل في العالم الافتراضي منذ عام 2011 وصاعداً.

إن الطفرة الهائلة التي شهدها العالم الافتراضي في العراق حدثت عام2014، إذ اشترك في خدمات الحاسوب وفق تقدير منظمة الانترنت العالمية 997,8842,

(1) النعيمي، حازم عبد الحميد (2011): دور الإنترنت ومواقعة في تحرير المعلومة والرأي من القيود التقليدية، مركز المستنصرية للدراسات العربية والدولية، الجامعة المستنصرية.

عراقياً ولا سيما ان هذا العدد آخذ بالارتفاع بعد دخول خدمـة الانترنـت في الهواتف النقالة الحديثة.1

وبرغم الاهتمام الايجابي الذي اولته الشخصية العراقية للعالم الافتراضي بوصفه وسيلة مهمة نحو الاطلاع على ما وصل اليه العالم الواقعي من تقدم كبير، إلا ان الوعي العراقي لم يكن مستعداً بعد لاستيعاب الكم الهائل من التقدم المعرفي والتكنولوجي الذي وصل اليه من الخارج، لأن أي بنية معرفية يجب ان يكون لديها الاستعداد الثقافي والعلمي من اجل استعمال ما يصل اليها من جديد في الحياة اليومية، إلا ان الذي حصل في العراق هو ان العراقيين لم يكونوا ناضجين حول كيفية استعمال هذا التقدم بصورة صحيحة وسليمة نفسياً واجتماعياً، مما أدى الى ان يكون العالم الافتراضي نقمة كبيرة للمجتمع العراقي وليس نعمة له، فاصبح العراقي يستعمل شبكات التواصل الاجتماعي كأداة للنزاع والتفريغ العاطفي، واقامة العلاقات غير الناضجة، ووسيلة للسخرية غير الهادفة، والانتماء الى بعض التجمعات المذهبية التي تحرض على الكراهية[2].

إن الذي يدعونا لمناقشة هذا المتغير الحديث والطارئ على البنية المعرفية والاجتماعية للشخصية العراقية هو الاستعمال الخاطئ والعشوائي لصفحات التواصل الاجتماعي، فبدلا من ان تكون هذه الصفحات نافذة تواصلية مفيدة فأنها اصبحت جزءاً كبيراً من صراعات العراقيين المذهبية والسياسية، ونشر الصور المشوهة والشعارات السياسية الزائفة والشائعات المغرضة، والتأجيج السلبي للرأي العام، وبذلك عكست الشخصية العراقية في عالمها الافتراضي أبعاد سلوكية عنيفة مثل الاتجاهات النفسية المتعصبة، ورفض التعايش السلمي، والابتعاد عن احترام قيم الآخرين وحريتهم الشخصية ومعتقداتهم الدينية. من هذا المنطلق سوف نحاول ان نحلل بعض المظاهر السلوكية للشخصية العراقية في العالم الافتراضي

(1) Internet World Stats (2015): Internet Usage in the Middle East, http://www.internetworldstats.com.

(2) الراوي، بشرى جميل (2012): دور مواقع التواصل الاجتماعي في التغيير، مجلة الباحث الإعلامي، العدد 18.

الجديد، وان نجيب على بعض التساؤلات المهمة مثلاً كيف تعبر الشخصية العراقية عن نفسها في هذا العالم الاليكتروني؟ وماهية الدوافع التي تحفز العراقيين نحو النزاع واثارة الخلاف مع بعضهم البعض؟ وكيف تستعمل بعض الجهات العالم الافتراضي كوسيلة لخلق حالة الذعر والخوف لدى الشخصية العراقية في ضوء نشر الشائعات والاكاذيب السوداء.

- العالم الافتراضي كوسيلة للتعبير:

يشير كل Rosengren & Windahl, 1989 في كتابهما القضايا الاعلامية، إن من اولى دوافع الافراد نحو استعمال وسائل الاتصال الاليكتروني ان يركزوا عبر هذه الاداة في التعبير عن حاجاتهم وافكارهم ومشاعرهم الداخلية نحو مختلف الاحداث والقضايا البيئية، فنحن نفترض ان للاتصال بالعالم الافتراضي مدخلاً شخصياً ونفسياً[1]، إذ ان للشخص الذي يستخدم الانترنت وشبكات التواصل دوافع نفسية واجتماعية تحفزه نحو استعمالها مثل التعلم والمساندة الاجتماعية والتعبير عن الذات وتحقيق بعض اهدافه ومشاريعه المستقبلية[2] وبذلك فان صفحات الفيس بوك عبارة عن مرآة تنعكس في ضوئها حاجات وافكار ومشاعر الشخص صاحب الصفحة مثل مدى تفضيله او كراهيته او حيادته نحو المواضيع والجماعات والشخصيات الموجودة في المجتمع، وماهية رؤيته للواقع الاجتماعي أو افتراضاته وتعليلاته لما يجري في العالم من احداث سياسية واجتماعية واقتصادية سريعة. وبما ان العراقيين يعيشون في عالم مليء بالصعوبات والمشاحنات السياسية والدينية فان جزءاً كبيراً من هذه المشاحنات انتقل الى صفحاتهم الاليكترونية في عالمهم الافتراضي، فأصبحت هذه الصفحات وسيلة تجذب اسقاطاتهم اليومية وانتقاداتهم وشتائمهم تجاه من جعلهم يشعرون بمدركات البؤس والظلم والمعاناة.

(1) Rosengren, K. E., & Windahl, S. (1989). *Media matter: TV use in childhood and adolescence.* Norwood: NJ: Ablex.

(2) الكحكي، عزة مصطفى (2009): استخدام الانترنت وعلاقته بالوحدة النفسية وبعض العوامل الشخصية لدى عينة من الجمهور بدولة قطر «أبحاث المؤتمر الدولي» الإعلام الجديد: تكنولوجيا جديدة، جامعة البحرين.

إن هذه المعاناة والاسقاطات نجدها واضحة في المنشورات والصور الساخرة التي تنشر يومياً عن معاناة الفقراء، وانعدام الخدمات الحكومية مثل انقطاع الماء والكهرباء والخدمات البلدية، ورفاهية المسؤولين وفسادهم او عدم مبالاتهم بمعاناة المواطن البسيط أو ما يحمله من هموم وعذاب مستمر. هذا ما وجدته دراسة[1] تم اجراؤها عام 2013 على 324 مستخدماً من العراقيين في الفيس بوك بشأن ما تحتويه مشاركاتهم من صور واعجاب وتعليقات، إذ اظهرت النتائج ان اهم ثلاثة قضايا يهتم بها المستخدمين جاءت في الجدول الاتي:

التسلسل	القضايا	المحتويات
1	العلاقات العاطفية والاجتماعية	تتضمن مشاعر التعاطف الانساني والصور العاطفية مثل الشعر، والاغاني، والحكم الاجتماعية، فضلا عن الصور التي تهدف الى ارسال رسائل عاطفية نحو الجنس الاخر.
2	عدم الاستقرار السياسي	تتضمن المشكلات السياسية في الساحة العراقية، مثل صراعات المسؤولين، وتصريحاتهم السياسية، وتدهور الخدمات، وعدم الاستقرار الامني.
3	الصراعات الدينية	تتضمن التعبير عن الهوية الدينية المذهبية ومحاولة المحافظة عليها، وتضمنت الصراعات الطائفية والصور المشوهة، فضلا عن التنافس المذهبي واستعماله في الساحة السياسية.

ورغم ان هذه الدراسة جاءت قبل احتلال داعش لبعض المدن العراقية، فان مساحة هذه القضايا في وعي الشخصية العراقية قد تغير تماماً، فوفقاً لملاحظة الباحث المنظمة لما يدور في ساحة المجتمع العراقي من احداث واتجاهات، فاننا نجد ان منشورات عدم الاستقرار السياسي والصراعات المذهبية تحتل الآن المراتب الاولى في مشاركات الشخصية العراقية عبر شبكات التواصل الاجتماعي مقابل تراجع المنشورات التي تؤكد على قيم الحب والتسامح والتعايش السلمي، مما يشكل ذلك مؤشراً على مدى تأجج الافكار والمشاعر العنيفة في داخل بنية الشخصية العراقية.

(1) صالح، علي عبد الرحيم (2013): سيكولوجيا الفيس بوك بين انعكاسات الشخصية والواقع العراقي، صحيفة الحوار المتمدن، العدد 4284.

- جدل الهويات المذهبية:

يشير عالم النفس Tajfel, 1978 ان جزءاً من مفهوم الفرد عن ذاته يأتي من ادراكه بوصفه عضواً في جماعة ما، إذ تعد الجماعة أحد الصور النفسية التي تشكل ذواتنا ومكانتنا وانتماءنا الاجتماعي؛ وكلما كانت الجماعة تحتل مكانة ايجابية وعالية بين الجماعات فانها تعطي لذات الفرد دعماً ايجابياً واجتماعياً كبيراً وخاصة عندما يكون الفرد في موقف مقارنة مع جماعة اخرى (نحن مقابل هم)، ومن ثم فعندما أشعر بان جماعتي مكانة عالية ومرموقة بين الجماعات الاخرى فان هذا يجعلني أشعر بالفخر والمكانة الجيدة.[1]

لهذا السبب نجد ان اكثر العراقيين يميلون الى التجمع في صفحات الفيس بوك وفقاً لانتماءاتهم الدينية والسياسية والمهنية، ويطلق العراقيون على هذه التجمعات اسم كروب Group بمعنى جماعة. ورغم فائدة هذه التجمعات الافتراضية كوسيلة للتعارف وتناقش الآراء والافكار وتبادل الخبرات إلا ان جدواها قليلة جداً بالنسبة للعراقيين، لأن الكثير منهم استعملوا صفحات الفيس بوك بوصفها وسيلة للانتماء المذهبي واثبات هويتهم الدينية وساحة للجدال العقيم حول اثبات من هو على حق ومن على باطل؟ ومن ابرز القضايا المذهبية التي تم مناقشتها على صفحات الفيس بوك مثل هل ان أبي بكر وعمر بن الخطاب يستحقان الخلافة ام انهم عصوا الرسول عندما اخذوها من علي بن ابي طالب؟ هل ان المذهب الجعفري هو أصلح المذاهب الاسلامية؟ ما حكم من لم يدخل في ولاية علي بن ابي طالب؟ فضلاً عن ذلك مناقشة القضايا الجدلية حول شرعية بعض المسائل الدينية مثل المتعة والمسيار أو احكام الصلاة.. وغيرها.

إن المثير للسخرية في هذه العملية السيكوتواصلية ان تُنقل ساحة صراع الماضي بين المذاهب الاسلامية الى اكثر ساحة التواصل العلمي والاجتماعي حداثة، فبدلا من ان تكون ساحة التواصل الالكتروني مناراً للتقدم والتطور عبر

(1) Tajfel, H., & Turner, J. C. (1986).The social identity theory of intergroup behaviour. In S. Worchel & W. G. Austin (Eds.), *Psychology of Intergroup Relations* (pp. 7-24). Chicago, IL: Nelson-Hall.

التبادل الاجتماعي فاننا نجد ان الشخصية العراقية استعملتها كوسيلة للرجوع الى الماضي واجترار صراعات التراث الاسلامي من جديد، مما يدل ذلك على عدة مؤشرات:

- ان الشخصية العراقية ماضوية وسلطوية بحته، وذات نضرة مستقبلية ضيقة.
- ان العنف اصبح يحتل جزءاً كبيراً من مدركاتها الشخصية بوصفه وسيلة لحل النزاعات والصراعات الاجتماعية.
- إن الشخصية العراقية لم تصل بعد الى النضج النفسي والوعي الكامل الذي وصلت اليها الشعوب الاوربية في ضوء نبذ الخلافات القديمة ومحاولة التعايش بصورة سلمية.
- إن الشخصية العراقية تعاني من أزمات ومشكلات عديدة في بنيتها الشخصية والاجتماعية مثل تراجع قيم الحياة وضعف الالتزام الاصيل بالقيم الدينية وتهرؤ الضمير الاخلاقي[1].

وبذلك ظهر في هذا العالم الافتراضي جماعات مذهبية تنادي بالتعصب والكراهية والموت ضد الجماعات المنافسة، والتي تتمثل بالصور المعادية والخطابات المذهبية ومقاطع الفيديو التي تكفر الآخر وتستبيح دمه وعرضه وماله.

- نشر التشاحن والفتن السياسية:

توصلت احدى دراسات مركز بيو الأميركي للأبحاث Pew Research Center بأن الدول العربية مثل تونس ومصر والأردن ولبنان هي أكثر دول العالم استخداماً لهذه الشبكات في الحديث عن السياسة والقضايا الاجتماعية. إذ يستعمل ستة من بين 10 أفراد في البلدان العربية مواقع التواصل الاجتماعي للمشاركة في الآراء السياسية والدينية، وكذلك تزيد هذه النسبة لتصل إلى أكثر من 70 بالمئة للحديث عن القضايا الاجتماعية المتأزمة (مثل الطلاق، والفقر،

(1) صالح، قاسم حسين (2014): ما أفسدته السلطة في الشخصية العراقية (2-2)، صحيفة الحوار المتمدن، العدد 4478.

والفساد.. وغيرها)[1]. ورغم ان دخول الانترنت الى العراق جاء متأخر مقارنة بالدول العربية السابقة، إلا ان العراقيين لم يختلفوا عن اخوانهم العرب في توجههم واستعمالهم العالم الافتراضي في النقد السياسي، والتنافس الديني.

وبما ان من طبيعة العراقيين انهم سريعو التأثر بما يقوله السياسيون في العراق من خطب وتحليلات سياسية، فان ما يصرح به قادة الكتل السياسية على شاشة التلفاز يؤثر فيهم بدرجة كبيرة الى درجة تنتقل فيها الصراعات النيابية والمذهبية من مجلس البرلمان وقبة الحكومة الى عامة الناس. فمن الطريف ان تجد ان حالات الشجار التي تحدث بين المسؤولين في البرلمان اليوم تسري بين المواطنين في الغد رغم ان المواطن لا ناقة له في هذا الشجار ولا جمل سوى زيادة التشاحن السياسي وتأخر الخطط والقوانين الخدمية التي تخدمه وتخدم عامة الشعب. ومن المميز ايضاً في هذا الامر ان الكثير من العراقيين المشتركين في صفحات التواصل الاجتماعي يتنازعون فيما بينهم مثلما يتنازع السياسيون في البرلمان، إذ ان كل طرف يحاول اقناع الطرف الآخر بأنه على حق ومن يخالفه على خطأ، وهم يستعملون في ذلك قواعد السخرية ونشر ملفات الفساد والتصريحات السياسية السابقة او مقاطع فديو تدين السياسي واتباعه من المسؤولين.

الى جانب ذلك بدأ سياسيو العراق ينتبهون الى اهمية العالم الافتراضي في توجيه الشخصية العراقية في العالم الواقعي، إذ بدأوا يستعملون محركات الانترنت مثل الفيس بوك والتويتر في التوظيف السياسي والتأثير في الراي العام او التسقيط بالسياسيين المعارضين، فضلاً عن استعمال صفحات التواصل في التأثير على عمليات صنع القرار، وبذلك ظهرت ثلاث وظائف مهمة لشبكات التواصل الاجتماعي، هي:

أ. الوظيفة الاخبارية: تتمثل في استعمال مواقع التواصل الاجتماعي لتداول الاخبار السياسية والتسقيطية والمزيفة، فيكفي ان تنشر مجموعة من الاخبار من أجل احداث العنف وزيادة التوترات المتصاعدة سياسياً.

(1) http://www.pewinternet.org

ب. الوظيفة التعبوية: تتمثل في استعمال وسائل التواصل الاجتماعي لحشد الرأي العام وتحريك الجماهير للنزول الى الشارع، لذلك فان الغرض من هذه الوظيفة اثارة الاحتقان الشعبي ضد بعض المسؤولين او بعض قرارات الدولة[1].

ج. الوظيفة الدعائية: وتتمثل في استعمال السياسيّن والمرشحين لمواقع التواصل الاجتماعي في الدعايات الانتخابية، وذلك بهدف ايصال اسمائهم وكابوناتهم وارقامهم الانتخابية للناخبين. رغم ذلك فان هذه الدعايات خضعت للتشويه والتلاعب من قبل الجهات المنافسة سياسياً، إذ بدلت شعارات المرشحين والوان كتلهم السياسية في الفيس بوك الى اشكال تبعث الى السخرية منهم، مثل ان المواطن ينتصر الى (ينتحر)، او محافظتي اولاً الى (محفظتي اولاً).

– الوجود الافتراضي الفارغ:

نجد ان الكثير من المستخدمين وخاصة الشباب العراقي يتخذون شبكات التواصل الاجتماعي طريقاً للهروب من الواقع اليومي او نسيان ما يواجهونه من ضغوطات نفسية كبيرة، رغم ذلك فان تمسك الشباب بالعالم الافتراضي الالكتروني خال من أي معنى او احساس بالقيمة والفائدة، إذ نجدهم يصرحون ان استعمالهم المتواصل للفيس بوك عبارة عن روتين يومي او جزء من حياتهم الرتيبة، أي مجرد استهلاك للوقت وبعيداً عن روح المتعة والمرح والفائدة. يمكن ان نطلق على هذه الحالة بالفراغ الوجودي، والذي يتمثل بافتقاد المعنى والهدف من الوجود الشخصي في الحياة، والذي يحدث عنه شعوراً بعدم الجدوى، والملل، وعدم الاحساس بالقيمة السامية للذات والعالم، وكأنما هناك فراغ وجودي يعانيه الشباب ويحاولون ملئه من خلال الانشغال بشبكات التواصل الاجتماعي.

(1) مكرم، رانيا (2014) أفول تدريجي: التوظيف السياسي لمواقع التواصل الاجتماعي، المركز الإقليمي للدراسات الاستراتيجية، القاهرة.

يأتي هذا الشعور لدى الشخصية العراقية من قلة الاماكن الترفيهية في البيئة العراقية الواقعية، مثل السينمات والمسارح والمعارض الفنية ودور الكتب الدائمة وقلة النوادي الرياضية، إذ ان البيئة العراقية تفتقر للاماكن الترويحية كما ترفض الجماعات المتطرفة من انتشار السينمات واغلاق الكثير منها، إذ اعتبرت هذه الجماعات ان التمثيل والغناء حرام ولا يجوز شرعاً وان الرسم والرياضة مضيعة للوقت ما عدا السباحة وركوب الخيل، مما ادى ذلك الى تضييق دائرة التنفيس الاجتماعي والتعبير الشخصي عن الهوايات والميول الخاصة مقابل ازدياد الضغوطات الاقتصادية والسياسية والطائفية على الناس في المجتمع العراقي[1].

لذا يتولد لدى العراقيين عن هذه الحالة شعور بالعدمية وعدم الاحساس بطيبة الحياة ومتعتها، أو ان الحياة مجرد واقع حتمي فرض عليهم قسراً وما عليهم سوى مجاراة هذا الواقع والخضوع له، وهذا ما يعطي للشخصية العراقية طابعاً سلبياً ومأساوياً بعيداً عن مدركات الواقع وعدم مواجهته بشتى طرائق العيش وضعف الرغبة في الحياة. وبهذا الصدد تشير تقارير المفوضية العليا لحقوق الانسان الى زيادة انتحار الشباب والاقبال عليه بنسبة 60% (بفئة عمرية تتراوح بين13— 35 سنة)، إذ انتحر في عام 2013 ما يقارب 383 حالة وغالبيتهم من الشباب، وبواقع 119 في ذي قار، و76 في ديالى، و68 في نينوى، و44 في بغداد الرصافة، و33 في البصرة، و16 في المثنى، و15 في ميسان، و12 في واسط".

واشار التقرير إلى أن "طرق الانتحار تراوحت بين الشنق والغرق واستخدام السلاح ناري والحرق". فضلاً عن ذلك ذكرت المفوضية ان الاسباب الحقيقية وراء هذه العمليات يرجع الى كثرة البطالة والضغوط الاجتماعية والعنف الأسري، وتراجع الثقافة الروحية، فضلاً عن "عدم الاهتمام الحكومي الجدي بالشباب، كما أشار الخبراء الى سبب مهم يتعلق بالعالم الافتراضي، إذ رأوا ان لوسائل التكنولوجيا الحديثة مثل الانترنت الخطورة في دفع الشباب العراقي نحو الانتحار من حيث انه يحتوي مواقع فيها تفصيلات مختلفة عن طرق الانتحار، إذ تم ضبط

(1) عزيز، حاتم جاسم وحيدر طارق كاظم (2009): استثمار أوقات الفراغ لدى طلبة الجامعة، مجلة القادسية للآداب والعلوم التربوية، المجلد 8، عدد 2.

853 مادة عن موضوع الانتحار في مواقع التواصل الاجتماعي، و171 مادة في موقع الويب، و102 مادة في اليوتيوب، وبذلك نجد ان حالات الانتحار في تزايد مستمر بين الشباب وخاصة بعد احتلال داعش لمدن عراقية، وتشريد الكثير من العوائل واغتصاب العديد من النساء[1].

- انتهاك الشخصية العراقية للعالم الافتراضي:

يختلف العالم الافتراضي لشبكات التواصل الاجتماعي عن العالم الفعلي بدرجة كبيرة، إذ يحكم واقعنا الفعلي الكثير من المعايير الاجتماعية والانظمة القانونية والعقابية التي تحاسب المقصر والمجرم على سوء تصرفه او اعماله الخطيرة في حين ان العالم الافتراضي بعيد جداً عن الرقابة، ويمتاز بحرية مطلقة وغير منضبطة في التشهير والتعبير غير اللائق ونشر صور وخطابات الكراهية[2][3]، وبما ان الشخصية العراقية تمتاز بالعناد والتحدي وتحتاج الى ضبط خارجي اكثر مما هو داخلي فانها خرجت كثيراً عن المعيار الاجتماعي في العالم الافتراضي وذهبت تمارس ما تم كبته في العالم الفعلي من غرائز وحاجات وافكار في هذا العالم المنفتح، وخاصة ان العالم الافتراضي يتيح للفرد فرصة التصرف والتعبير من دون ان يعرف أحد ما اسمه وهويته الشخصية.

وبهذا الصدد تشير الاحصائيات الى وجود الكثير من الانتهاكات لدى العراقيين في عالم الفيس بوك والانترنت، إذ تم حجب الكثير من اشتراكات الفيس بوك في العراق، وتصفية اكثر من 1392 موقعاً مشبوهاً في العراق، فضلاً عن غلق 20 موقعا الكترونياً (عراقياً) يحرض الشباب على الانتماء الى الجماعات الارهابية والمسلحة في العراق، كما يحفزهم للجهاد ضد الحكومة العراقية، وهذه المواقع تم

---

(1) عباس، واثق (2014): خطر تزايد الانتحار في العراق، دار بابل للدراسات، متاح على http://www.darbabl.net/akhbarshow.php?id=3796

(2) العزوي، سامي مهدي وحذام خليل حميد (2006): دراسة مقارنة بين الأطفال المتابعين لشبكة الانترنت وغير المتابعين في سمات الشخصية، مجلة جامعة ديالى، عدد 28.

(3) شناوي، سامي أحمد ومحمد خليل عباس (2014): استخدام شبكة التواصل الاجتماعي (الفيس بوك) وعلاقته بالتوافق النفسي لدى المراهقين، مجلة جامعة، المجلد 18، عدد 2.

ضبطها في الويب والفيس بوك والتويتر والسكايب واليوتيوب[1].

فضلاً عن ما سبق تشير الدراسات النفسية الى العديد من الانحرافات الاخلاقية والاجتماعية التي ظهرت في العالم الافتراضي، مثل: مشاهدة الافلام الاباحية بصورة مفرطة، وابتزاز المشتركين في ضوء قرصنة صفحاتهم الشخصية ونشر صورهم واسرارهم في العالم الافتراضي، ممارسة العنف الالكتروني مثل التشاجر مع المشتركين وسبهم وتوجيه الرسائل والصور العنيفة والمخلة بالآداب العامة، بناء العلاقات الافتراضية المشوهة، إهمال الواجبات والعلاقات الاسرية والشخصية في العالم الواقعي[2]،[3]. وقد يكون لذلك علاقة بسمات الشخصية المنتهكة الكترونياً، إذ تشير دراسة sanders, 2000 وAndrade, 2003 وwhanget.al, 2003 ان من سمات الاشخاص الذين يسيئون استعمال الانترنت وشبكات التواصل الاجتماعي ارتفاع مستويات الاكتئاب والعزلة الاجتماعية، العنف، القلق الاجتماعي، الصراع النفسي، العصبية، تدني ضبط الذات، اضطرابات الاكل والنوم، وزيادة الشعور بالضغوط النفسية، ونقص المهارات الاجتماعية، وادمان الجنس[4].

- الحراك الجماهيري وتهديدات العالم الافتراضي:

يقول فيكتور فرانكل أن المعنى يمكن أن يوجد حتى في أقسى لحظات المعاناة والألم، وأن كل إنسان مسئول عن إيجاد معنى خاص لحياته، وعن تحويل اسوأ الخبرات الحالكة إلى لحظات انتصار حاسمة، أملاً في بلوغ هدف محدد5. ان رغم

---

(1) Senft, Adam (2014): Iraq Information Controls Update: Analyzing Internet Filtering and Mobile Apps, https://citizenlab.org.

(2) حمد، أمل كاظم (2010): إدمان الأطفال والمراهقين على الإنترنت وعلاقته بالانحراف، مجلة العلوم النفسية، العدد 19.

(3) أحمد، سعاد كاكا (2011): دراسة حول تأثير إدمان الإنترنت على الطالب الجامعي، مجلة جامعة تكريت، المجلد 18، العدد 5.

(4) منصور، هدى كامل (2014): هندسة الذات وعلاقتها بسوء استخدام الإنترنت لدى طلبة الجامعة، مجلة الأستاذ، المجلد الثاني، عدد 211.

(5) باترسون، س: (1990) نظريات الإرشاد والعلاج النفسي، ترجمة حامد الفقي، دار القلم، الكويت.

شعور العراقيين بفقدان سيطرة التحكم على مجريات حياتهم وشعورهم باليأس والضعف امام الضغوط الاجتماعية والقهر السياسي، إلا ان بعضهم لم يستسلم الى الواقع الفعلي وذهب يؤسس لحركات وتجمعات ثقافية تؤكد على حقوق الانسان والدفاع عن العدالة والمساواة وتغيير الواقع الراهن. وبالفعل بدأ المثقفون والناشطون العراقيون العمل بتأسيس جماعات (كروبات) احتجاجية في العالم الافتراضي وتوجيه النداءات الى الخروج بتظاهرات واسعة تنادي ضد الظلم والفساد والمحسوبية وارتفاع رواتب مجلس النواب. وبدأت هذه الحملات الواعية من عام 2012 واستمرت الى عام 2014 قبل دخول داعش للعراق، ومن ابرز التجمعات التي ظهرت في ذلك الوقت: إئتلاف ثورة شباب 25 شباط العراقية، إئتلاف شباب نصب الحرية من أجل العراق، اتحاد الطلبة التقدمي، تجمع 25 شباط، حركة 15 شباط، حركة كفى، تجمع شباب من أجل التغيير، شباب24 شباط، تجمع الثورة الزرقاء، تجمع المادة 30، لجنة الاحتجاجات الجماهيرية، الإتحاد العام للمجالس العمالية، شباب أين حقي، ثورة الغضب العراقي، فرسان تحرير العراق الإلكترونيين، حركة نهضة العراق، حركة شباب العراق المستقل، تجمع عاصفة الغضب العراقي، حركة ثوار الرافدين.

لقد لاقت الدعوة الى التظاهرات في العالم الافتراضي قبولا كبيراً، وخرجت منه الى العالم الواقعي باحتجاج عراقي كبير والذي اطلق عليه بتظاهرات ساحة التحرير في 3ـ8ـ2013 ضد حكومة المالكي السابقة، واطلق فيها المتظاهرين شعارات منها (بالروح بالدم نفديك يا عراق) و(يا جيش يا سور الوطن لا تصير ويه الظالم). ورغم التزام المتظاهرين الحياد تجاه الجيش والشرطة في ساحة التحرير، إلا ان حكومة المالكي اقحمت عناصر الامن والدفاع في ضرب المتظاهرين ومنع أي تظاهرة بالقوة، وبلغت مجمل "الانتهاكات" التي سجلتها حكومة المالكي خلال تلك المدة بـ "293 انتهاكا، صنفت بواقع 68 حالة احتجاز واعتقال، و95 حالة منع وتضييق، و68 حالة اعتداء بالضرب، وسبع هجمات مسلحة، و51 انتهاكاً متفرقاً، و13 حالة إغلاق وتعليق رخصة عمل[1]".

(1) صحيفة المدى العراقية (2013): قوات الأمن تمنع ناشطين من التظاهر في ساحة التحرير وتطرد مراسلي وسائل الإعلام، العدد 2072.

وبرغم تجاهل حكومة المالكي مطاليب الشعب والشباب الأحرار الراغبين في التغيير، فأن تظاهرة الثامن من 2013 حفزت الى ظهور تظاهرة كبرى شملت جميع محافظات العراق، إذ أثار قانون التقاعد الموحد لسنة 2014 استياء واستهجان الكثير من الناس بسبب ظلمه وجحفه للكثير من شرائح المتقاعدين مقابل تمتع البرلمانين برواتب ودرجات خاصة وفق الفقرتين (37 – 38) من قانون التقاعد الموحد – وبذلك خرج الناس للتظاهر في يوم (2014/2/15) في اغلب المحافظات العراقية (بغداد، الكوت، النجف، كربلاء، الديوانية، الناصرية، السماوة، ميسان، البصرة) مندده بتلك الامتيازات ومطالبة بإلغاء تلك الفقرات من القانون الجديد.

إن هذه التظاهرات كادت تؤدي الى تغيير الحركة السياسية في العراق لولا تدخل المرجعيات الدينية في النجف وكربلاء وبغداد بايقاف التظاهرات، إذ وجهت نداء بعدم التظاهر بحجة ان الوضع العراقي الآن غير مناسب مقابل سكوتها على ما يجري في مرافق الدولة من فساد مالي كبير، مما كان لهذا النداء تأثير سلبي على مستقبل العراق، إذ ان اخماد هذه التظاهرات وتآكل مرافق الدولة العسكرية والامنية والاقتصادية والخدمية أدى في النهاية الى سقوط ثلث العراق على يد داعش والمتمردين والناقمين على حكومة المالكي السابقة، مما أشعل هذا الحدث انتقادات العراقيين في العالم الافتراضي، وتمنشر العديد من الصور ومقاطع الفديو بشأن سقوط الموصل وتهجير العديد من ابناء مناطقها فضلاً عن قتل واغتصاب ونهب ابناء الاقليات الدينية من الايزيديين والشبك والاشوريين والمسيحيين. وبما ان نشر مثل هذه المواد كانت سبباً رئيساً في اضعاف حكومة المالكي فأنه امر بغلق العالم الافتراضي بتاريخ 13ـ6ـ2014 حيث اوعز الى وزارة الاتصال العراقية بمنع استعمال الفيس بوك بحجة ان نشر صور انكسار الجيش وضحايا داعش الاجرامي يقلل من نشر الشائعات والفتن بينهم. رغم ذلك لم تنجح الجهات الامنية العراقية في غلق العالم الافتراضي إلا لبعض الوقت، إذ انتشر في حينها بعض البرامج الحاسوبية التي تساعد المستخدم الى دخول الفيس بوك حتى وان كانت مغلقة من قبل الرقابة الحكومة، ومن اكثر البرامج التي شاعت في ذلك الوقت برنامج Fire Chat الذي يقوم بادخال المستخدم لصفحات الفيس

بوك في تطبيقات الهواتف الذكية، وحقق العراقيون في ضوء استعمال هذا البرنامج أعلى نسبة من المستخدمين، فضلاً عن ذلك يشير تقرير شركة "فاير تشات" ان هذا البرنامج تم تحميل تطبيقه في العراقاكثر من 40,000 مرة منذ 14 حزيران 2014، مما جعل المستخدمون في العراق يحتلون المرتبة الثانية بين المستخدمين بعد الولايات المتحدة الامريكية.

- الشخصية العراقية الى أين؟

نستنتج مما سبق أن الشخصية العراقية في العالم الافتراضي الجديد لم تختلف كثير في ابعادها النفسية والاجتماعية عن العالم الفعلي، إذ ما زالت تعبر عن خصائصها النفسية التي اتسمت بها منذ سنوات طويلة كالعنف، والكراهية المذهبية، وعدم الرغبة في التعايش السلمي، وازدواج الشخصية، والتعصب القبلي.. وغيرها عندما تتفاعل في بيئتها الاجتماعية، فما حدث عبارة عن ازاحة نفسية لما تعانيه الشخصية العراقية من ازمات وسمات من العالم الواقعي الى العالم الافتراضي. فضلاً عما سبق ان غياب الرقابة في الانترنت سبب في ظهور مشكلات نفسية واجتماعية جديدة لدى الشخصية العراقية مثل إدمان الانترنت، وكثرة الاحتكاك بالأفكار والجماعات المتطرفة، وممارسة العنف الالكتروني، وزيادة التشاحن السياسي والمذهبي.

إلا أن ذلك لا يعني ان العراقيين لم يتأثروا بالعالم الافتراضي حيث اتاح هذا العالم للشخصية العراقية خبرات جديدة لم تكن تعرفها سابقاً، مثل الانفتاح على العالم والتواصل معه، والتحرر من بعض القوانين الاجتماعية الصارمة، وحرية النشر والكتابة. ليس ذلك فقط بل ان العالم الافتراضي جعل العراقيين ينجحون في فك قيود الماضي وان يتجمعوا من جديد ويعبروا عن رأيهم واحتجاجهم على الظلم الاجتماعي والسياسي بعد سنوات القهر الطويلة، وان يعرفوا حقوقهم وكيفية التعبير عنها من دون خوف، وان يعيدوا تعريف دورهم المدني عبر نقاشاتهم العديدة والواسعة حول صلاحية وشرعية النظم الاجتماعية والمؤسسات الحكومية التي يعيشون فيها، وبذلك تعد التغيرات السابقة في الشخصية العراقية

دليلاً واضحاً على نضجها وتغير وعيها ومدركاتها للواقع الخارجي، مما قد يكون ذلك عاملاً مساعداً في تحفيزها من اجل اعادة صياغة الوضع الراهن وتشكيله من جديد بما يناسب المتطلبات والتحديات الجديدة التي تواجهها الآن.

إن العالم الافتراضي يمكن ان يكون اداة لتطوير العقلية العراقية في ضوء تبادل الخبرات والمعلومات الجديدة، وجهازاً رقابياً او سلطة سادسة لفضح ما يجري في المجتمع ومؤسساته من فساد واختلاس وقوانين تكرس لدكتاتورية النظام، ويمكن ان يتم ذلك في ضوء نشر الوعي الالكتروني بين جيل الاعلاميين والشباب والمثقفين في الساحة العراقية المعاصرة، ليكون العالم الافتراضي وفق وصف البروفيسور قاسم حسين صالح سلطة تمنحنا التفاؤل وتحمي قوانين المواطنة والعدالة الاجتماعية والكفاءة، وان يكون كفيلاً بإصلاح ما افسدته سلطات ما قبل التغيير وبعده في الشخصية العراقية[1].

(1) صالح، قاسم حسين (2014): المصدر السابق.



الأستاذ الدكتور قاسم حسين صالح

- مؤسس ورئيس الجمعية النفسية العراقية.
- مؤسس ورئيس رابطة أساتذة جامعة بغداد.
- مؤسس ورئيس مكتب الاستشارات النفسية والاجتماعية.
- مؤسس ورئيس وحدة الإرشاد التربوي والنفسي بجامعة بغداد.
- عضو الهيئة التدريسية بقسم علم النفس ـ جامعة بغداد (1975-2004).
- عضو الهيئة التدريسية بقسم التربية وعلم النفس ـ جامعة صلاح الدين (2004-2008).
- عضو منظمة الصحة العالمية WHO.
- عضو المجلس العراقي للثقافة.
- عضو الاتحاد العام للأدباء والكتّاب العراقيين.
- عضو رابطة الأخصائيين النفسيين المصرية.
- واضع فلسفة وأهداف التعليم العالي في العراق المعتمدة من قبل الوزارة (2004).
- حاصل على تكريم وزارة التعليم العالي لعام (2000) الخاص برعاية العلماء.
- حاصل على جائزة الابداع الثقافي لعام (2011) من سدني باستراليا.
- حاصل على جائزة تاج العنقاء الذهبية الدولية (2013).
- حاصل على تكريم وشكر من جامعة السلطان قابوس (2014).
- أحد علماء النفس العرب الستة الفائزين بالمرتبة الاولى في منافسة (الراسخون في العلوم النفسية لعام 2015).
- صدر له 26 مؤلفاً بينها كتب منهجية تدرّس في جامعات عراقية وعربية.
- أشرف على أكثر من 40 أطروحة دكتوراه و70 رسالة ماجستير.

